محسن محمد

إنهم يقتلون الأدباء

الناشر
مكتبة غريب
٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧٩٠

قضية أدبية

مشهد يتكرر فى امتحان النقل فى المدارس الابتدائية والإعدادية وربما الثانوية أيضاً .

يقول الممتحن للطالب :

ـ ماذا تحفظ من أدب طه حسين ؟

يجيب الطالب بأنه يحفظ فقرة أو أكثر من كتاب « الأيام » لطه حسين .

وعندما يطلب منه الممتحن أن يتلوها فإن بعض الطلبة يتلعثم ، يخطىء ، أو ينسى .

وتكون النتيجة أن يرسب طالب لأنه لا يحفظ ما كتبه طه حسين أو العقاد أو شعر شوقى أو حافظ إبراهيم أو امرىء القيس.

وفى هذه الحالة يظل طول حياته يكره أدب وشعر كبار الأدباء والشعراء العرب .

وبفرض عدم رسوبه فى الامتحان فإنه فى أغلب الأحوال لا يستطيع أن يحب أدباً فرض عليه ، وشعراً طلب منه أن يحفظه عن ظهر قلب !

وليست هذه الظاهرة قاصرة على الطلبة فى العالم العربى ، بل ظاهرة عامة فى كل بلاد العالم .

وهناك أدباء بالذات وشعراء معينون ينفر الشباب من كتاباتهم وقصائدهم لأنها كانت ضمن المواد المقررة أثناء سنوات الدراسة . ولا يستطيع هؤلاء الطلاب العدول عن الأفكار التى ارتبطوا بها أو عاشوها فى طفولتهم وصباهم .

ومهما قيل لهم بعد ذلك من أن هذا الأدب جيد يعكس صورة الحياة ويضىء لهم الطريق فإن الفكرة لاتتغير ولا تتبدل إذ تمثل بالنسبة للطلاب أياماً تعتبر فى رأى البعض سنوات قهر وعذاب !

وقد بدأت بعض المكتبات فى الخارج تراجع أسماء كتب الأدب والشعر الأكثر توزيعاً والأقل توزيعاً فوجدت أن بعض الكتاب لا تروج كتبهم أبداً لأن وزارات التعليم والسلطات المدرسية أساءت اختيار القطع المقررة على الطلبة أثناء الدراسة . ومن هنا ساءت العلاقة بين هؤلاء الكتاب والشعراء وبين بعض الطلاب .

والنتيجة لهذه الدراسات أن أخذ كثير من شباب المؤلفين ـ شعراً ونثراً ـ يطلبون إلى هيئات التدريس عدم اختيار نماذج من كتاباتهم ضمن المقررات الدراسية .

وقالوا :

ـ إذا أردتم تدريس بعض ما نكتبه فليكن ذلك بشرط واحد وهو ألا يرغم الطلاب على حفظ ما نكتب وألا تكون هذه النماذج ضمن مواد الامتحانات .

بل إن بعض الكتاب والشعراء ، فى عدة دول ، هددوا بإقامة دعاوى ضد السلطات التعليمية إذا اختارت كتاباتهم ضمن أسئلة الامتحان .

وقد جرت العادة أن يحرص المؤلفون على حماية حقوق مؤلفاتهم من السرقة والاقتباس أو إعادة النشر ، أما أن يطالب المؤلفون بعدم إرغام الطلاب على حفظ كتاباتهم فإن هذه تعتبر أول سابقة من نوعها فى العصر الحديث .

وإذا كان هؤلاء الكتاب يستطيعون حماية مؤلفاتهم من كراهية الجيل الجديد لها ، كما يدعون فإن قدامى المؤلفين لا يستطيعون ذلك ، فقد انتهت حقوق التأليف بالنسبة لهم وبالنسبة لورثتهم أيضاً ولذلك فإن وزارات المعارف وسلطات التعليم تستطيع أن تلزم الطلبة بحفظ أو قراءة نماذج من كتاباتهم .

وقد أصبحت هذه قضية هامة فى الغرب أثيرت فى الكتب والصحف وعلى شاشات التليفزيون .

ونشأت نظرية تقول بأن الأدب للمتعة وللاسترخاء أما أن يكون الأدب وسيلة للحصول على شهادة مدرسية ، أو درجة جامعية ، وبالتالى للحصول على وظيفة فإن ذلك يعتبر فى رأى بعض المؤلفين تحويلاً للأدب عن أهدافه السامية والمثل العليا التى وجد من أجلها .

ولم تنتقل هذه القضية حتى الآن إلى عالمنا العربى . ولا يزال الطلاب يقرأون ، رغماً عنهم ، ويحفظون بعض الأدب والشعر الجاهلى بما فيه من ألفاظ صعبة ومعان بعيدة عن الحياة المعاصرة .

ومن المؤكد أن هذه القضية ستثار يوماً عندنا وسيكون لها مؤيدون ومعارضون كما حدث فى الغرب .

وللقضية جانبان .

الأول خاص بالآداب العالمية والثانى يشمل الأدب العربى العام والأدب الإقليمى الخاص بكل دولة .

والسؤال المطروح: هل نأخذ بوجهة نظر الجيل الجديد من الكتاب ونمنع تدريس أفضل ما كتبه الأدباء العرب والأجانب فى المدارس والجامعات . فإذا فعلنا ذلك فماذا يبقى أمامنا من برامج تعليمية يدرسها الطلاب . وماذا يطالعون فى هذه الحالة . وهل يستطيع قاض فى العالم أن يمنع هيئة تعليمية من أن تعلم الأبناء الأدب والشعر .

ومن المؤكد أن الأدب القديم أصبح ملكاً للكافة طبقاً لقانون حقوق التأليف ومعاهدة برن الشهيرة، ولذلك فإن السلطات التعليمية حرة فى إلزام الطلاب بدراسة هذا الأدب القديم .

ولكن القضية وإن كان لها جانب قانونى هام إلا أن الجانب التعليمى هو الأهم .

والسؤال المطروح هو: هل يكره الطلاب الأدب الذى يرغمون على دراسته ؟

والجواب أحياناً بالإيجاب إذا كانت المادة فوق مستوى عقولهم وإدراكهم .

ولكن كيف يتعلمون إذن . . إن العلوم والرياضيات والتاريخ مواد صعبة فى البداية حتى يفهموها ولذلك لابد من جهد لفهم الأدب والشعر .

ومن ناحية أخرى فإذا كان بعض الكتاب المعاصرين لا يريدون أن تكون كتاباتهم ضمن المواد الدراسية المقررة فإن كثيرين يريدون ذلك . ولا يمكن أن تطالب أديباً بأن يكتب فى مقدمة كتبه « ممنوع وضع أى جزء من هذا الكتاب ضمن المقررات التعليمية » .

ولو فعل ذلك مؤلف فسيصبح نكتة ولن يأخذ أحد ما قاله على محمل الجد !

والحل البديل أن نطلب إلى الأبناء فى المدارس أن يقرأوا كتب ـ نثر وشعر ـ الأولين والمعاصرين ، باللغة العربية ، واللغات الأجنبية . ولكن بشرط واحد وهو ألا يطلب من الجيل الجديد حفظ هذه النماذج عن ظهر قلب !

* * *

وبعد . .

فهذه إحدى القضايا الأدبية المعاصرة . .

والقضايا الأدبية المعاصرة كثيرة . . تعالوا نقلب بعض صفحاتها !

كتاب فى ثلاثة أيام

بعث ناشر صينى بالرسالة التالية إلى مؤلف شاب ظلب نشر كتابه الأول .

قال :

« أخى .

اسمح لخادمك أن يضع نفسه تحت أقدامك .

وأتوسل إليك أن تأذن له بالحديث إليك حتى يستطيع أن يتنفس ويحيا .

إن مسـودة الكتـاب التى تفضلت بإرسالها إلى أضاءت حياتى . وقد تابعت كل صفحة منها بشغف .

إن يدى ترتعشان ويملؤنى الخوف وأنا أعيد إليك كتابك . ولكن لى عذراً فى ذلك .

لو نشرت الكنز الذى بعثت به إلى فإن الإمبراطور سيأمرنى بأن يكون هذا وحده هو مستوى الكتب التى أنشرها . ولن يسمح لى بطبع كتاب لا يعادل مخطوطك .

ولأنى أعرف سوق الأدب فى بلادى فإنه سيستحيل على أن أجد كتاباً مثل كتابك ولو انتظرت عشرة آلاف عام .

إنى آسف عشرة آلاف مرة وأنا أعيد إليك كتابك مرة أخرى . . دون نشره .

ضع رأسى تحت قدميك .

وافعل ما بدا لك فإنى سأظل خادمك المطيع »

وهذه الرسالة وجدت بين آثار الصين فى عهدها القديم . ولا يوجد ناشر فى الصين الحديثة ، أو فى أى من بلاد العالم يكتب مثل هذه الكلمات لمؤلف شاب أو لمؤلف عجوز ، أو لكاتب شهير .

ولو توفر الوقت لدى الناشر لرسالة مشابهة فإن المؤلف سيجد أن كل كلمة فيها تنضح سخرية من الكاتب والكتاب !

وكتب مؤلف فرنسى ، عانى من الناشرين ـ فى بدء حياته ، الأسباب التى يجب أن يكتبها الناشر للمؤلفين الشبان .

وقال المؤلف أن الناشر ـ أى ناشر ـ لا يمكن أن يذكر المبرر الحقيقى الذى يدعوه لرفض أى كتاب . وهو أحد هذه الأسباب:

- الكتاب مخيف أو سخيف ، وهو إساءة للحضارة الإنسانية ويجب حرقه .
- معذرة . كل مافيه معاد ومكرر .
- هنا ذكاء لا أفهمه ولذلك أدافع عن نفسى وأرده .
- عندما أعلن عن استعدادنا لقبول الكتاب الأول لأى مؤلف كنا نخالف الحقيقة .
- حياتى تجارب مرهقة . ولا أستطيع تجربة قراءة هذا الكتاب أو إعطائه العناية التى يستحقها .

أما السبب الأخير الواقعى فهو :

ـ لن نجد العدد الكافى من القراء . . لهذا الكتاب . . أى لن نجد مشترين .

ويضرب المؤلفون مثلاً على أن المال غاية الناشرين وحدها قائلين : إن أكبر ناشر غير حكومى فى العالم هو رينشارد موهين الذى جمع ثروة من مبادلة كل كتاب جديد بضعف حجمه من الكتب القديمة لأن هدفه كان الحصول على ورق يبيعه للتجار الذين يلفون به بضائعهم فى وقت زاد فيه ثمن الورق .

ومن هنا فإن المؤلفين كباراً وصغاراً يلقون عنتاً من الناشرين . . والأسئلة لا تنتهى .

جيمس جويس ، الروائى الأيرلندى ، رفض كتابه الأول ٢٢ مرة .

وكتاب « الأرض الطيبة » لمؤلفته بيرل باك رفض ١٢ مرة .

وفرانك أوكونور كاتب القصة القصيرة قبلت إحدى المجلات قصته الأولى ، فلما تغير رئيس التحرير فجأة ، رفض رئيس التحرير الجديد أن ينشر القصة .

ورفضت رواية « الحرب والسلام » لتولستوى ، و« ذهب مع الريح » لمارجريت ميتشيل فى البداية.

وزين جراى طبيب الأسنان الأمريكى رفضوا رواياته عن رعاة البقر التى نجحت بعد ذلك كتباً وأفلاماً .

وأبى ٦٢ ناشراً طبع روايات أخرى عن رعاة البقر ألفها لويس لامور فلما نجح نشروا له ٨٠ كتاباً وزعت ١٠٠ مليون نسخة أنتجت فى ٣٢ فيلماً سينمائياً .

وظلت روايات إدجار رايس باروز ترفض الواحدة بعد الأخرى حتى اقتنع ناشر بأن فكرة « طرزان » يمكن أن تباع للقراء وأصبحت أفلاماً !

وسرقت ، أو اقتبست الفكرة بعد التطور العلمى لتصبح « رجلاً بستة ملايين دولار » ، « وامرأة بستة ملايين دولار » .

ولا تختلف هذه الحلقات عن فكرة طرزان إلا أن طرزان يعيش حياة بدائية ويعتمد على قوته العضلية التى نشأت عن الرياضة والطعام الصحى ، أما البطلان الجديدان فإن العلم الحديث أضاف إلى عضلاتهم قوة إليكترونية خارقة !

ولم يحصل مؤلف طرزان على ثمن لفكرته الأصلية بعد تعديلها . . إليكترونياً .

وجيمس ثيربر الكاتب الأمريكى الذى أصبح فى آخر حياته كفيفاً رفضت مجلة « نيويوركر » أن تنشر قصته الأولى رغم أنه أعادها للمجلة عشرين مرة فرفضت فى جميع المرات .

وكانت فكرة القصة تدور حول رجل يدخل من باب دائرى فيظل يدور فيه إلى مالا نهاية ويصف ما يرى ويغوص فى أعماق أفكاره التى تدور حول موضوع واحد .

لقد أصبح البطل سجيناً لهذا الباب تماماً كما وصف أوسكار وايلد فى كتابه « من الأعماق » حاله فى السجن .

قال :

ـ الزمن يدور ولا يتقدم . والدوران حول مركز واحد هو الألم .

والغريب فى الأمر أن مجلة « نيويوركر » احتكرت بعد ذلك نشر كل قصص وروايات ثيربر ولم ينشر إنتاجه فى أية صحيفة أو مجلة أخرى .

ورواية « ناس عاديون » للكاتبة الأمريكية جوديت جيست رفضت بطريقة عنيفة من أحد الناشرين فتلقفها ناشر آخر .

وحصلت الكاتبة من الطبعة الشعبية على ١,٥ مليون دولار كعربون . وأنتجت الرواية فيلماً .

ومثال آخر :

درس « جويس كارى » البريطانى الرسم فى أدنبرة وباريس وحصل على درجة جامعية من جامعة أكسفورد . واشترك مع الصليب الأحمر فى حرب البلقان .

وأرسل للعمل فى مناطق نائية فى إفريقيا وآسيا .

وكتب عن هذا كله . ولكن الناشرين رفضوه ولم يقبلوا كتاباً له إلا بعد أن أصيب بالشلل وروى آلامه فكأنه ألف كتابه الأول بدمه . . وحياته .

وعندما قبلت القصة العلمية لأول مرة من « راى براد بورى » بعد رفض طويل منحوه اشتراكاً مجانياً لمدة عام فى المجلة التى زاد توزيعها نتيجة رواياته .

ولم تكن هذه القصة العلمية الأولى التى تسعد الناشرين ، فإن أول من كتب الرواية العلمية فى العصر الحديث ، جول فيرن مؤلف « حول العالم فى ٨٠ يوماً » لقى نفس العذاب .

اعتمدت رواية فيرن على رهان للطواف حول العالم ٨٠ يوماً فخسر الرهان حتى تذكر فروق التوقيت ليجد أنه وصل فى الوقت المناسب قبل انتهاء الموعد المحدد .

ولكن رواية جول فيرون الأولى التى كتبها قبل ذلك رفضت حتى غير عنوانها وأصبح « خمسة أسابيع فى بالون » .

ولا يقتصر رفض الناشرين للروايات الأدبية بل إن ذلك يشمل كل الكتب بغير استثناء . إن كتاب « تاريخ الرياضيات الحديثة » لمؤلفه « جيمس نيومان » رفض فى البداية .

* * *

والناشرون كما يقول المؤلفون ، أو يدعون ، يبتكرون الأسباب التى تدعوهم لمنع نشر أى كتاب .

أول من نشر المجموعة الكاملة لكتب فولتير ـ أديب فرنسى كبير ـ خسر فى بورصة الأوراق المالية مليوناً من الفرنكات ومات بأزمة قلبية .

وخلال السبعين عاماً التالية أفلس ثمانية من ناشرى كتب فولتير .

وقتل أحدهم على يد سيدة قبض عليها وهى تسرق كتاباً من مطبعته ، كما أن اثنين من هؤلاء المفلسين اضطروا للعمل عمالاً فى مطابعهم بعد أن اشتراها آخرون .

وقال الجميع أن فولتير يصيب « بالنحس » أى ناشر .

و« النحس » سبب هام يشيعه الناشرون لمنع تشجيع بعض المؤلفين . . كما حدث أيضاً مع روبرت جريفز ، فقد مات الناشر الأول لروايته « الآلهة البيضاء » بأزمة قلبية بعد شهر من قراءته للرواية . وانتحر الناشر الثانى بحبل ربطه بشجرة . وتدخل شاعر آخر ت . س . اليوت فقرر نشر الرواية مهما كانت التكاليف .

وكانت التكاليف جائزة نوبل !

ورفض أكبر الناشرين الفرنسيين « جاليمار » إحدى روايات « جان بول سارتر » بعد الحرب العالمية الثانية . وقد اعتبر سارتر هذه أكبر لطمة لكبريائه الأدبية فظل ٥ سنوات كاملة يكتب تلك الرواية ويعيدها .

ولكن « جاليمار » قال إنها لن تنجح .

والغريب فى الأمر أن سارتر نجح ولكن روايته التى نشرها « جاليمار » بعد ذلك لم تنجح !

* * *

إن الناشرين يرفضون ، من البداية ، نشر الكتاب الأول للمؤلفين الشبان .

رفض النـاشرون ثلاث روايات للكـاتبـة المعـاصرة مارى ويبرلى . . ولكن هذه الزوجة ، التى ترعى زوجها ، وطفلين ، بلا خادمة وبلا عمل آخر ، أصرت على أن توالى كتابة ألفى كلمة كل يوم دون أن تجد ناشرا أو تطمئن إلى أن ناشراً سيوافق ، يوماً ما ، على نشر رواياتها !

وكان من الطبيعى أن تنجح أمام هذا الإصرار والعناد والعزم .

ومنذ عام ٧٢ ، أى منذ نشرت روايتها الأولى ، أصدرت ٤٤ رواية تربح فى كل منها نحو ٢٠ ألفاً من الجنيهات ـ وتترجم فى نفس الوقت إلى نحو ١٢ لغة .

وهى تكتب الرواية فى ٢٨ يوماً بـلا توقف أى بمعدل ٥٦ ألف كلمة فى كل رواية . وتقوم بعد ذلك بعملية المراجعة التى لا تستغرق وقتاً طويلاً !

وقد اعتادت أن تؤلف فى السنة أربع روايات ، أغلبها عاطفى ، لأنها تعتقد أن ثلاثين فى المائة من القارئات يفضلن الروايات العاطفية الخيالية!

وثلث قارئـاتهـا من الـطبيبات والمحاميات اللائى يسعين إلى الهروب من عملهن الذى يحتاج إلى جهد عقلى . ولا يجدن سبيلاً إلى الاسترخاء إلا فى الروايات العاطفية . وليس صحيحاً أبداً أن قراء الروايات الخيالة من أنصاف الأميين والجهلة ، فإن هؤلاء قد لا يقرأون شيئاً على الإطلاق !

ولم تفكر مارى ويبرلى فى كتابة تجربتها كزوجة وأم بل تسمع باهتمام كل ما يقوله زوجها وصديقاتها والجيران وأصدقاء الأسرة وتترجم هذا كله إلى وقائع مثيرة جذابة .

ولكنها تلقت رسالة جعلتها تفكر طويلاً .

الرسالة من زوجة شابة تقول :

« تزوجت منذ ثلاث سنوات من شاب أحبه . وقد أحسست أخيراً بالملل، فالزواج ليس شحنة عاطفية دائمة ومستمرة كما كنت أظن .

إن زوجى الذى كان يهمس فى أذنى بكلمات حب ، أصبح مثل كثير من الأزواج ، يعود إلى البيت فيأكل ثم يجلس أمام التليفزيون حتى يستغرق فى النوم . وغالباً أوقظه ليتوجه إلى السرير !

أعلم أنه يحبنى ولكن ماذا أفعل « أقرأ رواياتك لتسلينى ولكنى أعرف أنى أستطيع الكتابة أيضاً فهل عندك نصيحة لى » .

فكـرت مارى طويلاً فى هذه الـرسـالـة . ووجـدت أن نسبة كبيرة من قارئاتها ، المتزوجات حديثاً ، يعانين الفراغ بعد سنوات قليلة من الزواج .

إنهن لسن زوجات فاشلات تعسات ولكن الأيام تبدو أمامهن طويلة بلا عمل . هن فى حاجة إلى قراءة الروايات لقتل الوقت ولكن يمكن أن يصبحن كاتبات أيضاً .

ورأت مارى ويبرلى أن الـرسـالة تستحق الرد . وكان الرد فى كتاب عنوانه « إلى الكتاب مع حبى ».

فى هذا الكتاب قدمت الكاتبة خلاصة تجاربها ونصائحها لكل رجل ، ولكل امرأة ، تريد أن تكتب روايات عاطفية .

قالت :

« لا تكتب ، ولا تكتبى ، مقدمة طويلة فى فصل أو فصلين تصفين فيها زرقة الماء ، أو امتداد البحر إلى مالا نهاية وانسياب الزورق . وارتفاع القمر فى صدر السماء .

لا تتكلم فى الفصل الأول عن هدوء الرياح أو عصفها ، والحديقة الغناء ، والزهور الفيحاء .

لاَ تحاول تقديم البيت الذى جرت فيه الأحداث وأين موقع الحجرة وعلى أى شىء تطل .

لا تسهب عن مكان وزمان اللقاء ، بل من الفصلِ الأول ، قدم ، البطل ، وبالذات الرجل ، إذا كنت كاتبة ، أو البطلة إذا كنت رجلاً .

ليكن للبطل اسم قوى يشع بالرجولة ، وللمرأة اسم ينطق بالأنوثة .

إبنك وأنت تكتب ، أو اضحك وأنت تكتب . ولكن لا تتوقف أبداً مهما رأيت الكتاب غير مسل أو بلا جاذبية . الأمر المهم أن تستمر حتى تصل إلى كلمة النهاية .

وقد تكون كلماتك محدودة ، أى رصيدك من الألفاظ محدوداً فأنت لم تدرس اللغة ولا تعرف مترادفات . وأنا مثلك . ولذلك أضع بجوارى القاموس ـ مختار الصحاح وغيره عندنا فى اللغة العربية ـ وعندما أجد أنى أكرر كلماتى أختار كلمة من القاموس الذى يوجد فيه ٦١ مترادفاً لكل كلمة !

ولكنى لا أتوقف لإتمام عملية الاختبار بل أترك فراغاً حتى لا أقطع تسلسل أفكارى ثم أعود إلى الكلمة أنتقيها لتناسب الجملة ثم أضعها فى مكانها .

وانتقاء البطل ، اسمه ، وشخصيته ، وعمله ، ودوره هو العامل الحاسم فى نجاح الرواية .

وتقول مارلى ويبرلى : إن كل كاتب لم ينشر كتاباً يجب أن يتوقع رفض كتبه .

وإذا لم يتوقع ذلك فإنه سيصاب بخيبة أمل بالغة وسيتحطم مع أول رفض ، أو أول صدمة . إذا استسلم انتهى ككاتب . إذا لم يستسلم فإن أمامه طريقين :

الأول أن يرسل الرواية إلى ناشر آخر فقد تلقى قبولاً .

الثانى أن يضع هذه الرواية فى مكان بعيد لا يراه ويبدأ رواية أخرى ثانية وثالثة كما فعلت .

وإذا نجح يجب عليه العودة إلى الرواية الأولى بعيون جديدة وفكر جديد ، وسيكتشف ما فيها من أخطاء وعيوب . وسيلمس عنصر عدم التشويق ونقص الإثارة . وفى هذه الحالة يعيد كتابة الرواية لتصبح أجمل وأروع وربما تلقى قبولاً .

ولا تقل لنفسك أبداً :

ـ ليس عندى وقت . أمامى عملى فى المكتب أو المصنع أو البيت .

كل إنسان عنده ساعات فراغ طويلة . أو يمكن أن يفسح للكتابة ساعات من الليل أو النهار يقتطعها من طعامه ، ومن مشاهدة التليفزيون أو الأحاديث التافهة ليكتب .

وكل تجربة ، بشىء من الخيال ، يمكن أن تصبح رواية .

والكتاب حافل بالنصائح أحدثها قصة الكاتبة نفسها التى لم تيأس ، والتى تكتب كل يوم ألفى كلمة مهما كانت لديها من مشاكل نفسية أو أزمات مع الزوج والطفلين والناشرين .

* * *

وقد احتاج أرنست همنجواى إلى من يقدمه إلى ناشر فرنسى ليوافق على طبع كتابه الأول واسمه « فى عصرنا » .

ولكن همنجواى كان ناكراً للجميل . أو أصيب بعقدة نفسية لأنه اعتمد على كاتب آخر فهاجمه وانتقده .

ولم يكن همنجواى أول من انتقد الناشر الذى ساعده ودفعه إلى أبواب الشهرة فإن عدداً من المؤلفين فعلوا ذلك .

مارك توين الكاتب الساخر قال :

« خذ إنساناً غبياً من مستشفى للأمراض العقلية واجعله يتزوج من فتاة غبية . وانتظر الجيل الرابع من هذا الزواج الغريب لأنه سيكون ناشراً أمريكياً ناجحاً » !

وقتل مؤلف أمريكى فى آواخر القرن الثامن عشر ناشراً أمريكياً .

وبينما كان يصعد درجات المشنقة التفت إلى مجموعة من الناشرين أسعدهم منظر مؤلف يشنق وقال لهم مهدداً متوعداً :

ـ سألقاكم !

وأمر نابليون أثناء احتلاله ألمانيا بشنق الناشر « جوهان بالم » لأنه طبع كتباً ضد الاحتلال الفرنسى وضد نابليون مما أسعد المؤلفين من عدة دول .

قال أحدهم وهو الشاعر الإنجليزى توماس كامبل :

ـ نحن الإنجليز نكره نابليون لأنه يهاجمنا ويحاربنا ويريد أن تصبح فرنسا دولة كبرى بدلاً من بريطانيا العظمى، ولكن، أيها السادة، لا تنسوا أن نابليون العظيم شنق ناشراً!

* * *

وكاد أحد الناشرين البريطانيين يقتل شهرة كارل ماركس.

بعث إليه يقول:

ـ سيدى الدكتور:

لقد وعدت بموافاتنا بكتاب «رأس المال» ولكنك تخلفت عن الموعد المحدد ١٨ شهراً فإذا لم تسلمنا الكتاب خلال ستة شهور سنعهد بهذه المهمة إلى كاتب آخر.

ولكن الناشر صبر وانتظر أكثر من ستة شهور.

وقال كثيرون بعد ذلك:

ـ ليت الناشر لم يصبر وينتظر!

* * *

إن صغار الناشرين من أصحاب المطابع هم الذين قدموا للشهرة مئات من كتاب العرب الكبار مثل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم.

وقد أصبح النشر الآن صناعة ضخمة تحتاج إلى ملايين الجنيهات وخبرات فى فن التسويق.

وسيظل الصراع بين المؤلف والناشر إلى الأبد. فكل كاتب يرى فى الناشر «عنق الزجاجة» الذى لا يسمح له بالخروج إلى العالم لأنه ـ أى الناشر ـ يحب المال ويسعى إليه.

أما الناشر فيرى أنه لايستطيع أن ينشر كل ما يصله وإلا أفلس. ومن مصلحة الكتاب والروائيين والشعراء أن يستمر فى عمله لينتشر إنتاجهم أدباً وشعرا.

والناشر يرى أنه يتم عمل الكاتب ولا ينافسه أبداً.

والمشكلة أن الناشرين لايهتمون إلا بكتابة المشاهير.. ينشرونها ويعيدون طبعها.

أما المؤلفون الشبان فإنهم فى حاجة إلى فرصة.. أو فرص.

* * *

بعض الكتاب الشبان يظن أنه لا يمكن أن يتعلم لغة أجنبية فى وقت قصير ليطلع على الآداب العالمية بلغتها الأصلية أو لأن بعض الكتب لم تترجم إلى لغة بلاده .

وبعض الكتاب الشبان يظن أنه لا يمكن أن يتعلم لغة أجنبية ليكتب بها .

الكاتب السوفييتى فلاديمير نابوكوف ولد فى روسيا من أسرة أرستقراطية هاجرت منها بعد الثورة البلشفية بعامين ، وكان فى العشرين من عمره .

درس فى جامعة كمبردج البريطانية ثم عاش فى باريس يؤلف بالروسية .

وهاجر إلى الولايات المتحدة ليقوم بتدريس الأدب فى الجامعات الأمريكية .

وهنا حدث التحول الكبير فى حياته .

إننا عرفنا علم وفن زراعة الأعضاء فى أجساد المرضى ، كزراعة القلب والشرايين والكلى . . . إلخ .

ونابوكوف بدأ فى تلك الفترة ، أى أثناء عمله مدرسا فى أمريكا ، فى زراعة اللغة الإنجليزية فى عقله وقلمه . وهى عملية مؤلمة معذبة مر بها قبله كاتبان شهيران هما صمويل بيكيت الذى تحول من اللغة الفرنسية إلى الكتابة باللغة الإنجليزية ، وجوزيف كونراد الذى تحول من اللغة الألمانية إلى اللغة الإنجليزية !

واختار نابوكوف ثقافة أخرى ، ولغة أخرى كوسيلة اتصال ، واستبدل الإنجليزية بلغته الأصلية الروسية .

وعندما اشتهر ككاتب باللغة الإنجليزية ترجمت أعماله الروسية إلى تلك اللغات !

* * *

وبعض الكتاب الشبان يظن أن تأليف أى كتاب بلغتهم يحتاج إلى سنين . وهم - فى ذلك - يتخيلون ما يفعله كبار الكتاب فى أزمنة قديمة .

كان الكاتب لا ينتقل من مدينته أو قريته ولا يطالع عدداً محدوداً من الكتب ، الآن أصبح العالم ، كما يقولون : قرية واحدة لسهولة الاتصال والانتقال . . الأفكار تجىء من كل مكان ، فإذا تفاعل معها الكاتب استطاع أن يؤلف كتابه الأول فى أيام قليلة .

* * *

فى معرض فانكوفر فى كندا ، يوجد ممر أو قسم ، يجلس فيه الكتاب . وهذا الممر يقدمه المعرض لكل الكتاب الناشئين فى أى بلد فى العالم .

ويهدى المعرض للكتاب الأوراق ، والأقلام ، والآلات الكاتبة ، مجاناً تشجيعاً لهم حتى يؤلفوا روايتهم الأولى !

ولا يجلس الكتاب وراء حواجز زجاجية تفصلهم عن المشاهدين والزوار .

ولا يدفع الزائر ثمناً لرؤية الكتاب وهم يعتصرون عقولهم من أجل فكرة ، جملة ، أو لفظ واحد .

ولا يمنع المشاهدون أيضاً من الوقوف أمام الكتاب والحديث إليهم وقطع حبال الأفكار ، كما يقولون ، ومنعهم من الاستمرار .

يجلس الكتاب فى منطقة صغيرة محدودة داخل المعرض وعليهم حماية أنفسهم من المتطفلين ، وقد وضعوا لافتة ضخمة تقول :

ـ لا تزعجوا المؤلفين .

وإذا كانت هذه اللافتة تستهدف الدفاع عن الكتاب جميعاً ، فإن كل كاتب له طريقته الخاصة فى توفير الأمان لنفسه من المقاطعة والتدخل والفضول . .

أحدهم ترك أمامه لوحة صغيرة تقول :

ـ مازلت عاقلاً !

وآخر وضع فى أذنيه « سدادات » تمنع وصول أصوات رواد المعرض وأدواته وألعابه ومعروضاته .

وثالث يجىء إليه كل فترة مدلك يحاول « ترويض » كتفيه وذراعيه ويديه ليستأنف الكتابة على الآلة الكاتبة .

ورابع يصرخ فى الناس بين الحين والحين :

ـ لا شأن لكم بى . دعونى أكتب .

وخامس يدور سارحا حول نفسه ، أو حول الآلة الكاتبة ، ثم يهتف مقلداً أرشميدس العالم اليونانى قائلاً :

ـ وجدتها . . وجدتها .

يقصد بذلك فكرة الرواية !

والمعرض الدولى وجد أن هؤلاء الكتاب يمكن اعتبارهم نوعاً من الترفيه عن الزوار فى الوقت الذى يقدم إليهم العون .

ومن ناحية أخرى فإن الكاتب لا يمضى فى المعرض فترة طويلة بل إن المسافة الزمنية المحددة لكل منهم لا تتجاوز ثلاثة أيام ، أى ٧٢ ساعة ، على الكاتب أن يؤلف خلالها روايته وإلا خرج من المسابقة مهزوماً من حيث الشكل لأنه خالف الشرط الأول وهو أن يتم تأليف الرواية فى ثلاثة أيام قد تنقص ولكن من المستحيل أن تزيد !

وقد تصادف بدء الاشتراك فى المسابقة مع فتح أبواب المعرض . ومن هنا رؤى السماح للكتاب باستخدام التسهيلات المجانية التى يقدمها المعرض لكل كاتب خلال أيام ثلاثة .

* * *

ـ وفكرة المسابقة نشأت أثناء حديث عابر ، على فنجان قهوة بين ناشر صغير وبائع للكتب القديمة .

كانا يجلسان معاً يتكلمان عن سوق الأدب وما فيه فقال أحدهما للآخر وهو يشير إلى نسخ كثيرة من « مدام بوفارى » :

ـ هل يعرف القراء أن الكاتب الفرنسى فولتير أمضى خمس سنوات فى تأليف هذه الرواية !

قال صاحبه .

ـ ولكن فولتير ألف أيضاً رواية « كانديد » فى ثلاثة أيام عندما كان فى الخامسة والستين من عمره .

أخذ الناشر يردد بلا وعى « ثلاثة أيام » . . . « ثلاثة أيام » . . هذا صعب ولكنه ليس مستحيلاً . . ترى هل يستطيع أحدنا أن يكون فولتير الثانى ونؤلف رواية فى هذه الفترة القصيرة ؟

ويتفق الرجلان على محاولة التجربة ، وينقطعان لهذه التجربة المهمة .

وعندما التقيا بعد انتهاء المدة المحددة اعترفا بالفشل . ولكن الناشر الصغير رأى أن يستمر فى البحث عن فولتير الثانى فأعلن عن مسابقة تأليف رواية خلال ثلاثة أيام . وأكد أنه سينشرها مهما كان عمل المؤلف : « نجار ، حداد ، موظف ، ساع ، كاتب ، صحفى ، محام ، أو صاحب أى مهنة أو حرفة أخرى » .

وقال أن الشرط الوحيد يتركز فى كتابة الرواية خلال تلك الأيام المحددة ، أما التحكيم فتركه للجنة من الأدباء والفنانين وممثل للناشر نفسه .

وقال إن الكاتب سيحصل على الأجر أو العمولة أو الحصة أو النسبة المقررة للكتاب الكبار .

وبقيت المشكلة الأساسية ، وهى ضمان أن يكون الكتاب قد ألف خلال ثلاثة أيام فقط .

أعلن الناشر أن المؤلف ينبغى أن يبدأ عند منتصف الليل مساء الجمعة وينتهى من التأليف بعد منتصف الليل مساء الاثنين حتى لا يتعطل إلا يوماً واحداً عن عمله الأساسى الذى يتكسب منه .

ولكن ما الذى يمكن أن يقدمه الكاتب دليلاً على ذلك ؟

قال الناشر :

- يقسم الكاتب على أنه صادق فيما يقول ، أى فى مدة التأليف ، ويوقع بإمضائه على ورقة يذكر فيها هذا القسم .

وقد يكذب الكاتب ، ولكن الناشر لا يستطيع الحصول على دليل آخر . ولا يمكنه أن يسجن المؤلفين فى مكان واحد لأنه لا يستطيع أن يتحمل نفقات سفرهم وإقامتهم فى كندا . ولا يمكنه إرغام الكتاب الناشئين على السفر إليه ، فإمكانياتهم المالية لا تسمح لهم بذلك . وحدد الناشر أسماء المكتبات فى أوربا وأمريكا الشمالية والجنوبية التى يتقدم إليها الكتاب بمؤلفاتهم .

حدث أن تقدم متسابق برواية طويلة فى خمسمائة صفحة فقالت لجنة التحكيم فى المسابقة أنه من الصعب جداً أن يؤلف كاتب هذه الصفحات الطويلة فى ثلاثة أيام .

ولكن بعد قراءة الرواية أجمع المحكمون على أن الكاتب يمكن أن يكون صادقاً لأن الرواية تافهة يستطيع أى كاتب على الآلة الكاتبة أن يؤلفها فى أيام أقل !

* * *

بدأت المسابقة منذ تسع سنوات ، ونشرت فى كندا عدة روايات لمؤلفين يظنون أن فى استطاعة أحدهم أن يكون « فولتير الجديد » .

ونجح البعض وفشل آخرون ، ولكن ظروف الاشتراك فى المسابقة وفرت لها وللكتاب دعاية ضخمة مثيرة .

قالت زوجة إنها كانت تكتب أربع ساعات ثم تصرخ فى زوجها ساعة كاملة أو أكثر لأنه لا يساعدها كما ينبغى أن يعاون الزوج امرأته العبقرية !

وقالت زوجة أخرى أنها سجلت على شريط كلمات ترد بها على صديقاتها اللاتى يرغبن فى الحَديث معها .

ـ معذرة ، الإلهام لا يجىء والنوم مفيد يجدد خلايا العقل .

وقال كاتب شاب : إنه أبعد زميله الذى يقيم معه حتى يتفرغ للتأليف دون مقاطعة من أحد .

وقال آخر : أنه لجأ إلى فندق رخيص ليؤلف الرواية ، بعيداً عن الأسرة والأصدقاء .

ولكن شابا قال : أنه جلس فى حديقة صغيرة ، بين النبات والقاذورات ، والغربان والحمام بينما الطفيليون حوله يضحكون عندما يرونه . . . مؤلفاً !

* * *

وجرت العادة أن تكون صفحات الرواية بين مائة وعشرين ومائة وخمسين صفحة .

ويحرص المؤلفون الشبان على أن يكون الموضوع غير مطروق ، لم يتناوله أحد ، أو يتفق مع الوقائع والأوضاع السياسية الجارية .

وقائع إحدى الروايات تبدأ بعد خمسة آلاف عام من حرب النجوم التى تدمر العالم .

ورواية أخرى عن اثنين من مندوبى التليفزيون يتورطون ـ رغماً عنهم ـ فى عملية تجسس مع المخابرات الأمريكية ومكتب المباحث الفيدرالى الأمريكى . وكتبت الرواية قبل سنوات من القبض على الصحفى الأمريكى فى موسكو وكأن المؤلف الشاب يتنبأ !

وفى كل عام يتقدم للمسابقة أكثر من ألف ناشىء بعضهم فى العشرين أو تجاوزها بقليل ، وبعضهم تجاوز السبعين . والجميع يجدون أن هذه فرصتهم لنشر مؤلفاتهم .

والغريب فى الأمر أن أغلب الكتاب يؤكدون أنهم كتبوا الروايات فى أيام ثلاثة لأن التحدى يدفعهم لذلك .

وقالوا أنهم فى تلك الأيام يكتبون أكثر مما كانو يفعلون فى سنة أو فى خمس سنوات .

وبعد نجاح تجربة معرض فانكوفر رأت شركة للورق اسمها « بالب بريس فى فانكوفر » أن تنظم مسابقة مماثلة اسمها « اكتب رواية فى ثلاثة أيام » بالاشتراك مع ٢٦ مدينة فى كندا مع ٤ مدن أمريكية هى سياتل ونيويورك وشيكاغو وبافاللو .

ويدعى المشتركون للإقامة ـ مقابل مبلغ زهيد ـ ثلاثة أيام ابتداء من منتصف الليل مساء الجمعة حتى منتصف الليل يوم الاثنين .

ومطلوب من الكتاب ـ وكلهم من الشباب وإن كان الباب مفتوحاً للجميع ـ أن يكتبوا رواية كاملة خلال ثلاثة أيام على الآلة الكاتبة . . وأغلب المشتركين يكتبون على هذه الآلة .

اشترك فى المسابقة ٥٠٠ من الكتاب وهو الرقم المعتاد للمتقدمين .

يومها فاز مدرس كندى اسمه جيف دوران ـ عمره ٣٨ سنة ـ بالجائزة الأولى عن روايته « ضيف هذا الصيف » .

قال لى أنه ظل عشرين عاماً يحاول أن يتعلم كيف يكتب الرواية .

وقال إن الرواية عاشت فى فكره وفى خياله هذه المدة الطويلة . ولم يكتب حرفاً منها قبل ذلك ولكنه استطاع أن يؤلف الرواية خلال الأيام الثلاثة بطعام قليل ، ونوم أقل ، وانتهى من روايته قبل الموعد المحدد بتسعين دقيقة .

والرواية من ١٢ فصلاً كتب كل فصل فى ساعتين . بدأها بالفصل الثانى ولما أتم الرواية كتب الفصل الأول !

ولم يكن لديه وقت يضيعه فى شطب كلمة أو إعادة كتابة جملة واحدة !

وكان يعرف من البداية أن عنوان المسابقة رواية فى ثلاثة أيام وليست رواية فى أربعة أو خمسة أيام .

وقرأت بعد ذلك أن عاملاً فى مصلحة البريد فى مدينة كالجارى الكندية فاز فى العام الماضى بنفس الجائزة عن روايته « شىء طبيعى جداً » والبطل فيها طفل فى الثانية عشرة من عمره .

ودانت الشهرة لجيف دوران بعد نجاح روايته الأولى، فإن كتابة رواية فى ٧٢ ساعة يعتبر أقوى وأفضل دعاية لشباب الكتاب !!

* * *

قابلت فى نيويورك الكاتب الأمريكى اسيموف الذى لم يصل إلى الرقم القياسى الذى حققه كريس ولكنه استطاع أن يؤلف ـ حتى الآن ـ ٣٠٠ كتاب .

اسيموف يبدأ الكتابة فى السابعة والنصف صباحاً . وتستطيع أن تضبط ساعتك على مواعيده فهو لا يغيرها إلا فى مناسبات قليلة محددة أو عندما يعطى نفسه إجازة .

وينهى عمله فى العاشرة مساء كل يوم .

وقد تعاقد مع ٢٤ ناشراً يصدرون كتبه .

ولا تظن أن كتبه روايات خيالية بل إنه يسمع أصولها وأسسها وجذورها من الناس ، والاذاعة والتليفزيون ثم يغير ويبدل الوقائع والأسماء . إن اسيموف يؤلف فى كل الموضوعات .

كتب روايات علمية ، وقصصاً بوليسية . وألف فى التاريخ والأدب ، وأصدر دليلاً عن مسرحيات شكسبير .

ومن أعماله أيضاً قصص الأطفال ودوائر المعارف وحكايات ونوادر وكتب مدرسية وعملية، ولكبار السن أيضاً .

ألف اسيموف المائة كتاب الأولى فى ٢٠ عاماً .

وألف المائة كتاب الثانية فى تسع سنوات ونصف السنة .

وألف المائة كتاب الثالثة فى ست سنوات .

قال لى :

ـ أصبحت الكتابة أكثر تسلية لى كلما تقدمت فى العمر . وكلما كتبت أكثر كانت الكتابة أسهل .

وقال :

ـ رغم أنى ألفت كتباً علمية فيها الكثير عن اكتشاف الطيران ومزاياه فإنى لاأحب الطيران بل أكرهه وأرفض أن أستقل طائرة فإنى أخاف السقوط من ارتفاع عال .

قلت له :

ـ ولكنك تقيم فى الدور رقم ٣٣ ؟

ـ اعتدت ذلك .

واسيموف فى الخامسة والستين من عمره ، زوجته سيدة عادية لا تمنعه من الكتابة ولا تحاول جذب انتباهه إلى مسئوليات اجتماعية ينفر منها .

ومعظم كتبه طلبها الناشرون . . أى رغبوا إليه فى أن يؤلف كتاباً بالذات فى موضوع معين فيقوم بجمع المواد اللازمةللكتاب العلمى أو الأدبى أو التاريخى ثم يبدأ بعد ذلك فى التأليف .

ومهمته صعبة للغاية مع تنوع الموضوعات التى يكتب فيها . ومع ذلك فإنه يصدر كتاباً كل شهر .

وأسلوبه فى الكتابة بسيط للغاية . لا يتعمد الأسلوب الأدبى ولا يختار الكلمات الرنانة الغريبة أو المدوية . ولا يقدم الألفاظ الجزلة التى قد لايفهمها القارىء .

انه يكتب بوضوح ولذلك يرضى عنه القارىء ويشتريه .

قلت له :

ـ فى سنك هذا هل تتوقع الاستمرار ؟

قال :

ـ لا تظن أن سؤالك استفزازى . . أبداً . فى أوقات فراغى القليلة أقول لنفسى :

ـ لقد نضبت أو فى طريقى للجدب ولابد أن الناشرين مجتمعون الآن ليقولوا لى . . يا أسيموف : لن تجد موضوعاً تكتب فيه . وإذا وجدت الموضوع فلن تقدم فيه جديداً : وقلت كل ما عندك فى ٣٠٠ كتاب .

قلت :

ـ وماذا كانت نتيجة الاجتماع ؟

قال :

ـ لا يستطيع ٢٤ ناشراً أن يتفرغوا ليقولوا قرارهم . لابد أن يجىء أحدهم ليضع الجرس فى رقبة القط . وحتى يتحقق ذلك سأظل أكتب .

* * *

إن كثيرين يعترضون على فكرة الكتابة السريعة قائلين :

- المواهب الأدبية فى حاجة إلى صقل ، والأفكار تحتاج إلى عقل هادىء أما المسابقات المجنونة فلا تفيد !

ـ وأنت لا تعرف قدراتك الحقيقية ، وأنك تستطيع تأليف رواية فى ثلاثة أيام إلا بعد أن تخط بقلمك ، أو بالآلة الكاتبة ، كلمة « النهاية » .

فى هذه الحالة فقط ستعرف أنك « فعلتها » . فابدأ كتابك الأول ولا تفكر فى كتابك الأخير !

مفتاح . . الرواية

« انظر حولك » .

هذا شعار حديث ارتفع فى مصر أخيراً للدعاية لتنظيم الأسرة . . الهدف منه أن ينظر كل فرد حوله فإذا رأى أفراد الأسرة زاد عددهم ، وقلت المساحة المخصصة لكل منهم فى البيت ، وانخفض مستوى المعيشة ، حرص الجميع على ضبط النسل .

وهو فى الوقت نفسه شعار أدبى يقول للكاتب الناشئ :

- إذا أردت اختيار موضوع لروايتك فلا تبحث بعيداً ، ولا تنقب بعمق ، يكفى أن تنظر حولك لتجد عشرات الموضوعات التى تصلح قصصاً وروايات لأن الحقيقة أعجب من كل خيال . . وكل روائى يستمد أفكاره من حقائق الحياة والناس حوله .

وفى مذكرات أحد مشاهير الصحفيين قال إنه لو ركب الأتوبيس من محطة البداية حتى النهاية يجد موضوعات صحفية كثيرة من الذين يستقلون الأتوبيس ، أو يغادرونه ، ومن الطرق والمحال التى تمر بها السيارة .

ورواية « الفندق الكبير » من هذا النوع . . إن كل من يبيت بالفندق ، أو يمر به زائراً يصلح بطلاً لرواية ونجماً لفيلم .

ومعظم الشخصيات التى ابتكرها الكتاب الكبار لها أصل ، أو ظل ، من الواقع .

* * *

رواية « أليس فى بلاد العجائب » التى ألفها لويس كارول ، وهو اسم مستعار ، كتبها مؤلفها لإسعاد ابنة صديق .

. . خرج الكاتب مع الطفلة أليس وشقيقاتها إلى البحيرة فى قارب يستمتعون بالتجديف .

سعدت الصغيرة بكل ما رأته ، وبدا من ملامحها ، وفى ضحكاتها ، ودهشتها ما جعل الكاتب يظن أن أليس أصبحت فى بلاد العجائب . ومن هنا جاءت الفكرة التى

ترمز لكل الناس عندما ينتقلون إلى مواقع جديدة ، وبلادغريبة ،وتحيط بهم مشاهد لم يروها من قبل .

فالكاتب دائماً مسافر يرى الواقع ولكن لمساته الفنية تأتى من خياله الدائم .

كتب لويس كارول روايته عام ١٨٦٥ . . ونشرها فى نفس العام فهو المؤلف والناشر معاً .

وبعد ١٧ سنة ظل قلقاً خائفاً من كساد روايته فكتب فى مذكراته قائمة بحساب الأرباح والخسائر .

قال إنه لو باع كل نسخ الطبعة الأولى ، وعددها ٢٠٠٠ نسخة ، سيخسر مائتى جنيه .

وإذا أصدر طبعة جديدة وباع ألفى نسخة أخرى يعوض الخسارة ويربح مائتى جنيه .

وقال إنه إذا باع أكثر . . ربح أكثر ولكن ليس لديه أمل فى ذلك .

وقبل وفاته بأيام ـ عام ١٨٩٨ ـ كانت المبيعات قد بلغت ١٨٠ ألف نسخة وترجمت الرواية إلى لغات عديدة بينها اللغة اللاتينية!

***

ورواية « الفرسان الثلاثة » التى ألفها كاتب فرنسا الشهير ألكسندر دوماس الأب أخذت عن قائد كتيبة اسمه الحقيقى دارتنيان مثل بطل الفرسان الثلاثة .

ولكن دارتنيان الحقيقى لم يكن يحمل لقب كونت . واشتهر لأنه قبض على وزير المالية الشهير نيقولا فوكيه عام ١٦٦١ وحمل لقب جنرال بعد ذلك بتسع سنوات .

ولكن القراء لم يحفلوا بالتاريخ الحقيقى وظلوا يعتقدون أن مغامرات دارتنيان ـ التى كتبها دوماس ـ حقيقية .

***

ومسرحية شكسبير « روميو وجولييت » تعبر عن بطلين حقيقيين عاشا فى فيرونا بإيطاليا .

وقد نشرت القصة من وجهات نظر مختلفة قبل شكسبير الذى أخذ الفكرة ، وصاغها بطريقته ، ليعبر عن الشباب اليائس عندما يحب .

ولم تشتهر سوى مسرحية شكسبير واختفت باقى الروايات والمسرحيات إلا من أذهان النقاد وأقلام المؤرخين!

ورواية غادة الكاميليا التى كتبها الروائى الفرنسى ألكسندر دوماس الابن عن الحسناء، التى تضع زهرة الكاميليا البيضاء طوال الشهر عدا الأيام الخمس الأخيرة فتتزين خلالها بزهرة الكاميليا البيضاء ليعرفها الناس بلونيها .

إن الرواية تعكس قصة سيدة حقيقية ماتت فى الثالثة والعشرين والمرض يلتهم رئتيها .

وشرلوك هولمز المخبر الذى قدمه الطبيب البريطانى أرثر كونان دويل له أساس من الواقع .

الاسم لأستاذ تشريح فى جامعة هارفارد اسمه الكامل أوليفر وندل هولمز، والأفكار لجراح اسمه الدكتور جوزيف بل كان أستاذاً لأرثر كونان دويل وهو يدرس الطب .

وهذا الجراح كان يستطيع أن يتعرف على حياة أى رجل غريب وعاداته عندما يدخل عيادته ويقوم بتشخيص مرضه .

من ملابسه وحديثه ودائه كان الجراح « بل » يقدم الرجل إلى «دويل» الذى اختار لنفسه شخصية واطسون مساعد شرلوك هولمز أو بعبارة أصح مساعد « بل » .

* * *

وقصة دانييل ريفو « روبنسون كروزو » هى فى أصلها قصة بحار رفض أن يستمر فى العمل على ظهر سفينة لسوء الأحوال فيها فطلب إنزاله إلى جزيرة نائية فى أمريكا الجنوبية . وعاش فيها وحده أربع سنوات حتى أنقذته سفينة أعادته إلى إنجلترا .

وكان دانييل ريفو صحفياً سمع بالقصة وربما التقى بالبحار وسمع منه وأضاف إليه ، على أنه قصة حقيقية .

ولم يعد البحار إلى الجزيرة أبداً ، بل أصابته الوحدة بنوع من الجنون فعاش فى كهف قرب بيته يعلم القطط الضالة رقصات غريبة!

ولكن ريفو أعاد روبنسون إلى الجزيرة فى روايتين ، فإن خياله أمده بمبررات العودة فى حين منع الجنون البحار الأصلى من الاقتراب من الجزيرة التى حطمت عزلتها ، فكره وأعصابه!

* * *

وقصة فأر والت ديزنى معروفة ومعادة .

بطل أفلام « الكارتون » ابتكره والت ديزنى فى رحلة بالقطار بين نيويورك وهوليود عام ١٩٢٨ .

والفأر الحقيقى وقع فى مصيدة المؤلف فى أحد الاستديوهات وأراد إطلاق اسم مورتيمر عليه ولكن زوجة ديزنى اختارت له اسم « ميكى ماوس »!

وفى كل دولة كان لهذا الفأر اسم يختلف فى اليابان عن فرنسا ، وفى أسبانيا يختلف اسمه عن إيطاليا . . . إلخ .

***

وقصة الكاتب البريطانى روبرت لويس ستيفنسون « دكتور جيكل ومستر هايد » التى نشرت عام ١٨٨٦ بطلها طبيب يكتشف عقاراً يعطيه ملامح وخصال الشياطين فيقتل ولا يبالى .

الفكرة أخذت عن رجل عاش فى أدنبرة يحترمه الناس نهاراً كرجل أعمال وقور . . ولكنه يقود عصابة من اللصوص ليلاً .

وانتهت القصة الحقيقية بإعدام انبطل قبل تسعين عاماً من كتاب ستيفنسون لروايته .

هذه القصة كتبها ستيفنسون فى ثلاث ليال بعد أن أغلق على نفسه باب مكتبه .

وإذا كان روبرت لويس ستيفنسون قد كتب روايته فى ثلاثة أيام فإن كاتباً اسمه لوب دى فيجا كان يكتب الرواية أو المسرحية فى ليلة واحدة .

وقد كتب ٢٢٠٠ مسرحية .

والسير والتر سكوت البريطانى كان يكتب رواية فى الأسبوع .

وكاتب الرواية البوليسية الأمريكى إيرل ستانلى جاردنر الذى مات منذ ١٧ سنة ألف ١٤٠ رواية . وكان يكتب ويملى على سكرتيرته ، وعلى آلة التسجيل ١٠ آلاف كلمة فى الساعة .

وكان يكتب ٧ رويات بوليسية فى وقت واحد معظمها بطل واحد وهو رجل الشرطة وفيها عشرات المجرمين ومئات الجرائم !

وشارلز هاملتون ألف ١٠٠ مليون كلمة فى روايات للأطفال .

وكاتبة فى جنوب إفريقيا اسمها كاتلين لندساى ألفت ٩٠٤ روايات .

وباربارا كارتلاند البريطانية نشرت ٣٤٤ رواية .

ومنذ ١٢ سنة ، ألفت السيدة أليس بولوك روايتها الأولى وعمرها ١٠٢ سنة !

* * *

وليس شرطاً أن يكون الكاتب جامعياً .

إن مكسيم جوركى الروسى ومارك توين الأمريكى وألبرتو مورافيا الإيطالى لم يتموا دراستهم الإعدادية .

وجاك لندن ، ووليم سارويان ، الأمريكيان لم يتما دراستهما الثانوية .

والكاتب الفرنسى إميل زولا نال صفراً فى الأدب الفرنسى أثناء تعليمه فى المدرسة .

ولذلك فإن الكاتب الناشىء لا يجب أن ينتظر إتمام تعليمه أو نيل الشهادة الجامعية وإن كان سباق هذه الأيام يحتم ذلك ، أو يجعل من الأفضل ذلك .

والكتابة موهبة وعبقرية أو شطارة ولكنها ـ أيضاً حظ !

إن توماس ويرجمان الكاتب اهتم بالمظهر وجعل كل صفحة من كتبه بلون مختلف ولم توزع كتبه سوى ٦ نسخ مع أنه أنفق على عمليات الطبع ٢٠٠ ألف دولار .

وأخذ الكاتب البوليسى إدجار ألان بو عشرة جنيهات فقط عن روايته الشهيرة « الحدأة » .

وفاز أرنست همنجواى بربع مليون دولار عن قصته القصيرة « ثلوج كلمنجارو » التى كتبها عام ١٩٣٦ .

وربح ١٥ ألف دولار عن مقال من ٢٠٠٠ كلمة يصف فيها مصارعة الثيران .

ومنح المخرج زانوك ١٥ ألف دولار للكاتب جيمس جونز لتغيير سطر فى حوار الفيلم « أطول يوم فى التاريخ » أى بمعدل ٢٥٠٠ دولار للكلمة الواحدة .

وتوفى الكاتب المسرحى الرومانى سنيكا مصاباً بمرض سوء التغذية لأنه خاف من التسمم فلم يأكل إلا التفاح البرى ولم يشرب إلا الماء وترك ثروة تقدر بـ ٣٠ مليون دولار !

* * *

واستطاع كاتب أن يضحك على القراء فى أمريكا عندما باع ما اعتبره أفضل الكتب بـ ٣ دولارات ، والكتاب يضم أوراقاً بيضاء فى آخر صفحة منه كلمات تقول «أنت تستطيع أن تملأ هذا الكتاب بكلمات أفضل » .

وبيعت أسطوانة فى أمريكا بلا غناء ، ولا شعر ، ولا حديث لأنها تعطى المستمع خمس دقائق من الصمت بلا صوت !

وترك طبيب هولندى أشهر وأفضل كتب الطب مختوماً بخاتمه فاشتراه مريض فى المزاد بعشرين ألف دولار فلما فتحه وجد فيه هذه الكلمات :

« احتفظ برأسك بارداً .

واحتفظ بقدميك دافئتين .

وستجعل أفضل الأطباء فقيراً لأنك ستعالج نفسك بنفسك »!

* * *

سئل ستة من كبار الكتاب :

ـ ما المشكلة التى واجهتكم وأنتم تكتبون لأول مرة ؟

لم تختلف الإجابات كثيراً وكلها دارت حول نقطة واحدة وهى :

ـ البداية دائماً صعبة .

قيل لهم :

ـ وكيف تغلبتم عليها ؟

قالوا :

ـ على الكاتب أن يكتشف نفسه ويحدد طريقه ويختار اللون الذى يتقنه .

قيل لهم مرة ثالثة :

ـ وكيف ؟

قالوا ؛

ـ كل إنسان يكتب عن بيئته ، يعجب بها ، يؤيدها ، يسخر منها ، وينتقدها ، يقدم الحكمة التى يلمسها أو الرعب الذى يخيفه منها . الكاتب يجب أن يبيع للناس ـ من خلال كتبه ـ تجاربه الشخصية .

فيل لهم :

ـ هذا بالسبة للإنسان الذى يريد كتابة تاريخ حياته ، أو قصته نفسها .

قالوا :

ـ كل الروائيين يصفون أنفسهم من خلال الأبطال . ويضعون أنفسهم مكان الشخصيات .

قيل لهم :

ـ إذن فالكاتب يكرر نفسه !

قالوا :

ـ أبـداً . الكـاتب يلتقى بألوف الناس فى حياته كل يوم ، ويقرأ عن كثيرين . ويتخيل نفسه مكانهم

وهو ـ الكاتب ـ كالطبيب النفسى يتوهم أنه يسأل البطل عشرات ومئات الأسئلة ، ومن خلال الإجابات التى يضعها يقدم أحاسيس البطل نحو الحدث ، فيغضب له أو يسعد به . ومن هنا تجىء الرواية .

ومنذ مائة سنة وجهوا السؤال نفسه للكاتب الروسى « تشيكوف » فقال لمن يريد أن يكتب :

ـ هذا عمل متصل لا ينقطع ولا يتوقف أبداً . يجب أن تكون قارئاً دائماً . واهتم بعنصر الـزمن . كل ساعـة تمر هى جزء من حياتك . لا تكن طفلاً إن الوقت أهم العوامل فى الحياة ، وهو أثمن مافى الحياة .

والكـاتب يجب أن ينسى الغـرور . إن كتاباً كثيرين أعادوا كتابة بعض الفصول عشرات المرات .

ولا تحاول أبداً انتزاع القارىء من تتابع الأحداث والقصة ليصفق لك . فإن بعض الكتاب يريدون إبهار القارىء فينسى الرواية ويذكر المؤلف .

قيل لتشيكوف :

ـ فى قصصك مصادفات كثيرة لا يمكن أن تتحقق فى الحياة .

قال :

ـ معنى ذلك أنى فشلت ككاتب . مهمتى أن أجعل القارىء يثق بأن هذه الصدف يمكن أن تحدث فى الحياة والواقع .

وقال :

ـ حاول أن تجعل الرواية تحتضن القارىء، تسليه ، تنسيه كل ما يحيط به ، وتأخذه بعيداً .

* * *

وفى عشرات المدارس التى تعلم الإنسان الكتابة بصفة عامة ، والقصة بصفة خاصة ، يقول الدرس الأول :

ـ المواقف الإنسانية محدودة : حب وكراهية وغيرة ، زواج وطلاق وخيانة وتتفرع عن هذه النقاط فروع محدودة أيضاً ولكن طريقة وأسلوب الكتابة هى التى تفرض كاتباً على الناس .

ومن هنا فإن على الكاتب اتباع غريزته فيخلق حالة ، ويلقى الضوء على نقطة بالذات . ولا توجد قاعدة تحدد كيف تكتب بل المطلوب قصة تحرك عواطف الناس وتثير فضولهم .

وكل إنسان يختلف عن الآخر فى اختيار الكلمات ، والنقط ، والفواصل ، وطول الجملة وقصر الفقرات ، وابتكار البداية والنهاية .

التعليم يقتصر على قواعد اللغة فحسب وهذا يتلقاه الإنسان فى المدارس ولكن الكاتب يصنع أسلوبه .

وفى مدارس تعليم الكتابة يحاولون مساعدة الشباب على اكتشاف طريقتهم .

أحياناً يقولون لهم :

ـ اكتبوا قصة ، أو رواية ولكن لا تستعملوا كلمات معينة أو لا تستعملوا صفات أى لاتقل فتاة جميلة أو شجرة طويلة ، أو شاب أنيق . قل فتاة وشجرة وشاب أما الصفة فممنوعة تماماً .

والهدف من ذلك زيادة محصول الكاتب من الكلمات فيقرأ أكثر ليصل إلى مايريد .

وأحياناً يقولون :

ـ اكتب قصة فى عشرة سطور تتضمن جريمة ومحاكمة وغيرة وإحساناً و . . . ويشترطون ألا تكتب القصة كخبر صحفى .

ويبررون ذلك بأن القصة القصيرة تستغرق وقتاً أطول لتكون قصيرة مما يحتاج إلى صبر وشجاعة وجهد فيتحدى الكاتب إمكانياته القليلة .

وهذه المدارس تستعين بالكتاب الكبار وتدفع لهم مكافآت ضخمة ليقدموا أنفسهم للشباب من خلال اعترافات صادقة يذكرون فيها من أين جاءتهم أفكار الروايات . ومن هو البطل الحقيقى لكل رواية ، والعقدة كما كانت فى الواقع وكيف حولها الكاتب فى روايته .

باختصار الكتاب الكبار يقدمون سر المهنة والحرفة والصنعة والفن ، حتى يستطيع الكاتب الشاب أن يقلدهم .

أحد الكتاب قال أنه عندما يعود إلى بيته يكتب مذكرات عن كل شخص قابله أفعاله ، مزاياه وعيوبه ، وكيف يمكن أن يتحول إلى شخصية روائية .

وكاتب آخر قال إنه يكتب عن أماكن وأشخاص وأصحاب حرف لا يعرف شيئاً عنها . وكلما ابتكر شخصية ومكاناً من هذا القبيل فإنه لا يتوقف عندها أو عنده ، بل يستمر فى الرواية وبعد ذلك يجمع المعلومات الحقيقية ليضيفها فهو ليس كاتباً تسجيلياً بل إنه روائى أولاً وأخيراً .

* * *

وقد حدث ذلك مع الكاتبة « كارلين كوين » .

لم تؤلف غير رواية واحدة اسمها « عبر مرآة سوداء » تقاضت عنها عربوناً قدره **٣٥٠** ألف دولار ، وهو أكبر « عربون » يدفع للرواية الأولى ، أى لأول رواية يؤلفها كاتب أو كاتبة !

وكان السبب فى ذلك أن الناشر بعد أن قرأ الرواية وأعجب بها رأى إجراء اختبار صغير للمؤلفة فعهد بالرواية إلى أكبر مؤرخ فى أوربا وهو فنلندى .

طلب إليه مراجعة الرواية لمعرفة ما بها من أخطاء تاريخية فقال العالم الفنلندى :

ـ هذه الكاتبة حرصت على أن تقدم كل التفاصيل بدقة لم أعرف لها مثيلاً من قبل .

وسئلت المؤلفة :

ـ كيف فعلتها . . كتابك قصة حب فى القرن الثامن عشر تدور أحداثها بين إنجلترا وفرنسا ، ومع ذلك لم ترتكبى خطأً واحداً فى أى شىء . . كيف ؟

قالت وهى تبتسم :

ـ ظللت خمس سنوات أؤلف هذه الرواية .

قيل لها :

ـ وماذا فى ذلك ، كثيرون يؤلفون رواياتهم فى مدة أطول .

قالت :

ـ ولكنى حرصت على قضاء معظم هذه المدة فى مكتبة الجامعة ، أقرأ تاريخ حياة الشخصيات من النواحى السياسية والعاطفية . وطالعت كتب الطهى وقواعد الإتيكيت والسلوكيات والأخلاق والأغانى الشعبية والنكات والخرافات أيضاً .

قرأت ثلثمائة كتاب فى كل هذه العلوم والفنون . ودونت مذكرات طويلة بملاحظاتى .

ولم أكتف بذلك بل كانت فى الكتاب لقطة عاطفية عند الفجر فى أحد أيام عام ١٧٢١ وقد طالعت الصحف الصادرة فى تلك الأيام لأعرف حالة الطقس حتى أصور المشهد كما كان ، لأقدم صورة حقيقية صادقة ، أما مشاعر الأبطال وأحاديثهم فقد تخيلتها .

وأضافت :

ـ زرت كل موقع ، قصر ، حديقة ، شارع ، بيت ، تكلمت عنه ، وكل حجرة التقى فيها الصديقان فإن الرواية التاريخية تعتمد على الخيال من ناحية ، وتعتمد على الواقع فى باقى النواحى .

وقالت :

ـ كتبت مسودة الرواية ثلاث مرات . وفى كل مرة كنت أجد أن بعض التفاصيل تنقصنى فأعود إلى مزيد من القراءة والبحث والدراسة . وكنت أصرخ كثيراً ، وأبكى طويلاً ، وأفكر فى التوقف لولا زوجى الذى كان عنصراً مهدئاً ومشجعاً أيضاً .

كان يقول لى . . إذا كان هناك شك فى نقطة فلابد من الوصول إلى يقين . وإذا وجدت أنه يمكنك بمزيد من الاطلاع هنا أو هناك معرفة الحقيقة فحاولى مرة أخرى . أما إذا لم يكن أمامك سبيل للمعرفة عند ذاك فالخيال يسد النقص .

وليست هذه أول رواية تؤلفها كارين الأمريكية المقيمة فى تكساس بل ألفت قبل ذلك روايتين وضعتهما فى أدراج مكتبها فقد وجدت أنهما لايستحقان النشر . وقد تعود إليهما يوماً ما عندما تجد القدرة على إدخال تعديل بهما أو عندما ترى أملاً فى إنقاذهما .

وكارين صحفية وأم لطفلين ، وأثناء عملها بالصحافة كانت تتوقف أمام بيتها لإطعام طفلها الرضيع ، وعندما أسند إليها عمل مكتبى فى مجلة « البيت والحديقة » كانت تستعين بصديقة تأتى إليها بصغيرها لترضعه فى « حمام » المجلة !

أما السبب فى ذلك فهو رغبتها فى أن تكون صحفية وأما فى نفس الوقت ترعى طفلها . وقد أرهقتها العذابات ولذلك رأت أن تتفرغ للكتابة فهى تؤمن بموهبتها وقدرتها على التأليف الروائى .

وقد طالت مدة كتابة الرواية أكثر مما توقعت لأن العقدة غريبة فالبطلة أحبت شخصية تاريخية رحلت عن هذا العالم وفتنت به فلما وجدت صغيراً له أحبته .

وفرق ضخم بين أن تحب بطلاً تقرأ قصته فى كتاب وأن تعيش مع نفس البطل . . ولكن أن تعيش مع صغيره فهذه حكاية أخرى لها العجب .

ومن خلال الرواية تقرأ أحداث الحروب التى اشتركت فيها إنجلترا وفرنسا فى القرن الثامن عشر والشخصيات الأسطورية التى كانت تحاول السيادة على أوربا والعالم فى ذلك الحين .

وعندما قدمت الكاتبة روايتها للناشر أعجب بها واعتمد مليونى دولار لحملة إعلانية ضخمة .

ولم تكن أموال الإعلانات وحدها سبباً لرواج الرواية ، ولكن الأحداث العاطفية والحربية والسياسية هى التى جعلت الناشر يرى فى المؤلفة صورة أخرى لمرجريت ميتشيل مؤلفة رواية « ذهب مع الريح » .

ولذلك ، ومنذ البداية ، تم التعاقد مع الكاتبة على إنتاج فيلم لا يصور الحرب الأهلية الأمريكية كما حدث مع كاتبة « ذهب مع الريح » بل يصور الصراع فى أوربا وتأثير ذلك على العالم ، لا بمحاضرات ونصائح وكلمات جافة بل من خلال لمسات صغيرة ، هنا أو هناك .

وقد حدث فى رواية « الصمت » التى قدمها المخرج السويدى إنجمار برجمان أن قدم لقطة واحدة لم تستغرق إلا دقائق قليلة لعدد محدود من الدبابات يخترق الشوارع . ولم

تطلق الدبابات رصاصة واحدة ، ولم يطلق عليها مدفع واحد ومع ذلك يلمس القارىء من هذه اللقطة أن الأحداث كلها تدور أثناء الحرب .

ولكن فى رواية « عبر مرآة سوداء » هناك مدافع ونيران وقتلى وجرحى ، ولكن توجد أيضاً قصة حب .

والعبرة فى نجاح هذه الكاتبة أو الدروس المستفادة من قصتها أن الإنسان يستطيع أن يحس بموهبته ، ويكتشف قدراته ويبقى بعد ذلك عمل شاق وصبر وتضحية فإن خمس سنوات بلا مرتب ، وبلا عمل إلا الكتابة فى انتظار المجهول من نجاح أو فشل عملية ليست سهلة . ولكنها أسفرت فى النهاية عن قلم يغمس فى ذهب أو فى حبر من ذهب !

رأيت كتباً عنوانها « كيف تؤلف » . .

وموضوعات هذه الكتب الرواية بأنواعها المختلفة ، عاطفية أو بوليسية أو تاريخية والرسالة الجامعية والشعر . . إلخ .

وقرأت كتباً تبين للشباب أسماء الناشرين الذين يتمنون إصدار أعمال الشباب .

وهذه الكتب تقدم أسواق الأدب والفن .

وبعض دور النشر تحدد ثمن الرواية والقصيدة واللحن مقدماً . .

وطالعت كتباً تحذر الشباب من الوقوع فى براثن الوكلاء واللصوص الذين يسرقون إنتاج المؤلفين المغمورين المجهولين !

ووجدت دور نشر تسرق إنتاج المؤلفين الشبان لأنها تعلن مقدماً أنها ستحصل على العمل الفنى ولن تنشر اسم صاحبه . . أبداً !

وبعض هذه الدور قالت أن الشباب يساعد الشباب . . فكل مشترك يدفع رسماً والفائز الأول يحصل على المبالغ التى تجمعت من الاشتراكات ويستفاد بها فى نشر العمل الفنى أو الأدبى !

* * *

ولعل أهم كتب صدرت فى سنة الشباب التى قررتها الأمم المتحدة هى التى جمعت أراء الكبار فى كل المجالات .

وهى كتب كتبها الناجحون يروون قصص الفشل فى حياتهم ، ومن الذى تغلب عليهم وهزمهم فى البداية .

وكتب لفاشلين ، لينصحوا الشباب بأن يتغلبوا على كل العقبات .

وهذه الكتب قدمها رياضيون وعلماء وخبراء كان يمكن أن يلمعوا لولا أنهم فى مفترق الطرق بين النجاح والفشل تقاعسوا وتراجعوا واستسلموا للهزيمة .

وتنشر بعض مدارس تعليم الكتابة كتباً سنوية عن متاعب الجيل الجديد من الكتاب ، يرويها الشباب بصدق . فأصبحت هذه الكتب أكثر رواجاً من كثير من المؤلفات !

فى أحد الكتب قرأت اعترافاً عجيباً للفائز الأول الذى تنبأ له كل الأساتذة بالتفوق والنجاح فى احتراف الكتابة .

قال إنه استمع إلى نصيحة أستاذه فى أن يقرأ فطالع القديم والجديد من الروايات فى أدب بلاده . . والآداب العالمية قبل أن يخط الحرف أو الكلمة الأولى فى أول قصة له .

وبعد هذه القراءات الكثيرة أحس باكتئاب بالغ .

بدأ يلوم نفسه لأنه لا يستطيع أن يؤلف كتاباً مثل الكتب التى طالعها .

وكلما قرأ أكثر كلما اقتنع بأنه ليس كفؤاً لأن يكتب على الإطلاق .

الشخصيات التى قرأها فى روايات الآخرين تعكس شخصيات حقيقية يمكن أن يلقاها فى الحياة .

والعقد فى روايات الأخرين محبوكة تماماً ، وتنفرج مع كل صفحة فجاءت النهاية طبيعية ومتوقعة أو كانت المفاجأة أن الخاتمة غير متوقعة ولكن لاتبدو غريبة !

والأسلوب نظيف بسيط يتعذر الوصول إليه أو تقليده .

وأحياناً الأسلوب جزل مفهوم لايحس القارىء بأن المؤلف قد اصطنعه أو افتعله .

وهو يتجمد أمام بعض الصفحات يلتصق بها . ولا يستطيع أن يترك الكتاب إعجاباً .

وفى البداية كان يلتمس لنفسه العذر لأنه يقرأ لكتاب يفوقونه عمراً وتجربة وخبرة . ولكنه قرأ لشباب الكتاب فلم يجد لنفسه عذراً .

وهكذا انتهى الكاتب الشاب إلى نتيجة واحدة .

قرر ألا يكتب أبداً وأن يمارس حرفة أخرى .

وكثير من الشباب يعانون المشكلة ذاتها فيفقدون مع كل كتاب يقرأونه الثقة بالنفس ويجدون أنهم لن يقدروا أبداً على تقديم كتاب يشبه ما طالعوه .

وعندما يعقد القارىء مقارنة بينه وبين كاتب آخر فإن المقارنة لا معنى لها على الإطلاق وإلا فكرنا فى أوجه التشابه بين التفاح والبرتقال والعنب والبطيخ والموز !

إن كل كاتب يمثل نوعاً مختلفاً من الفاكهة .

والمقارنات تؤكد الشكوك والمخاوف والأحاسيس السلبية ، وسيدخل الكاتب فى منافسة لا مع مواطنين من الكتاب بل مع كتاب العالم جميعاً .

وإذا نظرنا إلى العالم بهذه الطريقة تصبح الحياة غاية فى التعاسة بالنسبة له .

كل كتاب وكل كاتب لا ينافس الآخر .

وكل كتاب لنفس المؤلف لا ينافس كتاباً ثانياً له .

وكل سطر لا يشبه السطر الآخر والصفحات أيضاً .

وستكون النتيجة أن الكاتب سيحس بأن الآخرين عباقرة ، وليس كل الكتاب عباقرة .

سيفقد الشاب الثقة بنفسه ، وسيجد أنه يدفع ثمن تفوق الآخرين ، ونجاحهم على حسابه ومن رصيده .

أما النتيجة النهائية فهى أن كل كتاب يراه سيجعله يزداد كراهية لنفسه .

وكلما نجح الآخرون اعتقد أن نجاحهم تهديد له فالمنافسة فى هذه الحالة دموية وقاتلة .

أما إذا نجح الكاتب نفسه فإن نجاحه يصبح بلا متعة وتتحول القراءة نفسها إلى عذاب .

ولوكانت نظرة الجميع بهذه الطريقة فلن يكتب أحد . ولن تجد دور النشر كاتباً جديداً .

إن أجيال الكتاب تتابع وأنهم مثل أمواج البحر لا توجد موجة أخيرة . . . أبداً ، لأن الموج لا يتوقف فالموجة الأخيرة بالنسبة لك لن تكون الأخيرة لمن يقف على الشاطىء بعدك .

وهناك فارق ضخم بين الكاتب والممثل .

الممثلون يتنافسون لأن كلاً منهم يريد الحصول على نفس الدور وكل يريد تمثيلية .

وإذا حصل الممثل على دور معين فإن الآخرين لا يفوزون به بطبيعة الحال . ولكن ذلك لا يحدث مع الكتب فكل كتاب ينشر يؤدى دوراً لا يؤديه آخر .

والقارىء يشترى الكتاب لأنه يريد قراءته ويرفض شراء كتاب آخر لأنه لا يريد !

* * *

أراد صلاح ذهنى فى شبابه أن يقدم توفيق الحكيم كتابه الأول فكتب توفيق الحكيم مقدمة غريبة قال فيها أن الكاتب ، أى كاتب ، لا يحتاج إلى تقديم فإما أن يعجب به القراء أو لا يعجبون . فإذا وجدوا متعة فى الكتاب فإنهم يتبعون الكاتب وإلا انصرفوا عنه .

ودعا توفيق الحكيم الكاتب الشاب إلى أن يستمر بعد كتابه الأول « فى الدرجة الثامنة » .

وكان صلاح ذهنى أيامها كاتب سجن فى الدرجة الثامنة وهى أدنى الدرجات الوسيمية الحكومية فى مصر . واستمر فنجح كاتباً وصحفياً وفناناً ومديراً لدار الأوبرا .

وفى إحدى الروايات الناجحة ترى فتاة تقوم بدور البطولة تحيا فى أسرة فقيرة تريد منها أن تتخرج وتعمل لتكسب ولكن الفتاة تتمنى أن تكون كاتبة .

وتشجعها الأم وتأخذ ماكتبته ابنتهاإلى أشهر كاتبة فى زمانها فتقول لها :

ـ الأسلوب جميل ولكن الفتاة تكتب عن أشياء وأشخاص لاتعرفهم . دعيها تكتب عما تراه .

وتكتب الفتاة عن أمها التى شجعتها ، وأسرتها التى عاونتها وتصف ذلك كله فى رواية اسمها « اذكر أمى » .

وتتحول الرواية إلى فيلم يفوز بأعلى الجوائز فى أمريكا . . جائزة الأوسكار !فكل كاتب ناشىء يستطيع أن يكتب بلا شهادة إذا نظر حوله ولا يهتم بالمدة التى تستغرقها عملية الكتابة .

وكل كاتب يمكن أن يأخذ الفكرة ممن حوله ، وما حوله .

وفى فرنسا وألمانيا يطلقون على بعض القصص والروايات كلمتين :

« رواية بمفتاح » أو « رواية لها مفتاح » .

يقصدون بذلك أن كل رواية لها أصل وأسماء قد تكون زائفة ، وهمية ، ولكنها ترمز لأشخاص حقيقيين .

وكان بعض الروائيين يكتبون ملحقاً بالأسماء الحقيقية يوزع بعد صدور الرواية بأيام أو شهور .

وأنت أيضاً أمامك المفتاح وبقى أن تكتب الرواية !

إنهم يقتلون الأدباء

يقول الناشرون العالميون : إن أكثر الكتب توزيعاً فى العالم - الآن - تلك التى كتبها وليم شكسبير « الشاعر الإنجليزى » ويوهان فولفجانج فون جوتة الشاعر الألمانى و « شارلز ديكنز » الروائى الإنجليزى .

ولم يتوقع الثلاثة شيئاً من ذلك فإن النقاد هاجموهم فى حياتهم ، وبعد وفاتهم بسنوات . .

ولو أن أحدا من هؤلاء ، صدق النقاد ، الكبار والصغار ، لامتنع عن الشعر والمسرح والرواية وقصف قلمه لأن النقاد لم يرحموا أحدا . . قط .

* * *

هذا هو « شكسبير » . .

نشر أقل من أربعين مسرحية خلال عشرين عاماً .

ولم يحصل إلا على ٨ جنيهات عن كل مسرحية .

ولم يزد دخله عن عشرين جنيهاً سنوياً .

كان يكتب بالحبر ولم يستعمل « النشافة » ليجفف كلمة واحدة ، فقال الشاعر والمسرحى الإنجليزى « بن جونسون » :

- ليت « شكسبير » جفف ألف كلمة!

يقصد بذلك أنه كان يتمنى لو أن الشاعر جفف كلماته ومحاها كلها!

ويوم قيل إن مسرحيات « شكسبير » ستنشر فى أمريكا هاجمتها الصحف لأن أمريكا لن تقبل هذه المسرحيات أبداً .

وانتقد كاتب آخر « صامويل ببس » - مسرحية « حلم ليلة صيف » فقال إنها أسخف مسرحية قرأها فى حياته .

أما « برنارد شو » فتمادى فى النقد قائلاً : إنه لا يحتقر كاتباً كما يحتقر « شكسبير » وأنه يتمنى أن يحفر قبره ويُلقى على جثمانه . . الحجارة .

* * *

وهذا « ديكنز » .

لم يتم تعليمه الإعدادى . وسجن أبوه لأنه مدين ، فعرف الفقر فى طفولته . واشتغل بالصحافة ، وألف فرقة مسرحية وكتب أشهر الروايات « قصة مدينتين » و « أوليفر تويست » و « دافيد كوبر فيلد » و « أوراق بيكويك »!. . وغيرها وغيرها .

ومع ذلك فإن مجلة « ساترداى ريفيو » التى تصدر فى لندن لم يعجبها مدح البعض له فقالت :

ـ نحن لا نؤمن بأن شهرته ستدوم . وسيعجب أطفالنا لأن أجدادهم وضعوا « ديكنز » يوماً فى مقدمة الروائيين .

ولكن الأحفاد وضعوه ـ أيضاً ـ فى مقدمة الروائيين

* * *

وهذا هو أكبر شعراء ألمانيا . . « جوتة » .

درس القانون وعمل كبيراً لوزراء دوق فيمار . ودرس علوم الأحياء والنبات . وأجاد الرسم وعزف الموسيقى وتعلم ٦ لغات ونقل فن شكسبير المسرحى وترجم « فولتير » و « بايرون » وألف « آلام فرتر » و « فاوست » .

كرهه هتلر لأنه انتقد الألمان .

ورأى كاتب ألمانى شهير آخر وهو « توماس مان » إن « جوتة » هو الفنان الكامل. وألف « مان » كتاباً عن حياة جوتة العاطفية الذى فكر يوماً فى الانتحار لأنه يحب .

أما مجلة « أدنبرة » فرأت أن كل ما كتبه « جوتة » : « كلام فارغ » .

* * *

ولم يقتصر هجوم النقاد على هؤلاء الثلاثة فحسب .

كل كاتب وشاعر مسرحى أخذ نصيباً كبيراً ـ فى حياته ، وبعد مماته ـ من النقد وإن كانت الكلمات الطيبة قد تكررت كثيراً . . بعد الوفاة !

« بلزاك » الروائى الفرنسى عاش فى أخصب عصور الأدب مع « هوجو » و« لامارتين » وابتكر ألفى شخصية فى رواياته ، ووصف المجتمع الفرنسى وقدم « الكوميديا الإنسانية » .

ومع ذلك فإن مجلة « العالمين » الفرنسية وجدت أن مكانة « بلزاك » فى الأدب الفرنسى لن تكون عالمية ، أو محترمة . وقد ظهر خيال محدود فى قدرته على إظهار العواطف وابتكار عقدة الرواية .

« وجوستاف فلوبير» الكاتب الفرنسى الذى هجر الطب ليتفرغ للأدب وألف « مدام بوفارى » . . قالت عنه صحيفة « الفيجارو » ببساطة : إنه ليس كاتباً .

وأدت حملة النقد إلى محاكمته ، والناشر أيضاً ، لولا أن القضاء حكم ببراءته .

« وجون ملتون » الشاعر البريطانى ، مؤلف « الفردوس المفقود » لم ينل عنها سوى عشرة جنيهات فقط عام ١٦٦٥ .

وقال النقاد إذا كانت « لملتون » مزية فهى أنه أطال وأطال ولكن شهرته مثل شمعة فى مهب الريح ستطفأ وذكراه ستستقر فى مستنقع !

ومع ذلك بيعت ١٣٠٠ نسخة من « الفردوس المفقود » خلال ١٨ شهراً وهو رقم قياسى بحسابات ذلك الزمان .

* * *

ولا يوجد كاتب كبير عاشت شهرته عشرات ومئات السنين بعد وفاته إلا وقد وطأه النقاد بأقلامهم . .

الشاعر صامويل كولريدج قالوا عن قصائده : إنها لن تصل إلى عتبة الشهرة وسنظهر لأطفالنا أننا أقزام فى الفكر إذا بدا لنا كولريدج عظيماً .

والكاتب الناقد الروائى « شارلز لامب » الذى رفض أن يتزوج لرعاية شقيقته المجنونة التى قتلت أمها . . والذى اعتزل الناس تماماً بعد وفاة صديقه « كولريدج » - قال عنه كاتب آخر ومؤرخ كبير هو « توماس كارليل » :

ـ أعتقد إنك مجنون يامستر « لامب » .

والروائى الأمريكى « وليم فولكنر » الحائز على جائزة نوبل قالوا عن بعض رواياته : إنها ضربة وجهها لنفسه باعتبار أنه كان يوماً صاحب موهبة .

وبالمناسبة فإن « كارليل » أشتهر بين المؤرخين لأنه ألف تاريخ الثورة الفرنسية .

وأشتهر بين الأدباء لأنه أهدى مخطوط كتابه لصديقه « جون ستيوارت ميل » .

وكانت المسودة مكتوبة على مايشبه الأوراق السميكة التى تباع فيها اللحوم قبل سنين فرأت الخادمة المخطوط وظنته شيئاً قذراً فأحرقته .

أخذ « كارليل » يبكى على الجهد الضائع قائلاً :

ـ قتلت نفسى عرقاً وعملاً لأحقق صفراً .

وقال :

ـ لا أذكر شيئاً مما كتبت .

ومع ذلك أعاد كتابة الجزء الأول الضائع من الثورة الفرنسية وتبعه بباقى الأجزاء .

* * *

و« راديارد كبلنج » الكاتب الشاعر الذى ولد فى الهند وترجمت إحدى رواياته وعنوانها « لو » إلى ٢٧ لغة عام صدورها ١٩١٠ ، وحصل على جائزة نوبل .

عمل فى صحيفة « سان فرانسيسكو أكزا مينر » فاستدعاه رئيس تحريرها يوماً .

أقبل كبلنج إلى مكتب رئيس التحرير متفائلاً .

قال الصحفى الكبير :

ـ يا مستر « كبلنج » : أنت تعرف طبعاً أن هذه الصحيفة ليست دار حضانة للكتاب الهواة .

أجاب « كبلنج » وهو يظنه يقصد آخرين :

ـ طبعاً . . طبعاً .

قال الصحفى :

ـ ولذلك فإنى آسف جداً يامستر كبلنج أن أقول إنك لا تعرف كيف تحب اللغة الإنجليزية .

وألقى بالمفاجأة فى وجهه :

ـ أنت مفصول .

واشتهر « كبلنج » بعد ذلك بأنه يحسن الكتابة بهذه اللغة وترددت هنا فى العالم العربى إحدى جمله الشهيرة .

« الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولا يلتقيان » .

والشاعر « وليم ورد سورث » الحائز على جائزة نوبل أيضاً وصفته مجلة بريطانية بأن حالته ميئوس منها ولاعلاج لها،والنقد لا ينبغى أن يتعرض له فهو أقل من مستوى النقد !

وأرنست همنجواى قالت عنه إحدى الناقدات إنه « لا يكتب أدباً » .

وصعد إلى خشبة المسرح مخرج مسرحية « معركة الملائكة » ـ أول مسرحية للكاتب الأمريكى «تنيسى ليامز » ـ ليعتذر للمشاهدين ويسدل الستار على المسرحية قبل إتمام عرضها قائلاً :

ـ آسف . . لن نكمل عرض المسرحية لأنها لا تستحق .

* * *

والصحفى والكاتب الفرنسى « ألفونس دوديه » قال عن زميله « إميل زولا » الذى ألف رواية مسلسلة عن قصة أسرة اسمها « روجون ماكار » فى عشرين جزءاً :

ـ إنى أنصح مستر « زولا » أن يشنق نفسه على أعلى شجرة .

أما المسرحى البريطانى « أوسكار وايلد » فاكتفى بأن يقول :

ـ إميل زولا « عازم على أن يظل كاتباً مملاً »

وهاجم « وايلد » كاتبة أخرى اسمها « مارى كوريللى » اشتهرت برواية رائعة اسمها « أحزان الشيطان » فبها ينتقم البطل من خطيبته الخائنة عندما قبل أن يتزوجها .

فى حفل الزفاف فاجأها أمام كل المدعوين :

ـ آسف لن أقبلك زوجة لى .

وانطلق فى الشوارع هائماً خائفاً من نفسه مرتاعاً لبشاعة انتقامه .

قال وايلد فى السجن عن « مارى كوريللى » .

ـ مكانها لا ينبغى أن يكون أمام مكتب وفى يدها قلم . . مكانها هنا . . فى السجن !

والمطلوب من كل كاتب شاب ألا يصدق النقاد إذا هاجموا كتابه الأول وقصيدته الأولى أو اللحن الأول لأى موسيقى .

والمطلوب من كل كاتب شاب ألا يصدق الناشرين أيضاً إذا رفضوا كتبه .

« جوناثان لفنجستون » رفض الناشرون روايته « طائر النورس » ١٢ مرة .

ومارك توين رفضت رواياته ومقالاته ٥٠ مرة وبالذات من المجلة التى نشر فيها ـ بعد شهرته ـ هذه الكتب والمقالات .

وتحايل الكاتب البريطانى « جون كريسى » على الناشرين فألف كتبه بـ ١٣ اسماً مستعاراً ولكن كتبه رفضت ٧٤٣ مرة . . وأصر واستمر . . فنجح .

وإذا آمن الكاتب بما يكتب فإن النقاد والناشرين لن يستطيعوا أبداً قبر موهبته بل سيظل يكتب أدباً ، ويتغنى شعراً ، ويجوعٌ زوجته وأولاده حتى يصدر كتاباً !

* * *

والخوف من النقاد جعل كثيرين من الكتاب يختفون وراء أسماء مستعارة لأسباب كثيرة .

المرأة رأت أن المجتمع يشجع الرجال فاختارت لنفسها اسم رجل حينا ، واسم امراة أخرى أحياناً ، حتى تهرب من قيود الأسرة والمجتمع حولها . .

والرجل خاف الفشل فاحتمى باسم آخر يواجه به الصدمة .

والبعض وجد أن اسمه فُرض عليه ، ولم يكن له رأى فيه ، فاختار اسماً موسيقياً له رنين ، أو لا يتشابه مع أسماءَ أخرى .

وبعد النجاح والشهرة والبريق رأى أصحاب الأسماء اللامعة فى التاريخ الأدبى أن يعلنوا ألقابهم الحقيقية ،ولكن أحدا لم يهتم بها ، فإن القراء فضلوا الأسماء المستعارة .

والأمثلة على امتداد التاريخ لا حصر لها .

إن جورج أورويل ، وجـورج أليوت ، وأنـاتـول فرانس ، ومكسيم جوركى ، وموليير ، ومارك توين ، وساكى ، وجوزيف كونراد ، وأندريه موروا ، ومئات غيرهم عُرِفُوا فى العالم بهذه الأسماء غير الحقيقية .

اختـار بعض الكتـاب أسـماء مدن ، وأسـماء أبـطال مسرحيات ، أو شخصيات ثانوية ، أو بعض رؤسائهم فى الوظائف وأطلقوها على أنفسهم .

وأرادت سيدة فى إفريقيا الجنوبية التخلص من القيود السياسية والاجتماعية فوقعت ٩٠٤ روايات بستـة أسـماء مستعـارة قبـل أن تستقـر على أحـدها وهو « كاثلين لند ساى » . . أما اسمها الحقيقى فهو السيدة مارى فوكنر . .

وقد تلاشت ظاهرة الأسماء المستعارة الآن ، أو هى فى طريقها إلى الاختفاء فقد زاد جنون البحث عن الشهرة . ولم تعد الكتابة حرفة ، أو مهنة يهرب منها الإنسان . . إلا فى أحوال سياسية معروفة .

* * *

رأت كاتبة بريطانية شهيرة أن تجرى تجربة أدبية جديدة وأن تطلق على نفسها أسماء مستعـارة هربـاً من الشهرة من ناحية ، وساعية إلى مناورة ضخمة أرادت أن تهز بها المجتمع الأدبى فى بريطانيا ، وفى أوربا كلها ، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير .

ظهرت فى المكتبات فى إنجلترا منذ ثلاث سنوات رواية باسم « مذكرات جارة طيبة » من تأليف « جين سومرز » .

البطلة سيدة متوسطة العمر ، عاقر ، ترأس مجلة أدبية ، تحب عملها وتتفانى فيه بعد وفاة زوجها أثر إصابته بالسرطان . وهى تثق بنفسها كل الثقة .

وتلتقى بجارة لها عجوز خائفة مترددة ، تحس بذل الشيخوخة ومتاعبها .

وبالتدريج نجد الصحفية تترك عالمها الأنيق لتدور مع كبار السن وتركز اهتمامها عليهم .

بعد أن كانت البطلة تفكر فى رحلاتها المنتظمة إلى أوربا والعالم الجميل الذى تنتقل إليه ، إذا بها تتـوجـه إلى الشيوخ وتـأمين حياتهم وتنطلق بصحيفتها من عالم الأزياء والمجتمع الصاخب إلى عالم رعاية الكبار صحياً واجتماعياً وضرورة الترفيه عنهم .

وبعد أن كانت الصحفية تحيا فى حدود ذكرياتها إذ بها تنتقل إلى عالم الماضى مع السيدة العجوز فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

والنتيجة الطبيعية لهذا كله أن زحف ماض لم تعشه الصحفية إلى حياتها الجديدة التى تغيرت تماماً إلى جارة طيبة وجدت نفسها مسئولة عن أم لها لم تلدها .

* * *

لم يستقبل النقاد فى بريطانيا رواية « جين سومرز » . ولم يسأل أحد عن هذه الكاتبة الجديدة التى اهتمت دار نشر كبرى بتقديم روايتها دون تعريف القراء والنقاد بالكاتبة التى ظهرت فجأة فى الحياة الأدبية فى العاصمة البريطانية .

ولكن « جين سومرز » لم تحفل بهذا التجاهل والإهمال واللامبالاة من الأوساط الأدبية . وأصدرت رواية ثانية اسمها « إذا استطاع الكبار » .

والرواية الجديدة مكملة للرواية الأولى .

البطلة تقدمت فى السن هذه المرة وأصبحت أيامها تتساقط كأوراق الخريف . وحولها أبناء أشقائها وشقيقاتها ، جواسيس عليها يراقبون كل تصرفاتها وأعمالها . ولا تستطيع أن تخطو خطوة إلا وقد حاسبت عليها نفسها ، قبل الحساب العسير الذى تلقاه من « الجواسيس » الشبان .

ومن خلال الرواية نجد أن البطلة تقدم نفسها كنموذج للكياسة واللياقة وحسن السير والسلوك بحيث تكون مثلاً أعلى للجميع ، وحتى يقلدها شباب الأسرة دون أن تلقى إليهم بنصيحة واحدة ، أو مواعظ ، تحول الرواية إلى موضوع إنشائى يكتبه طلبة المدارس .

ولأن البطلة لا تستطيع أن تحيا وحدها فإن بنات الأسرة يقمن معها فتتعرف على مشاكل الجيل الجديد الذى يعانى التمزق النفسى ، ويظل طول النهار وقد التصقت سماعة جهاز التسجيل بأذنيه تدوى فيها الموسيقى نهاراً وليلاً .

ومن خلال فارق السن ، والثقافة والخبرة ، والتجربة يلمس القارىء صراع الأجيال حيناً ، وتداخلها وتكاملها أحياناً .

وللمرة الثانية لا تنشر - عن جين سومرز وروايتها الجديدة - كلمة واحدة فى الصحف اليومية أو الأسبوعية وكذلك المجلات الأدبية المتخصصة .

وأغفلت النـدوات الأدبية فى الإذاعـة والتليفـزيون روايتين فيهما أفكار كثيرة عن مشاكل الشباب والشيوخ فى هذا الزمن المتقلب .

وكان الإهمال مزدوجاً .

لم يتساءل أحد من النقاد عن الكاتبة الجديدة .

ولم يسأل أحد الناشر عن سر تشجيعه لهذه الكاتبة وموهبتها التى دفعته لتقديم كتبها للقراء .

* * *

وبعد عامين كاملين أصبحت الروايتان موضع اهتمام كل ناقد أدبى فى بريطانيا .

والتقطت صحف أوربا القصة وأخذت تتكلم عن « جين سومرز » وآرائها فى الحياة والنـاس ومـع ذلـك لم يستـطع ناقـد واحـد لقـاء « جين سومرز » لأنه لا وجود لهذه الكاتبة . . قط !

أمـا سر تركيز الأضـواء أخيرا حول الروايتين فيرجع إلى كتاب جديد أصدرته روائية بريطانية ذائعة الشهرة وهى « دوريس ليسنج » التى نشرت كتاباً اسمه « مذكرات جين سومرز » .

فى هذا الكتاب مقدمة طويلة كتبتها « دوريس ليسنج » وقالت فيها :

« أنا جين سومرز » .

وأنا مؤلفة الروايتين .

وقد اخترت أن أطلق على نفسى هذا الاسم المستعار لأعرف أمرين :

الأول : هل تباع الكتب لأسماء مؤلفيها أو مضمونها ومحتوياتها وما فيها من حبكة روائية وآراء . ؟!

وقالت « دوريس ليسنج » : إن القراء أفضل من كل النقاد وإن النقد الأدبى أصبح يدور حول المشاهير فحسب ، وإن عالم الأدب يجب أن يُجدد ويتجدد .

ومع المقدمة الطويلة أعادت الكاتبة نشر الروايتين كاملتين وطالبت الجميع بإعادة تقييمهما مرة أخرى بعد أن عرفوا أن كاتبة شهيرة هى المؤلفة .

* * *

كانت المقدمة صفعة لكل نقاد بريطانيا وأدبائها الكبار .

وكان أمام هؤلاء خياران : إما الترحيب بالروايتين والاعتذار عن التجاهل القديم ، أو التجاهل التام بدعوى أن الروايتين أقل من مستوى النقد .

ولكن معظم نقاد بريطانيا سقطوا فى الفخ الجديد .

بدأت الصحف تكتب عن الروايتين وتعتذر عن الإهمال القديم . وأخذ النقاد ـ أو أغلبهم ـ يتكلم عن أهمية هذا الحدث الأدبى ، وأن المقصود منه إيقاظ الضمائر للاهتمام بالشباب وإعطائه فرصاً كثيرة .

وأراد كُتاب آخرون تبرير ما فعلوه فقالوا : إن أفكار الروايتين لاتستحقان النقد وكلها تقليدية مكررة ومعادة .

وهاجم النقاد بعضهم البعض بسبب هذه الآراء المتعارضة .

ولكن أحداً لم يهتم بالناشر ، ولم يعرف أبداً ما إذا كان قد تم الاتفاق بينه وبين الكاتبة الكبيرة على هذه الخطة لأن حرص الناشر على عدم تقديم المؤلفة الشابة « جين سومرز » يدعو الكثير من الشكوك .

وعلى أية حال فإن اختلاف النقاد أدى إلى مزيد من الضجة الأدبية فى أوربا كلها .

فى فرنسا مثلاً قالوا : إن حكاية « جين سومرز » تعيد للذاكرة أمثلة كثيرة لما جرى فى سوق الأدب !

إن كاتباً مثل « فيكتور هوجو » لم ينجح إلا فى سن الستين برواية « البؤساء » .

ومصوراً فوتوغرافياً اسمه « يوجين اتجيه » مات عام ١٩٢٧ فى سن السبعين بعد أن صور الشحاذين والموسيقيين الذين يتسولون بالأنغام وأحذية النساء وقبعاتهم والناس وهم يشترون فى شوارع باريس النباتات الطبيعية التى كان فيها الشفاء .

وهذا الفنان عاش العشرين عاماً الأخيرة على اللبن والسكر والخبز . . بسبب الفقر ولو أن يداً امتدت إليه بالعون لتغير تاريخه .

أما جورج سيمينون كاتب الرواية البوليسية الذى تسمى ب ١٦ اسماً مستعاراً فإن « المجلة الأدبية الجديدة » أخذت تنشر مؤلفاته عام ١٩٣١ وهو فى سن الثامنة والعشرين .

كان يستيقظ فى الخامسة والنصف صباحاً ليبدأ الكتابة فى السادسة ويؤلف الرواية فى أربعة أيام حتى أنهم حبسوه مرة فى قفص زجاجى أربعة أيام ليكتب رواية .

وفى عام ١٩٨٤ نشر سيمينوف مذكراته بعد خمسين عاماً من الشهرة .

وفى تشيكوسلوفاكيا سخروا من الإنجليز وقالوا إن « كافكا » حصل على الشهرة كاملة وأصدر كل رواياته فى سن الحادية والثلاثين .

وأخذت أوربا كلها تتحدث حول الاهتمام بالجيل الجديد من الكتاب وبدأت الصحف البريطانية والأدبية تتكلم عن ضرورة إحياء التقاليد الأدبية القديمة التى أدت إلى شهرة الكثيرين ودفعت إلى الصفوف الأولى أسماء لامعة .

* * *

إن أصحاب المكتبات فى أوربا وأمريكا يقيمون حفلات استقبال صغيرة عند صدور الكتاب الأول لأى كاتب يلتقى خلاله بالمندوبين الأدبيين للصحف والنقاد وكبار الكتاب .

وأصحاب دور النشر يقيمون مآدب غداء ، أو عشاء ، قليلة النفقات كل شهر لكبار الكتاب يقدمون من خلالها كاتباً جديداً أو أكثر .

وفى كل الأندية الاجتماعية التى يلتقى أعضاؤها أسبوعيا يدعى ، بين الحين والحين كاتب شاب يتطلع للشهرة ليتحدث حتى يتعرف إليه الناس .

والمسابقات الأدبية التى تعقدها المؤسسات الأدبية الحكومية ودور النشر كثيرة ولكن مضاعفتها مطلب أساسى للجميع !

وطرحت وسائل أخرى كثيرة للمناقشة هدفها ألا تتكرر تجربة « جين سومرز » أبداً .

* * *

وفى مصر جربت تجربة مماثلة بأسلوب عابث .

ألف الكاتب الصحفى أحمد رجب قصة قصيرة زعم أنها من تأليف الكاتب السويسرى فريدريك ديرينمات .

وطاف مندوب صحفى على النقاد يسألهم تقييم القصة فأشادوا بها وأخذوا يعددون مزاياها .

ونشر أحمد رجب الحقيقة وضحك كثيرون على « مصيدة النقاد » بينما أصر بعضهم على أن القصة من تأليف ديرينمات . . فعلاً !

وعندما حجب مجمع اللغة العربية جائزته عن رواية « مليم الأكبر » للكاتب الأديب عادل كامل نشر الرواية بمقدمة تزيد صفحاتها عن المائة انتقد فيها أسلوب المجمع .

* * *

الكتاب الأول يعنى أن إنساناً ملهماً موهوباً ـ من الجنسين ـ حقق رسالة واندفع بأنبل العواطف يسجل أحاسيس روحه .

فالنقاد يقتلون الأدباء عندما يهملونهم ويتجاهلونهم فى بداية حياتهم ، ويقتلونهم مرة أخرى بعد تحقيق الشهرة عندما يجاملونهم . . لأن النقاد فى هذه الحالة ربما يجاملون وينافقون !

كاتب تحت التمرين

قال الشاب :

ـ أريد أن تعلمنى فن الكتابة .

قال الكاتب الكبير :

ـ أين تعلمت ؟

ـ فى الجامعة . . درست الصحافة .

ـ ومؤهلك الدراسى ! !

ـ لم أحصل عليه .

ـ إذن لم تتعلم وتكذب علىّ !

ـ أنا لا أكذب ياسيدى ، ولكنى رفضت سداد رسم الحصول على الدرجة الجامعية .

ـ إذا كان المال ينقصك فإنى على استعداد لدفعه .

ـ ما حاجتى إلى شهادة جامعية أحملها فى يدى ، وأطوف بها على الناس . كل ما أريده أن أكون كاتباً ، وذلك لا يحتاج إلى الشهادة الجامعية .

ضحك الكاتب الكبير وقال :

ـ لا أستطيع أن أعلمك الكتابة فى يوم أو يومين . كل ما سأقوله لك فى هذه الحالة مجرد نصائح تطالعها فى أى كتاب .

بكى الشاب وقال :

ـ قرأت لك قصة جميلة فيها تشجيع لأمثالى . . يبدو أن ما تكتبونه يختلف تماماً عن أسلوب حياتكم .

أراد الانصراف فاستبقاه الكاتب وأخذ يفكر فيما يريده الشاب ، وأى هدف وراء قدومه وأية أسرار يختزنها ؟ .

وجه إليه عشرات الأسئلة عن أسرته وحياته وما الذى تعلمه فى الجامعة عن الصحافة ، حتى اقتنع بأن نواياه طيبة ، وكل ما يرغب فيه أن يتعلم حرفة الكتابة وفنونها .

ـ ما رأيك فى أن تبقى معى ، ترانى وأنا أكتب أحياناً وتسافر معى ، وسأعطيك مرتباً .

قال الشاب دون أن يسأل عن الأجر :

ـ أوافق .

وهكذا بقى شاب اسمه « أرنولد صامويل سون » مع« أرنست همنجواى » عاماً كاملاً كان يقوم خلاله بمهمة السكرتير حيناً ، والخادم حينا آخر ، والتابع الأمين فى كل الأحيان !

أما الأجر فكان دولاراً كل يوم !

وقد يبدو المبلغ تافهاً بمقاييس الزمن الحاضر ، ولكنه كان أجراً معقولاً عام ١٩٣٤ أثناء الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم فى الثلاثينيات .

وعندما سافر همنجواى مع زوجته وولديه إلى كوبا صحب معه الشاب أرنولد يخدمه على ظهر الباخرة ويعينه فى كل عمل يقوم به .

كان الشاب كثير السؤال لهمنجواى ففكر فى الاستغناء عنه ، ثم عدل أمام إصرار الفتى على الاستمرار فى التجربة حتى النهاية .

اتخذ الشاب طريقة جديدة .

عرف المواعيد التى يكتب فيها همنجواى ، ومتى يريد أن يستريح من الكتابة ، ومتى يرغب فى الحديث .

فى تلك الأوقات كان أرنولد يجلس ساكناً حتى يتكلم الكاتب فيسأله عن ذكريات طفولته .

قال همنجواى :

ـ كل كاتب يظل يكتب عن طفولته حتى يبلغ الأربعين .

قال أرنولد :

ـ ومتى يكتب عن شبابه ؟

قال همنجواى :

ـ كل كاتب يحرص على إخفاء تجارب الشباب ، لا يريد أن يتكلم عن حبه وغرامه وعاطفته إلا فى رواياته لتظهر الشخصيات باسم مستعار .

ـ ولكنهم فى باريس حددوا الشخصيات الأربعة الرئيسية فى روايتك « والشمس تشرق أيضاً » التى نشرتها عام ١٩٢٦ .

ـ أعرف ذلك ولكنى أقصد أن الكاتب وهو يروى سيرته الذاتية فى مطلع شهرته لايكتب أبداً غرامياته .

ـ معنى ذلك أن أهم جانب فى حياة الفنان يختفى وهذا ليس صحيحاً .

قال همنجواى :

ـ أنهم يكتبون عن غرامياتهم بعد أن يتجاوزوا سن الشباب ويتعدونها ويعانون من الشيخوخة . . عند ذلك يكتبون ويسترسلون . . فالكاتب يجب أن يكتب عندما يتحرر من قيود العاطفة والانفعال .

فى هذه الحالة يكتب بعمق .

وأضاف :

ـ كل مايمر بالإنسان يعتبر تجربة ذاتية لا يستطيع أحد انتزاعها منه . ومن الأفضل للكاتب أن يدخر الذكريات الضخمة حتى ينضج ويعرف كيف يقدمها للناس .

إذا كتب أروع ما عنده قبل النضج فلن يستطيع أن يرويه ، أو يقدمه مرة أخرى .

وعند المأساة بالذات ، ومهما آلمتك ياولدى . . . انتظر . إن المأساة هى قمة الفن ، وهى أصعب الأشياء عند الكتابة ولابد من معالجتها بعمق .

ولن تفقد قصة خاصة أبداً إذا لم تكتبها . دعها تتفاعل مع الزمن كما فعلت عندما قتلت أختى !

* * *

كتب الشاب هذه الأفكار فى مذكراته . وكتب الكثير عن حياة همنجواى الشخصية مع أخيه الأصغر .

وكان همنجواى يريد أخاً مطيعاً يستمع إليه ، ويعجب به ، أى بشقيقه الكبير ، فهو لا يريد ناقداً ، بل يريد معجباً . . فحسب !

وكان يطلب ذلك من أفراد أسرته !

* * *

وينتهى العام الذى حدده الشاب لنفسه ويترك همنجواى ولكنه يظل يتابع أخباره وكتبه ويقارن بين ما عاشه عن قرب ، وما سمعه بعد ذلك .

ويستمر الشاب يقرأ عن كاتبه المفضل . . كيف تزوج ٤ مرات . والدرس الذى كان يعلمه لزوجاته وهو أن يجدن إطلاق الرصاص مثله . فقد سأل الشاب أستاذه :

ـ ما سر إفريقيا لديك . . لم تريد الذهاب للصيد ؟

قال :

ـ لأنى أريد أن أقتل . .

وتكون النتيجة النهائية ، أو قمة المأساة فى حياة الكاتب الذى يريد أن يقتل ، أن ينتحر فى سن الثالثة والستين بإطلاق الرصاص على نفسه .

وفى أول الأمر ظن العالم كله أن الرصاصة أنطلقت خطأ ، وأن الكاتب قتل . . . قتلته يده رغماً عنه !

ولكن أرنولد فكر طويلاً . .

وجد أن كاتبه يحسن استعمال البندقية والمسدس ولا يمكن أن يرتكب مثل هذا الخطأ .

وبعد سنة كاملة تأيدت شكوك وظنون أرنولد وثبت أن همنجواى قد انتحر !

* * *

والذكريات التى يحفظها أرنولد عن الكاتب كثيرة ، سواء تلك التى عاشها معه ، أو تفسيره للأحداث من خلال تجاربه .

ويوالى الشاب قراءة كل رواية لكاتبه ويرى كيف تحولت ١١ رواية إلى أفلام . . وهل عبرت السينما عن حياة الكاتب وأفكاره أم تخلفت .

ويتابع رد فعل أوربا وأمريكا لهمنجواى . .

رأت أمريكا أنه قدم إليها أوربا وإفريقيا والصيد ومصارعة الثيران فى أسبانيا .

بعد الشهور التى عاشها أرنولد مع همنجواى تركه ليكتب .

لم يؤلف أرنولد رواية واحدة ولكنه كتب بعض المقالات الأدبية فى الصحف والمجلات الأمريكية .

ولم يشتهر أرنولد بل عاش مثل الآلاف على الهامش ، يطالعه الناس ولا يذكرونه .

وكان يمكن أن يشتهر لو أنه نشر مذكراته عن كاتبه المفضل عام ١٩٦١ عند وفاته ولكنه وجد أن هذه المذكرات لا تستحق النشر لأن عاماً واحداً فى حياة أى كاتب لا تعبر عنه ولا تقدمه ، كما ينبغى أن يقدم ، للناس .

وبقيت المذكرات حبيسة فى أوراق الكاتب حتى مات عام ١٩٨١ بعد عشرين عاماً من وفاة همنجواى .

* * *

لم تفتش ابنة أرنولد فى أوارق أبيها أبداً . بل احتفظت بها للذكرى ترى أنها أشياء مقدسة لا ينبغى أن تلمسها . . كما يفعل الناس مع ذكريات الآباءوالأجداد والزوجات والأبناء والأعزاء بعد الوفاة !

وهدأت عواطف ديانا ـ ابنة أرنولد ـ بعد سنوات من وفاة أبيها ، ورأت أن تقرأ ما كتب من رسائل ومقالات لم تنشر وكتب لم تطبع فوجدت هذه المذكرات ورأت أنها تستحق النشر فأصدرتها فى كتاب حقق لأبيها من الشهرة مالم تحققه مقالاته كلها .

لقد أراد أن يتعلم الكتابة من همنجواى . . وتعلمها فعلاً بعد وفاته ووفاة كاتبه ومن خلال ما رآه وتعلمه فى السنة التى عاش فيها معه يعمل ظلاً . . له .

ومن هنا كانت أهمية الكتاب . . فالكاتب ليس ناقداً وليس معجباً فحسب . . إنه كان صديقاً للكاتب وتلميذاً مريداً وخادماً فهو يعرف عنه أكثر مما يعرفه الكاتب نفسه

* * *

ولقد تكررت هذه التجربة الأدبية أخيراً ، وبصورة مختلفة مع نورمان ميللر الكاتب الأمريكى نورمان ميللر . . فى حياته .

طاف كاتب اسمه بيتر مانسو بمائة وخمسين من أصدقاء ميللر ليروى كل منهم ما يعرفه عنه .

وجمع الكاتب ٧٠٠ صفحة أصدرها فى كتاب عن حياة كاتب لا يزال على قيد الحياة فليس شرطاً أن يكتب عن المشاهير بعد وفاتهم ، بل ربما يكون من الأفضل أن يقرأوا مايقوله الآخرون عنهم للرد والإيضاح !

* * *

وكثير من أعلام الكتاب والشعراء والفنانين فى العالم العربى والإسلامى يمكن تقديمهم للناس بهذه الطريقة . . أن يتتلمذ عليهم بعض هواة الأدب ، وشباب الأدباء وطلبة الجامعة .

وليس المقصود بذلك تمثيلية هازلة ، أو القيام بتحقيق صحفى طويل عن الكتاب . .

وليس المقصود أيضاً أن يدلى الكاتب الكبير ببعض الحكم والمواعظ والنصائح للكاتب الشاب فينقلها كما هى فتكون نسخة مكررة ومشوهة لآراء الكاتب بل الهدف الوحيد لهذه العملية أن يقدم إلينا كبار الكتاب من خلال عيون بريئة ، ولكنها فاحصة ، صديقة ولكنها أيضاً ناقدة ، تشرح عادات الكتاب وتقاليدهم وآراءهم وأخطاءهم الصغيرة والكبيرة .

ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الكتاب الشبان سيتعلمون الكثير .

وبعض الوظائف فى بلادنا تشترط أن يقضى الخريج الجديد زمناً تحت التمرين حتى يسمح له بالعمل كمحام مثلاً . .

فلم لا يكون عندنا « كاتب تحت التمرين » !

* * *

وتوجد طريقة أخرى لتشجيع المؤلفين الشبان ، تتبع فى الغرب .

منذ سنوات اشترك الكاتبان الكبيران طه حسين وتوفيق الحكيم فى كتاب رواية « القصر المسحور » .

وهذه الفكرة تطبق الآن ـ على نطاق واسع ـ فى معظم الدول تشجيعاً للشباب .

الكاتب الكبير ـ أى كاتب كبير ـ يشترك الآن مع أديب ناشىء فى كتابة رواية .

والشاعر الكبير ـ أى شاعر كبير ـ يشترك مع شاعر شاب فى تأليف قصيدة .

وفى الأغانى ، تأليفاً ولحناً ، نشأت عملية المشاركة بين الجيل العملاق والجيل الشاب بهدف إعطاء الشباب فرصة ليتعلموا من الأجيال الرائدة وأيضاً ليحصل الشباب على دعاية ضخمة .

وبعض الكبـار أعلنـوا ـ من الآن ـ تبرعهم بنصيبهم المادى من التأليف للكاتب والملحن الشاب .

والبعض قال بأن نصيبه سيذهب إلى جمعيات الشباب الأدبية والفنية .

وكثيرون وهبوا حصتهم لمسابقات يقتصر الاشتراك فيها على الشباب .

بالاختصار هذا المشروع يمنح شبابنا ، فرصاً ضخمة للشهرة والكسب والتعليم .

وقيل أن العمل الفنى فى هذه الحالة لن يكون عمل المؤلف الكبير أو الصغير بل سيكون من إنتاج طرف ثالث ينشأ عن امتزاج عقليتين وتفاعل جيلين وموهبتين .

وقـد يقال أن طريقة كتابة الرواية فى هذه الحالة صعبة . ولكن رواية طه حسين وتوفيق الحكيم أعطت كلاً من الكاتبين فرصة كتابة فصل كامل .

وإذا كان طه حسين قد بدأ كتابة الفصل الأول فإن توفيق كتب الفصل الثانى وهكذا .

والتجربة التى تجرى فى الخارج تتبع نفس الأسلوب حيناً .

والكاتبان يتفقان ـ أحياناً ـ على طريقة توزيع العمل .

أحدهما يضع عقدة الرواية وخطوطها الأساسية .

والثانى يتولى كتابة الرواية كلها فى ظل هذه الخطوط العريضة .

ويتولى الكاتب الكبير إدخال التعديلات التى يراها إذا لم يقم بعملية الكتابة كلها .

والرواية مجموعة شخصيات . . رجل وامرأة مثلاً .

ويمكن أن يقوم أحد الكتاب بكتابة الرواية من وجهة نظر الرجل .

ويتولى الثانى الكتابة من وجهة نظر المرأة .

أو يقـوم كل منهما بكتابة فصل برواية أحد الأبطال بحيث يكون كل فصل متمماً للآخر ومكملاً له ويكشف عن تتابع الأحداث .

وهناك الكاتب الكبير الذى يتولى وحده كتابة الرواية ويكون الطرف الشاب خبيراً أليكـترونيا أو طبيباً شرعياً أو مهندساً . . وهؤلاء قد لا يحسنون الكتابة ولكن لديهم الفكرة التى يصوغها الكاتب الكبير بحيث يتعلم الفنى الشاب كيف تحولت أفكاره إلى رواية .

وقد عارض بعض كبار الكتاب هذه الفكرة .

قالوا :

ـ الرّواية والقصيدة والموسيقى والأغنية عمل منفرد ، أو عمل وحيد منعزل يضعها الإنسان وحده .

ولكن هذا الاعتراض انتهى عندما وجد مؤلفون كبار أن التفكير المزدوج أفضل من التفكير الفردى وأن العمل المشترك يعنى نصف العمل !

وقيل أن العمل السينمائى فى أغلب الأحيان يتم بين عناصر متعددة فكاتب السيناريو كثيراً ما يكون شخصاً آخر غير كاتب الحوار ومع ذلك يبدو الفيلم وحدة واحدة متكاملة .

ويبقى سؤال :

ـ كيف يختار المؤلف الكبير . . الشاب الذى يشترك معه فى العمل الفنى ؟ .

وقد حلت هذه المشكلة . . .

كل مؤلف كبير يعرف من غير شك أسماء عشرات الشبان اتصلوا به أو قرأ لهم أو سمع بعض مؤلفاتهم . . ومن حق الفنان الكبير أن يختار شريكه فى العمل الفنى .

ويمكن أيضاً إقامة مسابقات فى كل الأعمال الأدبية والفنية المختلفة والفائز فى هذه الحالة من حقه أن يختار الأسماء الكبيرة اللامعة التى تشترك معه .

وتستطيع أن تتخيل الضجة الدعائية الضخمة التى تصاحب رواية يشترك فيها نجيب محفوظ ، وقصيدة يشترك فيها الأمير عبد الله الفيصل وكتاب دينى يؤلفه أحمد عبد الغفور العطار أو الشيخ متولى الشعراوى مع روائى وشاعر وكاتب دينى شاب .

جوائز للعباقرة

ظل ثلاث سنوات يطالع رسائل ومذكرات ، وأبحاث علماء الأحياء والكيميائيين ويقرأ كتبهم ويراجع دراستهم ليعرف ظروف حياتهم وأحوال معيشتهم وكيف تعلموا والمشكلات التى واجهتهم ليصل إلى السر الذى جعل هؤلاء العلماء يكتشفون شيئاً لم يستطع الآخرون الوصول إليه .

ولم يكتف بذلك : طالع المناخ العلمى الذى كان سائداً فى كل فترة عاش فيها أحد العلماء ومعاصروه .

وفى العام الرابع ألف كتاباً جديداً اسمه « الاكتشافات » هدفه تشجيع الجيل الجديد من العلماء على أن يكونوا بدورهم مكتشفين ببيان الوسيلة لذلك من خلال من سبقوهم وهى النظر بعمق وإمعان إلى كل شىء حتى يمكن رؤيته بطريقة مغايرة ومختلفة تماماً .

ومن ناحية أخرى ليعرف الشباب أن الطريق ليس سهلاً أمام عالم فإن الآخرين تعذبوا وكافحوا وأصيبوا باليأس كثيراً وراودهم أمل قليل ولكنهم انتصروا فى النهاية بفضل عامل واحد هو الصبر .

وكان المؤلف نفسه روبرت روت ملتزماً بقاعدة الصبر وهو ينتظر هبة ، ومنحة ، تساعده على القيام بهذه الدراسة .

وجاءته النجدة دون أن يطلبها ، بلا استغاثة وعلى غير انتظار فقد تلقى من مؤسسة ، أو معهد ماك أرثر الأمريكى أنه اختير ليفوز بمنحة قدرها ١٥٢ ألف دولار خلال أربع سنوات ، وأن شيكات متتابعة بالمبلغ ستصله على أقساط كل شهر .

وقالت المؤسسة فى رسالتها :

- لن نطلب رد المبلغ فى يوم من الأيام .
- ولا نريد كشف حساب .

● أنت فى الحادية والثلاثين من عمرك . وعرفنا أنك تقرأ الآن تاريخ العلماء وتطمح إلى تأليف كتاب عنهم . فإذا رغبت فى تأليف الكتاب فهذا شأنك وإذا عدلت فالقرار قرارك وسيصلك المبلغ كل شهر فإذا أردت إيداعه فى البنك وحصلت لنفسك على الفوائد فهذا من حقك أيضاً .

باختصار هذه ١٥٢ ألف دولار موزعة على ٤٨ شهراً . . هى لك .

وقد يبدو هذا الخطاب الذى يتضمن شروط المنحة غريباً غاية الغرابة لم يسبق أن تلقاه باحث ، أو دارس ، أو هاو ، ولكن هذا بالضبط ما تفعله هذه المنظمة الوحيدة من نوعها فى العالم .

وفى كل المنظمات التعليمية والعلمية والخيرية ترتبط الجوائز والمنح بشروط أهمها تقديم كشف الحساب ومتابعة الدراسة والمراقبة عن قرب ، أو عن بعد ، إلا فى هذه المنحة التى تريد من صاحبها أن يكتشف قدراته الخلاقة وأن يحاول استغلالها على الهواه .

* * *

كنت فى الولايات المتحدة عام ١٩٨١ عندما أعلن عن هذه المنح .

يومها انتقد قرار المؤسسة . بل إنها مغامرة بأموال الناس الذين تبرعوا لباحثين .

وقيل أن الطامعين والأنانيين واللصوص ومدعى العلم سيزحفون لنيل هذه المنح .

وقيل أن الأموال سيأخذها الذين لا يستحقون .

وطالبت هيئات جامعية بأن تكون هناك مسابقة لاختيار الفائزين .

وارتفعت أصوات تشترط سناً معينة للفائزين ، ودرجة علمية ووظيفة آمنة وضماناً من بنوك .

ولكن المؤسسة رفضت هذا كله وقالت : الباب مفتوح للجميع . والشرط الوحيد ألا يتقدم أحد بطلب للحصول على هذه المنحة حتى لا تكون هناك ضغوط على القائمين بالعمل والذين يختارون المرشحين .

وقامت المؤسسة باختيار مائة من العلماء وأساتذة الجامعات فى مختلف الفروع والأدباء والفنانين من موسيقيين ونحاتين وشخصيات عامة وبعض الحرفيين .

وقيل للأعضاء المائة :

ـ أنتم تطالعون الصحف والمجلات العلمية والأدبية ، وتتصلون بالناس فى ولايات أمريكا المختلفة فاختاروا من تشاءون .

قيل لهم :

ـ وكيف نختار ؟

قالوا :

ـ كل منكم يختار وتوزع الأوراق عليكم جميعاً . وكل يكتب رأيه للمؤسسة .

وهكذا أصبح المائة الذين لا يعرف أحدهم الآخر لجنة عامة ترشح من تشاء لنيل مبلغ يصل فى بعض الأحيان إلى ربع مليون دولار موزعة على ٤ سنوات .

وهناك لجنة أخرى من ١٥ عضواً يجتمعون ، لاختيار الفائزين .

وتعلن الأسماء مرتين فى كل عام . والفائزون سنوياً يصل عددهم إلى الأربعين .

وعندما يصلهم القرار بذلك من المؤسسة . وفيه ضمان بأن الشيكات لن تتوقف خلال السنوات الأربع حتى لا يتجمد أحدهم فى منتصف الطريق .

ومن بين الـ ١٦٦ الذين فازوا فى السنوات الماضية اكتفى اثنان فقط بالحصول على المبالغ وأودعوها البنوك وحصلوا على فوائدها المتراكمة . ولم يقدموا إنتاجاً .

ولم تعلن المؤسسة اسميهما فليس الهدف التشهير بأحد ، كما أن لجنة الـ ١٥ لا تريد أن تعترف بأنها أساءت الاختيار أو بددت عبثاً أموال المتبرعين ولذلك لم تطالب الرجلين برد المال .

ولكن الباقين قدموا إنتاجاً فنياً رائعاً .

● ناقد أدبى ألف خلال السنوات الست الماضية ستة كتب فى النقد الأدبى وجمع آلاف القصص القصيرة والقصائد لمؤلفين مجهولين .

● وأستاذ متخصص فى علوم البحار طاف بسواحل متعددة ليقدم كتاباً عن الأسباب التى تؤدى إلى التغيير المؤقت فى المناخ .

● وشاعر روائى كان يقرأ الشعر فى الإذاعة ، وفى المدارس ليكسب من ذلك ما يعينه على الحياة . ولكنه بعد أن تحرر من الحاجة للمال اتجه إلى العمل الذى يحبه وهو تأليف أول مجموعة من قصائده ونشرها يوم الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين فإن المنح ينالها الشباب والشيوخ أيضاً .

● ومصور بدأ يضع المجلد الأول من ٢٥ مجلداً عن التماثيل والرسوم فى أمريكا الوسطى .

● وعالم اجتماع ومحام اسمه لورانس روزين ألف كتاباً عن العلاقات الاجتماعية فى قرية مغربية وهو يعد الآن مؤلفاً ثانياً عن المحاكم الشرعية الإسلامية .

● ومؤرخ فى جامعة برنستون اسمه روى موتاهيد انتهى من مجلد ضخم اسمه « عبادة النبى » عن تطور الثقافة الإيرانية فى ألف سنة ودورها فى الأحداث الأخيرة .

● وطبيب نفسى درس تأثير الأزمات الاقتصادية والاجتماعية على الأطفال ولكنه استطاع بمبلغ ٢٥٠ ألف دولار تأليف ثلاثة كتب عن الحياة الأخلاقية للأطفال و« الحياة السياسية للأطفال » و« القيم الدينية والروحية للأطفال » و« كيف تجعل الحياة ذات معنى وهدف » .

وعشرات من الكتب لرجال ونساء كانوا ملزمين بكتابة أبحاث جافة أو إصدار كتب عادية أو تافهة بقصد الحصول على مال يعينهم على تحقيق الهواية التى يحبونها .

وكان كثيرون يقومون بأعمال روتينية وظيفية للحصول على الراتب الشهرى ولديهم الأمل فى التفرغ . ولكن المنحة حررتهم من القلق المالى ، والضغوط النفسية ، والتوتر العصبى ، ليفعلوا ما بدا لهم متابعين ملكاتهم الخلاقة ، تحت شعار يقول للجميع :

ـ افعلوا ما بدا لكم .

وعندما لاحت لهم الفرصة وأمنوا مصدر الدخول انطلقوا ـ وبالذات فى المجال الأدبى والفنى ـ يجمعون أدب المجهولين الذين رحلوا دون أن تلمع أسماؤهم فاحتواها البريق وأحاطت بها الشهرة عن طريق منح لم تشمل أصحابها . ولكن الذين فازوا رأوا أن واجبهم كشف معادن الناس الفنية والأدبية تماماً كالذهب والبترول وغيرهما من المعادن التى كانت تحت تراب النسيان .

وفوجئت المؤسسة بأن ميدان الفن والأدب لا يقتصر على العباقرة الذين تحدثت عنهم كتب التاريخ بل هناك كثيرون لاحت لأسمائهم الشهرة من وراء القبور .

وانطلقت مواهب خلاقة كانت مكبوتة فظهر أدب جديد ، وشعر حديث وأنغام وأحلام لأن الجوائز والمنح والمساعدات لاتريد من أصحابها أن يؤلفوا فى موضوع بالذات ، أو فى مجال محدد . فهذه المنح للتفرغ فعلاً وإن كان هذا النوع من التفرغ غير مألوف .

فى الرسائل الجامعية والأبحاث العلمية وفى المجال الأدبى يقال للناس :

- نريد كتاباً فى اللغة وفى موضوع كذا .

أو :

- هذا مجال التخصص لك فى تلك النقطة بالذات دون غيرها .

ولا يستطيع أحد أن يخرج عن الموضوع بحال من الأحوال ، وإلا ألغيت المنحة أما هنا فالفائز يقرر مصيره ومستقبله وعمله .

ولا يستطيع أحد السعى للجائزة فالطلبات لا ينظر فيها .

وقد يقال أن اللجنة تختار رجالها وأصحابها وأنصارها . وقد يصح هذا فى حالات قليلة . ولكن من الصعب أن يتفق مائة على ذلك كما أن هؤلاء المائة لا يعرفون لجنة الـ ١٥ صاحبة القرار النهائى مما يضمن حسن الاختيار ، لا عدالة الاختيار ، فقد لا يعرف الجميع موهوبين فى مناطق منعزلة ، أو لا تكتب عنهم الصحف أو تشير إليهم الجامعات .

وبعد هذا النجاح امتدت الجوائز إلى غير الأمريكيين فى بلاد بعيدة بقصد خدمة الثقافة والعلوم والفنون .

* * *

ولا يقتصر تشجيع الأدباء والفنانين والباحثين على هيئات حكومية وجمعيات خيرية وأفراد يتجمعون ليتبرعوا بل أن دور النشر تفعل .

إذا ذهبت إلى أية مكتبة فى فرنسا قبل أيام من عطلة عيد الميلاد ، ورأس السنة ، فستجد زحاماً من الزوجات ، بالذات ، وكل منهن تقول للبائع هذه الكلمات :

- اعطنى « الجونكور » .

وقد تظن على الفور أن هذا الاسم لكتاب شهير تطلبه كل ، أو معظم ، نساء فرنسا فى تلك الأيام . ولكن الحقيقة أن الاسم لأشهر جائزة أدبية للرواية تعلن فى أواخر نوفمبر وتشتريها الزوجات ليطالعها الأزواج ، والزوجات أيضاً فى فترة العطلة وهم على يقين من أن الكتاب يستحق القراءة مادام قد فاز بالجائزة الشهيرة .

ويخطىء من يعتقد أن جائزة مالية ضخمة تمنح للكاتب الفائز فإن قيمة الجائزة لا تتجاوز ١٥ دولاراً تقريباً بينما يحصل كل عضو من أعضاء لجنة التحكيم العشرة على أكثر من ألف دولار !

ومع ذلك فإن المتقدمين للجائزة يصل عددهم سنوياً إلى نحو ٥٠٠ روائى هدفهم الفوز بالجائزة لأنها تقدم لهم الشهرة وترفع توزيع الكتاب ـ على الفور ـ إلى نصف مليون نسخة تقريباً فيتحقق الربح الضخم من أرقام التوزيع وحدها .

وهناك جوائز كثيرة للراوية فى فرنسا ولكن « الجونكور » أشهرها نتيجة عامل واحد وهو أن الذين يمنحون الجائزة من كبار الأدباء وأساتذة الجامعات ورجال المسرح وأهل الفن وقد فاز بها أخيراً الكاتب المغربى الطاهر بن جلون عن روايته « ليلة القدر » .

ومن ناحية أخرى فإن القيمة المادية الصغيرة للجائزة أكدت للقراء أن المؤلف المتقدم للفوز لا يريد مالاً وإنما يبغى شهرة تسعى إليه فى أعقاب الجائزة .

وقيمة الجائزة وأتعاب لجنة التحكيم تجىء من حصيلة بيع كتب وروايات ومذكرات الشقيقين جول وإدموند اللذين عاشا فى فرنسا فى القرن التاسع عشر يؤلفان معاً فيظن الإنسان أنهما توأمان . ولهما كتب فى التاريخ والاجتماع وروايات متعددة ولكنهما اشتهرا بمذكراتهما عن أشهر أدباء وفنانى العصر تورجنيف ، وبلزاك ، وفلوبير ، وفيكتور هوجو ، وإميل زولا ، وموباسان ، وجورج صاند وعشرات غيرهم .

وكان بيت الشقيقين يجمع عظماء الأدب والفن والشعر والمسرح فى فرنسا كل ليلة وكان الشقيقان يسجلان مذكراتهما بعد انصراف الجميع .

وفى هذه المذكرات طرائف ونوادر وحكايات وفضائح عاطفية عن هؤلاء الكتاب والفنانين جميعاً . وقد كتب جانب من هذه المذكرات باللغة الهيروغليفية !

وقبل وفاة آخر الشقيقين أدموند عام ١٨٩٦ عهد بمذكراته إلى المكتبة الوطنية فى باريس وأوصى بألا تنشر إلا بعد عشرين عاماً من وفاته .

وجاء موعد النشر عام ١٩١٦ والحرب العالمية الأولى مشتعلة فى فرنسا ولكن ورثة وأحفاد الكاتب ألفونس دوديه والصحفى ألفونس ليون دوديه أقاما دعوى طلبا فيها حذف كل ما ورد فى المذكرات مما قد يسىء إلى الكاتبين .

ولكن القضاء الفرنسى رفض الحذف ، وإرجأ نشر المذكرات حتى يوارى التراب آخر الكتاب الذين وردت أسماؤهم فى تلك الصفحات .

ولم تنشر المذكرات إلا عام١٩٥٤ ـ أى بعد ٥٧ سنة من وفاة أدموند ـ وترجمت إلى عدة لغات لأنها تبين روح العصر الذهبى للأدب والفن الفرنسى والذكريات النادرة عن أولئك الذين صنعوا مجد فرنسا الأدبى .

والجدير بالذكر أن البيت الذى أقام فيه الشقيقان ٢٦ عاماً فى باريس تقلب عليه ملاك كثيرون ولكن بلدية باريس اشترته عام ١٩٢٠ بعشرة أضعاف الثمن الذى دفعه الشقيقان . وسمحت البلدية للمالك بأن يقيم فيه حتى وفاته ثم تحول البيت بعد ذلك إلى متحف يقبل على زيارته عشاق الأدب من كل مكان .

ولا تعلن جائزة « جونكور » التى بدأت عام ١٩٠٣ من هذا البيت بل أنها تذاع من أشهر مطاعم فرنسا « دوران » بينما يتناول أعضاء لجنة التحكيم أجمل أسماك البحر ، ويقف المتقدمون للمسابقة على باب المطعم ينتظرون خروج الأعضاء ومعهم الشهرة لشباب المؤلفين !

* * *

وتعتبر هذه الجائزة أحد أسباب شهرة الكاتبة الفرنسية سيمون دى بوفوار زميلة سارتر .

فقد فازت بالجائزة عام ١٩٥٤ عن روايتها « الماندرين » ـ أو اليوسفى ـ فبيعت مائتا ألف نسخة من الرواية فى أيام قليلة .

وقبل الجائزة كانت تقيم فى شقة مفروشة من حجرة واحدة فى حي شعبى واشترت سيارة بقرض من الناشر ، كما طلبت منه أن يمنحها ثلاثين جنيهاً كل أسبوع من حصيلة بيع روايتها لتعيش .

ولكن الرواية بعد الجائزة ـ جلبت لها إيراداً بلغ ٢٥ ألف جنيه فى نفس السنة .

* * *

وتحاط الجائزة بدعاية واسعة من التكهنات والتوقعات والدعاية المحسوبة من لجنة التحكيم ومن الناشرين أيضاً .

وهوجمت الجائزة من أكبر النقاد الفرنسيين .

قالوا أن مشاهير الكتاب لم يفوزوا « بالجونكور » أبداً . فلم يحصل عليها أندريه جيد أو فرنسوا مورياك أو سارتر أو كامو أو سانت اكسوبرى .

وقالوا إنها اشبه بورقة اليانصيب يلعب فيها الحظ ـ لا الأدب ـ الدور الأساسى !

ورغم هذا كله فإن الـذين يفوزون بالجائزة وبعض الذين يخسرون أيضاً يحققون شهرة ويتقدمون إلى الصفوف الأولى لأن الجائزة تعد فرصة لا تتكرر ، حتى أن البعض اطلقوا على أعضاء لجنة التحكيم لقباً جديداً وهو أكاديمية « جونكور » .

وإذا كانت الجائزة تعتبر شهادة تقدير لشباب المؤلفين ، فإن فرنسا كرمت الشقيقين بكل الطرق فى السنة التالية لانتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ .

وبمناسبة مرور نصف قرن على وفاة أدمون دى جونكور أقامت الحكومة الفرنسية معرضاً لأعمال الشقيقين فى متحف اللوفر الشهير . . لتبين العصر الذى عاشا فيه .

فى المعـرض شهـادة ميلاد الشقيقين وصورهما ومخطوطات كتبهما وكتب معاصريهما وبعض آثار الجميع . . عصا توكأ عليها هذا الأديب أو ذاك ، ومكتب جلس إليه ، أو مائدة تناول عليها طعامه ، والخطابات الخاصة للجميع ، والطبعات الأولى لكتبهم .

وفى المعرض أيضاً الخطب التى قيلت يوم وفاة الشقيقين ، وما قالوه عن أدباء العصر وفنانيه وصور أصدقائهم وأسرهم أيضاً .

ويستطيع المشاهد أن يتخيل ما يشاء وهو يرى هذا كله ولكنهم فى فرنسا يكررون هذا المعـرض فى المكتبـات العـامـة لإثـارة اهتـمام الجيل الجديد ، وبالذات فى سنة الشباب ، بكبار أدبائهم وفنانيهم .

* * *

وفى كل بلاد الدنيا توجد جوائز أدبية الهدف منها تشجيع الشباب على الكتابة . . والفن .

فى شركـات السينـما والمسرح والاسـطوانـات ودور النشر فى العـالم يوجـد « مدير للمواهب » مهمته التفتيش عن أصحاب المواهب الذين يغنون ويرقصون ويمثلون ويكتبون .

وتعتبر هذه الوظيفة أهم الوظائف فى هذه المنظمات لأن الرجل يبحث عن الموهوبين فى كل المجالات ، يشجعهم ، ينصحهم ، يأخذ بيدهم يوجههم ، يقنعهم ، يدلهم على الطريق السليم الذى يستفيدون منه ، ويفيدون منه المجتمع .

وقد حان الوقت لإيجاد هذا المنصب فى العالم العربى ، فى الفرق المسرحية ، فى الأفلام ، فى المؤسسات الأدبية ، فى الرياضة وفى كل المجالات .

ومدير المواهب لابد أن يكون رجلاً كبير القلب ، كبير النفس ، لا يحقد ، ولا يحسد . بل يتبنى أصحاب المواهب . يلمس الموهبة عن بعد مثل الخبراء النوويين وخبراء البترول وخبراء الأرصاد والباحثين عن الآثار !

مهمته أن يستشعر الموهبة يحس بها ، يلمسها ، يتحسسها ويساعد صاحبها بكل الطرق .

ومهمته إذا وجد أن صاحب الموهبة لا يعرف نفسه ، أو يخطىء فى الاستدلال على موهبته يدله عليها ويحسن توجيهه ويعطيه المساعدة المادية والأدبية .

« ولويزفيل » هى امدينة المسرح فى الولايات المتحدة لأنها تقيم فى خريف كل عام مهرجاناً دولياً للمسرح تشترك فيه الدول المختلفة .

يعلن اتحاد الممثلين فى المدينة سنوياً عن قبول المسرحيات الجديدة فتقدم إليه ٥٠٠٠ مسرحية فى المتوسط .

ويوجد ١٢ خبيراً يطالعون هذه المسرحيات جميعها ويختارون منها المسرحيات الفائزة .

وحتى لا ينفرد أحد الخبراء بالقرار فيحطم مستقبل كاتب ناشىء عندما يرى أن مسرحيته لا تصلح ، فإنهم يشترطون أن يطالع ثلاثة من الخبراء كل مسرحية أو أحد فصولها ، على الأقل ، حتى يمكن ضمان الحيدة والنزاهة .

وهناك شرط آخر يفرض على كتاب المسرح . إنهم يطلبون من الكتاب الناشئين أن يكون عدد أشخاص المسرحية محدوداً . ويصرون على أن تكون المشاهد بسيطة لا تتكلف مالاً .

والهدف فى كل الأحوال التوفير لمساعدة أكبر عدد من الكتاب وتقديم كل ما يمكن تقديمه من المسرحيات . إن الرواية الأولى للمؤلف الشاب لاتبيع ، فى أغلب الأحوال ، سوى ألفى نسخة ولابد من تشجيع أو دفعة قوية .

ومن هنا نشأت فى العالم فكرة الجوائز التى ترتكز على الشهرة كما هو الحال بالنسبة للجونكور ، أو تعتمد على المال كما يحدث فى بريطانيا وأمريكا فإن قيمة الجائزة للمؤلف

الشاب الذى يقل عمره عن ٣٥ عاماً تتراوح بين ١٥ ألف جنيه فى بريطانيا وهو الحد الأدنى لقيمة بعض الجوائز ، وتصل فى أمريكا إلى أكثر من ١٠٠ ألف دولار .

ومعظم الروايات الفائزة ، بما يحيط بها من دعاية ـ يعاد طبعها ـ وتتحول إلى أفلام سينمائية وتليفزيونية وأفلام فيديو وأحياناً مسرحيات . ولذلك فإن الجائزة تجعل الكاتب الشاب الموهوب يعبر المراحل الأولى من كفاحه فى سهولة ويسر .

وقيمة الجوائز تأتى من دور النشر والحكومة ومجالس الفنون والآداب ووزارات المعارف والثقافة والشباب ومن الولايات والمحافظات وأيضاً من كبار الكتاب وتبرعات الأفراد .

فى أمريكا تركت سيدة ثروتها ليستغل ريعها فى منح جائزة أدبية . ولم يكن أحد يعرف أن هذه السيدة تملك ثروة .

ولم يعرف أحد أن هذه السيدة حاولت أن تكون روائية وفشلت ورأت أن تجنب الشباب خيبة الأمل التى يصادفها الروائيون وهم يتعثرون فى محاولتهم لنشر إنتاجهم .

وسر شهرة نجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار وبعض كبار كتاب مصر يرجع إلى موهبتهم من ناحية وإلى الجوائز التى منحت لهم فى بداية مشوارهم الأدبى الطويل .

***

وقد نشرت مجموعة أحاديث للروائيين الفائزين بهذه الجوائز عن مصدر إلهامهم ووحيهم أو من أين جاءت أفكارهم والعقدة التى قامت عليها رواياتهم .

اعترف البعض بأن الرواية ماهى إلا قصة حياة الكاتب أضيفت إليها لمسات خيال .

ولكن اعترف آخرون بأنهم كتبوا عن بلاد لم يروها ، وأشخاص لم يقابلوهم فى حياتهم ، ولم يعرفوهم أبداً .

كاتب فى أمريكا جرت أحداث روايته فى معسكر لأسرى الحرب فى ألمانيا مع أن الكاتب لم ير ألمانيا فى حياته ، وإنما شاهدها فى لقطات تليفزيزنية محدودة . وهذا الكاتب ولد بعد الحرب فلم يسمع دوى قنبلة ، ولم يشاهد حطام مدينة . ولم يستقل طائرة حربية أو مدنية ! ومع ذلك فازت روايته لأنه أحسن الخيال من ناحية وقرأ ودرس وبحث فى تاريخ هذه الدول وجغرافيتها أيضاً .

والأمثلة كثيرة . .

وكلها تدور حول نقطة واحدة وهى أن الكاتب يتعلم كل شىء .

ويقول أحد الشعراء أنه كان يقرأ دليل التليفون ويعى الأسماء والأرقام وكأنها أبيات الشعر ويضع لها الأنغام والأوزان . فالشعر موهبة وهو علم أيضاً .

* * *

ولكن ازدحام المكتبات فى فرنسا قبل عيد الميلاد بالراغبات فى شراء كتب لتسلية أنفسهن والأزواج تبين أهمية الكتاب كرسول الحضارة .

الناس فى فرنسا ، وفى أوربا بصفة عامة ، يعتبرون الكتاب أفضل هدية فى العطلة الصيفية ، وفى المستشفيات ، وفى كل المناسبات .

أما نحن فى العالم العربى ـ فالهدايا التى نتبادلها إما زهور أو طعام . . والطعام هو الصنف الغالب من الهدايا .

إذا أرادنا أن نزور مريضاً لا يأكل نحمل إليه الحلوى أو الشيكولاتة .

وإذا دخلنا بيتاً لأول مرة فنوع الهدية ـ الحلوى أو الشيكولاتة ـ واحد لا يتغير ، ولا يتبدل .

وإذا أرادنا أن نكافىء طفلاً صغيراً يحبو على يديه وقدميه أو رغبنا فى تشجيعه وتحريضه على العمل فالحلوى هى الهدية والحافز .

والعالم كله يرى أن العلم سلاح للتقدم ولذلك فإن . . هدية الكتاب أفضل الهدايا .

إنها الحافز على التفكير ، وهى التى تشجع على العمل ، وترفع المستوى وتنمى القدرات والمواهب .

وإذا استطعنا أن نغرس فى نفوس الأجيال الشابة فكرة أن أجمل مافى الحياة هو الكتاب فإننا نحول التفكير الإنسانى فى بلادنا إلى اتجاه جديد .

والجوائز الأدبية هى التى تجعل الكتاب يروج ، وتؤدى إلى انتشار الرواية فالرواية تتراجع هذه الأيام ،وأكثر الكتب رواجاً فى الغرب عن التجميل والصحة والعقول الإليكترونية . ولكنهم يرون أن الرواية تطلق الخيال ، وتغرس القيم فى المجتمع . وقصة نجيب محفوظ الأولى التى فازت بجائزة وزارة المعارف كان عنوانها « كفاح طيبة » عن البطل المصرى أحمس الذى قاد جيش مصر وشعبها لطرد الهكسوس !

ولذلك يمكن أن تخصص جوائز للروايات التاريخية لنغرس فى نفوس الشباب من خلال أحداث تاريخية معينة قيما عليا للدفاع عن الوطن .

ولكن الأهم من هذا كله أن تكون الجوائز فى كل تجمع فى البلاد . . واحدة لطلاب المدارس الثانوية فى منطقة ، وطلاب الجامعات فى منطقة أخرى ،وهكذا،وأن تشمل نواحى الحياة المختلفة وعندما تقرأ الشعوب فإنها تنضج ، أو تسرع إلى النضج والنمو .

وقديماً قالوا: الإنسان حيوان اجتماعى ، ويجب أن يتميز الإنسان عن الحيوان بأنه مخلوق يقرأ . . وهو قارئ !

الكتاب الشعبى

قصد الشاب إلى الناشر الكبير وقال له :

ـ أريد إعادة طبع كتبك فهل توافق ؟

أجاب الناشر بالنفى ورد بصوت حاد :

ـ أنت موظف عندى فهل تريد أن تكون ناشراً « من الباطن » ؟

قال الشاب :

ـ لقد استقلت .

وأضاف :

ـ الآن !

فقال الناشر :

ـ هذا سبب يدعونى ، قبل غيره ، إلى الرفض .

قال الشاب :

ـ ولكنى لن أنافسك . إن متوسط ثمن الكتاب الذى تنشره حوالى ٤٥ قرشاً . ولكنى سأبيعه بستة قروش

قال الناشر وهو يضحك

ـ ستخسر رأس مالك فى أيام ، وسأسبقك إلى الإفلاس أو أتبعك . ستغرق السوق بكتبى ، وبسعر تافه .

قال الشاب

ـ سأصدر طبعة شعبية بورق رخيص . وسيكون الثمن حافزاً للناس على الشراء .

وسيدفعهم ذلك إلى قراءة الكتاب والاستغناء عنه . سأبيعه فى مواقف الأتوبيس ، ومحطات القطارات وسيوزع كالمجلات مع باعة الصحف . ويمكن للإنسان بعد قراءته ، أن يتركه فى أى مكان أو يلقيه فى سلة القمامة أو يدع الآخرين ينتفعون به .

سيكون كتاباً يضعه الناس فى جيوبهم .

قال الناشر ساخراً :

ـ الناس يابنى تحب الاحتفاظ بالكتب فى مكتبة البيت . إنه جزء من زينة المكان .

قال الشاب :

ـ أريدهم أن يطالعوه فحسب . لا أريد تأثيث ، أو تأسيس ، مكتبات فى البيوت ، بل فى العقول !

قال الناشر :

ـ أعط نفسك فترة من الهدوء لإعادة التفكير . وسأوافق على سحب استقالتك رغم أنى لم أعد أثق بك كثيراً .

قال الشاب :

ـ سأنفذ مشروعى .

قال الناشر فى غضب :

ـ ستجوع وستندم ولن أتسامح معك أبداً .

ولكن الشاب « ألين لين » مضى فى طريقه من ناشر إلى آخر حتى عثر على الرجل المناسب .

قال له العجوز الجرىء :

ـ وكم ستدفع لى ثمناً لحق نشر كل كتاب ؟

قال الشاب :

ـ لن أدفع شيئاً فإن العقود مع المؤلفين لا تتضمن نصاً بأحقية المؤلف فى شىء من ثمن النسخة المباعة فى الطبعات الشعبية لأنه لا توجد طبعات شعبية حتى الآن .

قال العجوز :

ـ بل أريد نفس النسبة التى ندفعها نحن للمؤلفين فمن حقى أن أربح .

وبدأت المساومة التى انتهت بموافقة الشاب على أن يدفع للناشر أربعين فى المائة من القرش عن كل نسخة يطبعها سواء بيعت أم رفضها القراء .

وانتقل النقاش إلى العربون .

قال العجوز :

ـ كم ستدفع ثمناً لكل كتاب .

قال الشاب :

ـ سأدفع ٢٥ جنيهاً كعربون عن كل كتاب أعيد نشره .

قال العجوز :

ـ وكم كتاباً ستشترى حقوق نشرها .

قال الشاب :

ـ عشرون كتاباً .

قال العجوز :

ـ أريد ٤٠ جنيهاً مقدماً أى ٨٠٠ جنيه فما رأيك ؟

قدمها الشاب راضياً .

وهكــذا ظهـر الكتـاب الشعبى لأول مرة فى إنجلترا عام ١٩٣٥ باسم سلسلة ـ بنجوين ـ ومعناها البطريق .

وهوجم المشروع من الناشرين والمؤلفين والصحف والقراء .

وعاش الناس فى هزة ستة شهور كاملة أحسوا خلالها بأنهم يعيشون فترة تطور فكرى ضخم وأنهم يطالعون الكتب الغالية ـ بمقاييس ذلك الزمان ـ بثمن بخس !

وبدأ النجاح . .

فى السنة الأولى باع مليون نسخة .

وشهـدت فى لنـدن الاحتفـالات التى جرت بمناسبة مرور خمسين سنة على هذا المشروع الذى سجلت مبيعاته من الكتب بليون نسخة .

وانتقل المشروع من انجلترا إلى كندا ، والولايات المتحدة ، وأستراليا وأصبحت لدار النشر فروع فى هذه الدول تحمل نفس الاسم .

وقررت الهند بمناسبة الاحتفالات أن تنشىء فرعاً لدار النشر يخصص لكتب المؤلفين الهنود !

وفى كل الـدول والقـارات قيل أن المشروع تمهيد للجـامعـة التليفزيونية المفتوحة

لأنه يعلم ويثقف الذين يحملون درجات جامعية والذين يعرفون القراءة والكتابة فحسب .

* * *

وإذا كان ثمن الكتاب فى البداية ، قبل نصف قرن ، يعادل ستة قروش فإن هذا المبلغ يعادل ستين قرشاً هذه الأيام .

وإذا كان ثمن الكتاب الأصلى ٤٥ قرشاً عام ١٩٣٥ فإن ذلك يعادل ٩ جنيهات فى الوقت الحاضر .

لكن الكتاب الشعبى لا يباع الآن بستين قرشاً بل يتراوح الثمن بين جنيهين ونصف وأربعة جنيهات أى أن ثمن الكتاب الشعبى أصبح يعادل ثلث أو أقل من نصف ثمن الكتاب الغالى بعد أن كان ثمن الكتاب ثمانية أمثال ثمن الكتاب الشعبى . . والأسباب لذلك كثيرة أهمها ارتفاع أسعار الورق وأجور العمال العالية .

ولكن الكتاب الشعبى حقق لدار النشر أرباحاً خيالية .

لقد استطاعت أن تنشىء خمس دور للنشر ونشرت كتباً غالية الثمن تصدرها مع الكتاب الشعبى فى نفس الوقت .

ويباع من الكتاب الشعبى سنوياً ما قيمته ٩٠ مليوناً من الجنيهات .

وتصدر الدار ١٢٠٠ كتاب كل عام .

أما الأرباح فوصلت إلى ١١ مليون جنيه فى السنة .

وكان أكبر دليل على النجاح أن دار النشر رأت أن تتحول إلى شركة مساهمة فعرضت أسهمها للاكتتاب العام فغطى المساهمون ثمن الأسهم ١٥٠ مرة . . أى ١٥٠ ضعفاً للثمن المطلوب !

وأصبح موضوع الكتاب يعرف من عنوانه . .

اللون البرتقالى للروايات العاطفية . .

واللون الأحمر للأدب القديم . . الكلاسيكى .

واللون الأزرق الفاتح للكتب الحديثة الجادة .

وأخـذت دار النشر تصدر كتباً شعبية لأول مرة . فلا تعيد طبع الكتب القديمة الغالية بل تقول للمؤلفين :

- أصدروا كتبكم فى طبعة شعبية تربحون أكثر .

ودفعت مقدمات - عرابين - للمؤلفين وصلت إلى نصف مليون جنيه للكاتب إيرفنج دالاس عن إحدى رواياته .

وقدمت كتابين فى كل عام للكتاب الجدد تضم آراءهم وأفكارهم وقصصهم القصيرة وأشعارهم .

ولم تقتصر على المؤلفين فى بريطانيا وكندا والولايات المتحدة واستراليا بل ترجمت مؤلفات الكتاب الجدد فى كل مكان .

واستطاعت دار نشر الكتاب الشعبى أن تغير عملية النشر تماماً فى الدول الأربعة .

كانت مبيعات الصحف والمجلات تزيد كثيراً عن الكتب سنوياً .

الآن أصبحت مبيعات الكتاب الشعبى تزيد بنسبة ٢٤٪ كل ١٠ سنوات بينما تزيد الصحف خلال تلك المدة بنسبة ١٧٪ والمجلات ١٣٪ .

وأعطت للمؤلفين نسبة من حقوق التأليف عن إعادة طبع كتبهم وبذلك ربح المؤلفون والقراء .

وكان أكبر دليل على النجاح أن هذه الدار اشترت أخيراً دار النشر التى رفضت المشروع فى البداية بـ ١١ مليون جنيه !

وهى لا تهتم بالكم أو الكيف بل تريد الاثنين معاً .

نشرت ٤٦ كتاباً عن مبانى إنجلترا التاريخية .

وباعت مليون نسخة من كتب برنارد شو ومثلها من هـ . ج . ويلز .

* * *

ولكن هذه الدار خلال نصف قرن لم تصدر كتاباً واحداً لمؤلفين من المسلمين والعرب .

لم تترجم كتاباً لأحد منهم ولم يقدم إليها الناشرون العرب والمسلمون ووزارات الثقافة والإعلام فى العالم العربى والإسلامى كتاباً واحداً ينشرونه ليوزع على نطاق واسع وبذلك ينتشر آدبنا وأفكارنا ويكون هذا مقدمة تسمح لفكرنا بالحصول على جائزة نوبل . . فى سنة ما .

ومن ناحية أخرى فلا توجد دار نشر فى عالمنا العربى والإسلامى تهتم بمراجعة قوائم هذه الكتب الشعبية وتختار ما يناسبنا لترجمته فى وقت نحتاج فيه إلى اتساع فكر الأجيال الجديدة وتعميق مداركها وزيادة معلوماتها وانفتاحها على العالم .

وإذا كانت هذه الدار تربح كثيراً من كتب شعبية رغم زيادة التكاليف هناك عنها فى بلادنا فإن ذلك يدعونا إلى إصدار سلاسل من الكتب الشعبية من مؤلفين على مستوى العالم العربى كله .

وفى وقت من الأوقات ارتفع فى مصر شعار يقول :

ـ كتاب كل ٦ ساعات .

ولكن فشل المشروع بعد ذلك فقد قامت به الحكومة وحرمت المؤلفين أجورهم وحقوقهم المجزية ومع زيادة عدد الكتب هبط مستواها وتركز الاهتمام حول الكم لا الكيف . وكان من الطبيعى أن تزداد خسارة الحكومة والأفراد ، وأن تنقل الكتب من المطابع إلى المخازن ولا تمر على الموزعين ولا يراها أو يطالها القراء !

ومشروع الكتاب الشعبى يحتاج إلى دراسة جادة وهيئة تعاونية ، أو مساهمة يشترك فى رأس مالها الكتاب والدارسون وتكون أسعار الأسهم قليلة فى متناول الجميع .

وفى أستراليا وسنغافورة لا يزيد ثمن السهم فى الشركات المساهمة عن جنيه واحد أو دولار واحد حتى تتسع قاعدة المساهمين الذين يراقبون المشروع ويفيدون منه .

والكتاب الشعبى هو الوسيلة العلمية لنشر الثقافة . . وما أظن غيره يجدى . فإن مبيعات الكتب ، فى العالم كله لم تعد تزيد بنسبة زيادة عدد السكان ، أو عدد القراء .

* * *

وقد سمعت دوياً ضخماً فى معرض الكتاب الأخير بمدينة فرانكفورت الألمانية .

أسرعت إلى مصدر الصوت فقد ظننت أن قنبلة قد انفجرت فى أرض المعرض لتحطم الكتب وتقتل الناشرين !

وبالفعل وجدت قنبلة ولكن من نوع لا يخطر للإنسان على بال .

آلة ضخمة لها قوة تعادل ٣٠ طناً تنزل بكل قوتها على صندوق من الخشب والبلاستيك يبدو مثل جهاز التليفزيون لتحطمه قطعاً صغيرة .

ويزداد الضغط ، ولكن الأجزاء لا تتناثر بل تلتصق وتتجمع بطريقة خاصة لتصير على شكل مكعب يقوم أحد الفنانين بطلائه فتراه جميلاً أنيقاً جذاباً .

وتتساءل :

ـ ما الهدف من هذا الدوى ؟

ويقول لك المشرف على هذا الجناح :

ـ نريد استدعاء كل الحاضرين .

قلت :

ـ ولكن أغلبهم من ناشرى الكتب ٨٠ ألفاً من ٩٠ دولة .

قال :

ـ نريد أن تعرفوا الخطر الذى يهدد الفكر وصناعة الكتاب .

وأضاف :

ـ التليفزيون يقضى على الكتاب . الإحصاءات فى العالم كله تؤكد أن الساعات التى كانت تضيع فى القراءة أصبح أغلبها يوجه لمشاهدة البرامج . والتليفزيزن يميل إلى الترفيه . . لا إلى المعرفة . هذا الجناح يطلق عليه قسم الابتكار والإلهام .

إننا ندعو لتحطيم التليفزيون ونبين أن قطع هذا الصندوق الصغير تتحول إلى عمل فنى إذا أضاف إليه الفنان ألوانه وريشته .

* * *

وفى العـالم الآن اتجاه قوى لتقريب الكتب إلى الناس بالتوسع فى إنشاء المكتبات العامة فى كل المدن والقرى حتى يجد القارىء كتاباً يطالعه بالمجان وخاصة بعد أن زاد تأثير التليفزيون بظهور الفيديو .

قالوا لى فى السويد أنه أصبح لديهم مكتبة عامة لكل ٢٠ ألف نسمة .

وفى كل مكتبة ٧٣ ألف كتاب فى المتوسط .

ويستطيع الإنسان أن يتخيل مدينة صغيرة تضم ٢٠ ألفاً من السكان ويمكن لكل منهم أن يستعير إذا رغب ، أو كانت لديه القدرة ـ لاستعارة هذه الكتب وإعادتها .

وفى الدانيمرك يوجد بكل مكتبة عامة ١٣٠ ألف كتاب .

وفى مكتبات إيطاليا كتاب لكل ٣٠ فرداً .

وفى الولايات المتحدةمكتبة عامة لكل ٢٥ ألف نسمة .

وتعتبر أيرلندا أكبر دولة تشجع القراءة المجانية إذ توجد بها ٣٠ مكتبة فى كل منها ١٦٥ ألفاً من الكتب .

وفى إنجلترا تنتشر المكتبات المتنقلة التى تستعير كتبها من المكتبات المركزية فى المدن الكبرى .

والإحصاءات لا تنتهى .

وهـدف هذه الدول مقاومة التليفزيون والفيديو ، لا بالتشريعات فحسب ، وإنما بتشجيع وصول الكتاب المجانى إلى قارىء يتلهف على القراءة وتمنعه إمكاناته المالية من تحقيق المتعة والفائدة .

وتشجع الدولة الأغنياء على ذلك فتخصم كل التبرعات لإنشاء المكتبات من الأرباح وتعفى أصحابها من الضرائب .

* * *

وفى واشنطن وجدتهم يمضون خطوة أبعد .

فى مكتبة الكونجرس تم الاستغناء عن البطاقات أو « الكروت » التى تقلبها بين يديك لتعرف منها مكان الكتاب الذى تريد الاطلاع عليه .

هناك عقل أليكترونى يتصل بشاشة تليفزيون . فإذا أشرت إلى اسم المؤلف ، أو اسم الكتاب فإنك ترى رقم الكتاب . وبذلك يستطيع أحد أمناء المكتبة إحضاره إليك فى دقائق .

وإذا أشرت إلى موضوع معين ، كالسينما ، تتابع أمامك على الشاشة أسماء ألوف الكتب عن السينما .

ورغم هذه التيسيرات فإن كثيرين احتجوا على المكتبة قائلين : أنهم كانوا يستمتعون بقراءة البطاقات فقد تدل على كتاب آخر يفضلون قراءته .

ولكن المسئولين عن المكتبة لم يهتموا بهذه الاعتراضات بل قرروا استخدام مزيد من الوسائل الإليكترونية للتيسير على الناس .

ومنطقهم فى ذلك يقول :

ـ ما دام التليفزيون ، وهو جهاز أليكترونى قضى ، أو يكاد يقضى ، على الكتب فمن الضرورى مقاومة التليفزيون بالوسائل الأليكترونية أيضاً .

وهم يعدون الآن طريقة جديدة لنقل الكتاب ، وكل كتاب ، إلى البيوت دون أن ينتقل القارىء من حجرة الجلوس أو حجرة النوم .

وبعد ١٥ سنة فقط ، أى فى عام ٢٠٠٠ يستطيع الإنسان من أى مكان فى الولايات المتحدة أن يتصل بالمكتبة ليسأل عن موضوع معين فيرى على شاشة فيديو كل ما فى الكتب عن هذا الموضوع .

وحجم الشاشة صغير مثل الآلة الحاسبة .

وبهذه الطريقة يستطيع الباحث الاستغناء عن مكتبته ، وعن كتبه ما دامت المراجع كلها تتحرك أليكترونيا إلى البيت .

وهم يقولون أن العقل الإنسانى فى حاجة إلى التغذية المستمرة فى كل مكان .

ومادام الإنسان لا يستطيع الانتقال إلى المكتبة فإن المكتبة ، وكتبها جميعاً ، لابد أن تنتقل إلى القارىء .

* * *

ولكن تطور المكتبات لم يتوقف عند هذا الحد .

فى المكتبة العامة فى مدينة دينفر الأمريكية نجحوا فى تحويل المكتبة إلى جامعة شعبية .

ولم تقم المكتبة بهذه العملية وحدها بل تعاونت معها ٣ جامعات ، و٤ وكالات علمية وكثير من الأغنياء الذين تبرعوا بالمال .

إن المكتبة أصبحت تساعد الذين يرغبون فى الدراسة الجامعية أو يريدون الحصول على الدبلومات العليا ودرجات الماجستير والدكتوراه أيضاً .

أقاموا فى المكتبة قسماً اسمه « اعتمد على نفسك » ،زود بمراجع فى مختلف العلوم والفنون وزود بأفلام سينمائية وأفلام فيديو .

ويكفى أن يصل الطالب إلى القسم ليسأل عن الطريقة التى يدرس بها موضوعاً معيناً فيقدم له الأمين أسماء المراجع المطلوبة ، ويطلب من الجامعات هذه المراجع إذا لم تكن متوفرة محلياً .

وإذا فكر الطالب فى الحصول على درجة جامعية دون أن يكون ملتحقاً بأية جامعة فإن أمين المكتبة يقدم له أسماء الجامعات التى تسمح له بالانتساب ، أو تسمح له بأن يدرس فيها سنوات أقل ، أو شهورا أقل أو ساعات محدودة فى كل عام .

وإذا أراد الطالب أسماء أساتذة يعطون دروسا خصوصية فإن المكتبة تتكفل بذلك ، أى تتصل بالأستاذ المختص وتعرف مواعيده ، وتحدد مكان وزمان الدروس الخصوصية .

وتشترى المكتبة لكل طالب ما يريد من كتب .

باختصار أصبحت المكتبة العامة فى مدينة دينفر مكتباً « لمسجل » الجامعة .

وأصبح أمين المكتبة مرشداً وموجهاً ومعاوناً للطالب يساعده على اختيار العلم الذى يدرسه ، ويختار له الجامعة التى تمنحه الدرجة الجامعية ويشترى له الكتب ولكنه لايعطيها مجاناً بل يعيرها للطالب فترات قد تطول .

وبهذه الطريقة أصبحت المكتبة جامعة شعبية تخفف عن الجامعات أعباءها وتقلل من عدد الطلبة وتوفر نفقات إنشاء مزيد من الكليات الجامعية .

وقد يقال أن المكتبة ـ فى هذه الحالة ـ ستحتاج إلى اعتمادات ضخمة . ولكن الحقيقة أن هذه العملية تتم بنفقات محدودة ، لأن الطلاب يتعاونون فيما بينهم .

وكل مهمة أمين المكتبة أن يأتى بالمعلومات والكتب للطلاب ، وهى مهمة يمكن أن تقوم بها سكرتيرة ، أو سكرتير ، يحسن الاتصال بالجامعات والأساتذة . ويعرف عن طريق العقول الأليكترونية اسماء المراجع .

ومن هنا أطلق على هذا النظام اسم « اعتمد على نفسك » .

ونظام الانتساب للجامعات يقوم على هذا الشعار، وهو الاعتماد على النفس تماماً بالمراسلات مع الجامعات . وهو ما تقوم به مكتبة دينفر فى الوقت الحاضر .

وقد يظن البعض أن هذه الدراسات قاصرة على العلوم النظرية ، ولكن مع انتشار الفيديو أصبح ممكناً تدريس الهندسة والعلوم والطب بالأفلام فى المكتبات ، وقضاء فترات عملية قصيرة ومحدودة فى الكليات للحصول على التجربة العملية .

* * *

ويبقى سؤال واحد :

ـ هل يمكن تنفيذ ذلك فى العالم العربى ؟ .

والجواب بالإيجاب بتجربة هذ النوع من المكتبات فى العواصم والتوسع فى التجربة بعد ذلك فى باقى المدن .

والنجـاح مضمـون بشرط واحد وهو أن يؤمن أمين المكتبة بأن له رسالة لاتتوقف عند حد إعارة الكتب للقراء بل تقديم المعونة والمشورة والمساعدة ليتحول أمين المكتبة بالتدريج إلى أستاذ فى هذه الجامعة الشعبية الجديدة !

كتب . . لها العجب

بدأ عمال الشركة يتهامسون . .

قال بعضهم :

ـ هذا ليس أستاذاً جامعياً فلا تبدو عليه ملامح الأساتذة .

وقال البعض الآخر :

ـ لابد أن إدارة الشركة غرسته بيننا ليعرف أخبارنا ونوايانا ، واتجاهاتنا .

وقال آخرون :

ـ فتش عن الشرطة :

واتفق الجميع على أن أستاذ الجامعة الذى جاء يعمل فى الشركة ليؤلف رواية تجرى أحداثها فى أوساط العمال ، دسيسة عليهم ، فأخذ الجميع يعاملونه بحذر ، يراقبون تصرفاته ، ويتحدونه بلا مبرر ، ويوجهون إليه ألفاظاً فيها ما فيها من تلميحات لا تسر !

وبعد شهور ظهرت رواية « الحياة شبه الآلية » تصف رتابة الحياة فى المصانع بصفة عامة من خلال قصة أبطالها من الجنسين ، من العمال ، فأدرك الجميع أن الشركة لم تغرس شرطياً بينهم ولم تحاول الوصول إلى خبيئة نفوسهم بل إن أستاذاً جامعياً رأى أن يجدد ويبتكر فطلب من الشركة أن تسمح له بالعمل فى مصنعها حتى تكون الرواية شديدة الواقعية .

ومن قبل تنكر الصحفيون والصحفيات فى ملابس العمال والفلاحين وأرباب المهن المختلفة ليقدموا تحقيقات مثيرة . ولكن فى الولايات المتحدة رأى أساتذة الجامعات ألا يكتبوا عن أحداث لا يعيشونها ولا يعرفون شيئاً عنها ، ومن هنا انتشروا فى المصانع ليحققوا ميزة أخرى وهى أن يزداد انتشار كتبهم بين العمال الذين سيسعون لشراء روايات تتحدث عنهم .

ورأت الجامعات من ناحيتها التوسع فى هذا الاتجاه الجديد فقررت بعض الكليات تكليف الباحثين الاجتماعيين وأصحاب الميول والمواهب الأدبية بالعمل فى المصانع حتى تأخذ كتاباتهم لوناً جديداً .

ولم يكن الهدف تقديم تقارير اجتماعية عن أحوال العمال أو النقص والتقدم فى بعض المصانع، بل كان الهدف الوحيد أن ينتقل الأدب الى مكان جديد ومناخ مختلف فلا يصف الحياة فى الفنادق والحفلات والمجتمعات الصاخبة والطائرات والسفن ، بل يقدم مجتمع العاملين بمشاكله التى لايتعرض لها الروائيون الا فى أحوال نادرة ، وبطريقة خاطئة أغلب الأحيان .

ولم يقف العمال صامتين أمام هذا التغيير بل رأوا فى أساتذة الجامعات وطلابها والمتقدمين للدراسات العليا دخلاء على محيطهم فأخذ العمال أنفسهم يكتبون .

وبدأت تظهر فى الولايات المتحدة ـ كما رأيت روايات غريبة : « دورية المساء » ، « الجلود المدبوغة فى سان فرانسسكو » وهى أيضا قصة . و . . إلخ .

وتطبع هذه الروايات فى كتب صغيرة الحجم أشبه بكتب الجيب ليضعها العمال فى جيوبهم ويطالعوها فى ساعات الفراغ أو فى رحلة الذهاب والاياب بين العمل والبيت .

ولم تجذب هذه الكتب اهتمام النقاد الأدبيين إلا أخيرا لأن المناخ الذى تمضى فيه أحداث هذه الروايات لاتمثل موضوعا أدبيا ساخنا يثير الجدل وحماس النقاد .

ولكن المجلات العادية ، والأدبية ، بدأت تهتم بالكتاب الجدد مثل هامبر وثيريولت وسنجل جاك وغيرهم فعهدت إليهم بكتابة أعمدة أدبية .

ولم يترك هؤلاء العمال البدل الزرقاء التى يرتدونها ، ولم يغيروا طبيعة عملهم بل أعلنوا أن الكتابة بالنسبة لهم هواية ، أما دق المسامير ودبغ الجلود واصلاح الماكينات فهو المصدر الاساسى لرزقهم حتى الآن .

ومن المتوقع إذا نجح هؤلاء العمال كروائيين أن يتركوا العمل فى المصانع وأن يتفرغوا للهواية ، أو الحرفة الأدبية باعتبار أن دخولهم من الأدب ستسمح لهم بذلك . ولكن ستبقى التجارب التى اكتسبوها من العمل هى الزاد الاساسى والرصيد الكبير الذى يمدهم بالأفكار ، والتعبير عن هذه الاجواء لفترة طويلة .

وقد حدثت تجربة مماثلة فى فرنسا خلال القرن الماضى ، ولكنها كانت تجربة صحفية فقد أسس العمال شركة لاصدار جريدة اسمها « الاتلييه » عاشت عشر سنوات ثم ماتت .

كان كل العاملين فى الصحيفة ، الكاتب والصحفى والادارى ، من العمال .

ومع مرور الوقت أصبح هؤلاء كتابا متفرغين ففقدت الصحيفة ضميرها العمالى حتى أسلمت الروح .

والفارق بين التجربة الفرنسية والامريكية أن التجربة الامريكية أدبية تماما تسعى الى تغيير المناخ الذى تدور فيه الأحداث . فقد وجدوا أن أبطال الروايات لايتغيرون أبدا . هم شبان عابثون ، ومغامرون ومقامرون وجواسيس ولصوص ، . ولا يمكن أن يمثل هؤلاء بلدا ومجتمعا أغلب من فيه فلاحون وعمال ، من حقهم التعبير عن طموحاتهم وآمالهم لابمقال ، بل برواية .

وقيل أنه ليس شرطاً لتصبح الرواية مثيرة أن يكون الأبطال على درجة كبيرة من الثراء ، وأن يعيشوا حياة حافلة بالجريمة يطاردهم رجال الشرطة وتنتظرهم السجون ، أو أن يكونوا فقراء أشبه ببؤساء كاتب فرنسا الشهير « فيكتور هيجو » ، بل يمكن أن تنشأ الإثارة من خلال حياة مرهقة حافلة بالعمل الشاق وقطع غيار المصانع ومطاردة رؤساء الورديات ودقائق قليلة من الفراغ أثناء تناول طعام الغذاء .

ويمكن أن تنبع الإثارة لا من حياة المكاتب والمصالح والوزارات والطبقة العليا بل من بساطة الحياة فتعكس الرواية صورة طبيعية لأغلب الناس.

ولقد أدت هذه الظاهرة الجديدة إلى صدور مجلات عديدة فى الشركات الأمريكية الصناعية الكبرى . لاتحفل بنشر صور المدير ورئيس مجلس الإدارة وأخبار الترقيات والعلاوات والجزاءات وأفتتاح أقسام جديدة بل إن هذه المجلات لاتنشر إلا الإنتاج الأدبى للعاملين وبالذات الروايات .

وتلتقط دور النشر المتفوقين من أصحاب المواهب فتنشر رواياتهم التى لم يرتفع رقم مبيعاتها حتى الآن عن ثمانية آلاف نسخة وهو رقم محدود وضئيل للغاية بالمقاييس الامريكية ، ولكنهم يرون أنه بداية مشجعة .

ويرجع السبب فى هذا الاتجاه الجديد إلى أمرين : الأول الملل الذى أحس به

القارىء وفطن اليه الناشرون من روايات تكاد تكون متشابهة ولاتغيير فيها إلا بالنسبة الاسماء . . على الأغلب .

أما العامل الثانى فهو أن الناشرين يبحثون عن المؤلف الناجح ويشترون رواياته ويدفعون ثمنا لها أرقاما خيالية .

والمؤلف فى هذه الحالة يخرج برواياته بعيدا عن المجتمع الامريكى ، وعن الولايات المتحدة كلها . وأبطاله فى بعض الاحيان أمريكيون ، ولكنهم يعيشون خارج أمريكا . وفى أحيان أخرى أبطاله ليسوا أمريكيين بل أجانب .

●●●

وهناك ثلاثة من الروائيين الامريكيين يحصلون الآن على ثلاثة ملايين دولار كعربون قبل نشر رواياتهم ، بل قبل تأليفها أيضا .

من هؤلاء جوديث كرانتز وأشهر رواياتها « مسز ديزى» عن ابنة رجل روسى أبيض وبارونة . . ولها توأم مشوهة أخفتها الاسرة بعيدا فى مستشفى . ولها رواية اخرى اسمها « بلا مبادىء » يتضح مضمونها من عنوانها .

ومن الكتّاب اللامعين أيضاً أدموند موريس وجيمس كلافيل .

وأشهر الثلاثة ، هذه الأيام ، جيمس كلافيل الذى ألف أربعة روايات فقط تدور أحداثها فى الصين واليابان وهونج كونج .

وروايته عن اليابان واسمها « شوجان » أنتجت كحلقات تليفزيونية فى كل من اليابان والولايات المتحدة .

وقد ظلت تتصدر قائمة أكثر الكتب توزيعا مدة ٣٢ أسبوعا متتالية عندما صدرت عام ١٩٧٥ وقد بيع من طبعتها الشعبية ثلاثة ملايين و٥٠٠ ألف نسخة ولكنها لم تصل الى الرقم الذى بلغته رواية « ذهب مع الريح » التى باعت ستة ملايين نسخة منذ صدرت قبل نصف قرن .

وعندما أصدر كلافيل روايته « بيت نبيل » طبع منها ربع مليون نسخة قبل التحقق من النجاح أو الفشل . وقد اعتبر صدور الطبعة الأولى بهذا الرقم القياسى حدثا أدبيا عالميا .

وعنـــدمـا أعلن جيمس كافيل أنـه انتهى من تأليف روايتـه الجـديدة واسمهـا « الـزوبعـة » وأن احداثها تجرى فى ايران . وقال أنه لن يبيع حقوق التأليف لناشره التقليدى بل سيبيعها فى مزاد لمن يدفع أعلى الأسعار .

حاول النـاشرون الابتعـاد عن هذا المـزاد ولكن الـربـح الكبير المتوقع أغراهم بالحضور فجاءوا ليسمعوا شرطا هاما وهو أن حقوق النشر ستكون لمدة خمسة عشرة عاما فحسب .

إن المؤلف رفض أن يبيع حقوقه وحقوق ورثته مدى الحياة .

وكانت نتيجة المزاد ارتفاع العربون إلى خمسة ملايين دولار وهو رقم تاريخى . وقد حصل عليه عن صدور الرواية فى أمريكا وحدها لافى أوربا .

وفى بريطانيا نجحت روايات جوفـرى أرشر الذى اختير أخيرا نائبا لرئيس حزب المحافظين واستقال بعد فضيحة مدوية .

ومعظم روايته تدور حول السياسة وأسرارها ولعبتها ومؤامرتها التى ترفع البطل الى القمة أو تهوى به الى الحضيض .

ومن هنا فكر بعض هواة الأدب ومحترفيه فى أن يكتبوا عن مجتمع العمال لأن هؤلاء المؤلفين لايعرفون السفر والرحلات ، ولم يمارسوها كما أنهم لم يطالعوا كثيرا عن العالم الخارجى ويجهلونه . ووجدوا فى مناخ المصانع ودخانها مجالا أقرب وقد يكون أرحب .

ورأي العمال فى العلماء والطلاب القادمين منافسين يحجبون عنهم فرصا قد تكون مؤكدة .

وعندما اتجه العلماء والسياسيون إلى التأليف نشأ نوع جديد من الكتاب اسمهم « كتاب الظل » .

وكتّاب الظل فى العالم الغربى هم الذين يعيدون كتابة مؤلفات الزعماء والسياسيين ونجوم السينما الذين لايتقنون فن التأليف ولا يحسنون اللغة وقد لايعرفون قواعدها أيضا .

وكتّاب الظل فى معظم الأحيان يعيدون تاريخ حياة المشاهير ولكنهم الآن يعيدون كتابة روايات العمال .

وكل كاتب له طريقته وأسلوبه فى البحث عن موضوع الكتابة .

ورأى اثنان من أعضاء مجلس الشيوخ الامريكى أن أحدا من الناخبين لايطالع تقاريرهم فقررا تحويل كل أعمالهم إلى روايات .

بدأ « الشيخان » يلتقطان من الاجتماعات المتتالية كل فكرة مثيرة ويسجلانها على الورق فأصبحت أمامهما مجموعة أحداث رأيا أن ينسجا حولها رواية اسمها « الرجل المزدوج » أصبحت من أشهر الروايات المثيرة فى الولايات المتحدة .

بطل الرواية عضو مجلس شيوخ أسندت اليه رئاسة مجموعة عمل تتولى التحقيق فى محاولة اغتيال وزير خارجية أمريكا .

ويتوصل التحقيق الى مؤامرة بطلها ضابط فى المخابرات السوفييتى يقوم بتهريب المخدرات الى الولايات المتحدة دون الحصول على ترخيص بذلك من رؤسائه فى موسكو .

ويكشف التحقيق عن وجود جاسوس يعمل لحساب السوفييت فى أعلى المناصب الأمريكية .

ويكشف التحقيق أيضا عن مؤامرة أمريكية يشترك فيها جهاز المخابرات الامريكية مع عصابة المافيا لأغتيال الزعيم الكوبى فيدل كاسترو .

ومع كل صفحة تطويها من الكتاب تجد فضيحة وراء فضيحة ، عن قيام صلة هذه العصابة واغتيال الرئيس الامريكى الراحل جون كيندى عام ١٩٦٣ .

والرواية تقوم على حقائق بسيطة محدودة من عمليات المخابرات الأمريكية أما الباقى ، أو الجزء الأكبر من الرواية ، فمن خيال الكاتبين .

سئل الكاتبان :

ـ ما علاقة هذه الرواية بعمل مجلس الشيوخ الامريكى أو رغبتكما فى توعية الناس .

قالا :

ـ نريد أن يعرف الناس أن الجواسيس يحيطون بهم من كل جانب ، ويدبرون المؤمرات ويجب أن ينتبه الناس الى مايدور حولهم فاذا وجدوا ما يثير الشكوك تابعوا الأمر بعناية .

وأضافا :

- عقدة الرواية خيالية بالطبع ولكن فيها تجارب كثيرة حقيقية وجدناها فى أعمال المخابرات .

●●●

ووجد كاتب أمريكى آخر أن أكثر الكتب رواجا الآن هى التى تتحدث عن الرجيم ، وتخفيض الوزن والسعر الحرارى الذى يوجد فى كل صنف من الوان الطعام . كما توجد فى أوربا والولايات المتحدة الآن أكثر من مائتى مجلة تتكلم عن « التخسيس » ، وعشرات الحبوب التى تجعل الإنسان يفقد الرغبة فى الطعام بالاضافة إلى المصحات التى تعالج الناس من الوزن الاضافى الزائد عن الحد .

رأى ريتشارد باكمان ذلك فألف رواية اسمها « الأرفع » أى الرجل الرفيع . . يقصد بذلك الأقل وزنا ، الأرفع مقاما .

فى هذه الرواية نجد البطل محاميا ناجحا فى إحدى الولايات . . ولكنه رجل بدين للغاية يحاول عبثا أن يتبع نظاما غذائيا معينا لسلامة قلبه ومعدته دون جدوى فإن شهيته للطعام مفتوحة دائما وهو يريد مزيدا منه فى كل وجبة ، بل بين الوجبات أيضا .

ويقوم المحامى برحلة بين الولايات فى السيارة مع زوجته .

والرحلة كلها متعة . وقبل الوصول إلى المحطة النهائية تداعبه زوجته فيضحك .

ولكن الضحك يجعله غافلاً عن الطريق فتنحرف سيارته ليصدم عجوزاً غجرية فيقتلها فورا .

ويجتمع الناس ويستدعون رجل الشرطة الذى يقوده وزوجته الى مركز البوليس وعندما يعرف المحقق اسم المحامى الشهير يترفق به . ويزيف الأوراق ، ويغير أقوال الشهود ويجعل العجوز التى لاتقدر على الحركة مسئولة عن الانتقال من مكانها البعيد عن الطريق إلى منتصف الطريق . وكأنها ألقت بنفسها أمام السيارة قاصدة الانتحار .

ويعرف القاضى أيضاً شهرة المحامى فيجعل المحاكمة سهلة وكأن براءة المتهم لاتحتاج الى دليل .

ويعجز الشهود من أسرة الغجرية وأقاربها عن اثبات الدليل على الجريمة ، التى تمت سهواً أو بإهمال ، أو نتيجة لضحكات المتهم وزوجته .

ويصدر الحكم بالبراءة ويخرج المحامى من القاعة فيجد حوله والد العجوز الذى يريد الانتقام ولكنه يعجز عن ذلك لأسباب كثيرة فيقترب من المذنب البرىء قائلا :

ـ ستصبح رفيعاً !

وهكذا يبدأ المحامى « رجيما » رغما عنه .

أنه يأكل طعامه المعتاد ولكن أثناء كل وجبة يسمع صوت الأب يقول له :

ـ ستصبح رفيعاً !

ويجد على شاشة التليفزيون الإعلانات المتكررة للادوية والمجلات التى تعده بأن يفقد ١٠ أرطال من وزنه فى عشرة أيام .

وتتحقق نبوءة المجلات والأدوية ، وهمس الأب العجوز ، مع أن المحامى يأكل على هواه دون اتباع أية قاعدة صحية أو تعليمات طبية .

ويصبح المحامى فى نهاية الرواية وقدتحققت أمنياته ومحاولاته الاولى فى « الرجيم » نتيجة للعنة الغجرية لا استجابة للمجلات أو الدواء . ولكن الرجيم يكون قاتلاً !

●●●

ومعظم الروايات الرائجة فى الغرب هذه الأيام هى تلك التى تمزج الحقيقة بالخيال أو بعبارة أخرى تخلط بين الحقائق والأكاذيب .

والمؤلف ، أى مؤلف ، يريد مزيدا من القراء لرواياته فيحرص على أن تضم الرواية فى اطارها العام ظلا من الحقائق المعروفة للقارىء العادى ، أما بعد ذلك فإن الكاتب يضيف من الاكاذيب ما يريد .

شارلز برليتز مثلا حفيد الرجل الذى أنشأ المدارس«برليتز لتعليم اللغات»وجد أن انشاء المدارس يحتاج الى مال وجهد . . ورأى أن تأليف الروايات أسهل خاصة اذا قامت الرواية على حقيقة علمية شائعة . وهكذا ظهرت روايته الأولى « مثلث برمودا » التى تحولت إلى فيلم .

الرواية تصف مثلثا يقع فى المحيط الاطلسى بين ميامى وبورتوريكو وجزيرة برمودا .

فى هذا المثلث تختفى ، دون سبب معقول السفن والطائرات ولايستطيع أحد أن يفسر سر تلاشيها !

والأحداث تتوالى من خلال الابطال الذين يستقلون وسائل الانتقال هذه يعبرون بها المعلوم الى المجهول .

وتعتمد الفكرة الاساسية للرواية على قصة حقيقية وهى اكتشاف سفينة شراعية عام ١٩٠٢ كانت قد اختفت فى هذه المنطقة .

●●●

وكاتب آخر اسمه دون ولسون أصدر كتابا اسمه « اسرار سفن الفضاء التى ارسلت الى القمر » .

فى هذا الكتاب يقدم المؤلف نيل ارمسترونج اول انسان وضع قدمه على القمر عام ١٩٦٩ بطريقة أخرى .

ان ارمسترونج أول ماهبط على القمر ـ كما يقول الكاتب ـ قال :

ـ لن تصدقوا أبدا ما رأيت .

فقد رأى رجل الفضاء أشخاصا آخرين يعيشون على القمر ، أى رأى سكان الفضاء .

والكاتب يقول أن محطة إطلاق الصواريخ وسفن الفضاء صادرت هذه الحقيقة ومنعت كلمات ارمسترونج ، مع ان عملية الهبوط على القمر شاهدها الملايين ولم يسمعوا تلك الكلمات المزيفة التى قيل ان ارمسترونج نطق بها .

وقال الكاتب أيضاً أن الحكومة الامريكية خشيت أن يخاف الناس من غزاة الفضاء كما حدث فى رواية أورسون ويلز الشهيرة التى قدمها فى الاذاعة فظن الناس أنها حقيقة وحدث رعب وفزع فى أمريكا نتيجة رواية اذاعية !

واذا كان اورسون ويلز افزع الامريكيين فماذا يكون الحال اذا قام ارمسترونج بإحداث رعب عالمى قادم من القمر !

●●●

ورواية اسمها « رعب أميت فيل » أى رعب مدينة أميت، باعت اربعة ملايين نسخة وأنتجت فيلما سينمائيا مرتين بأسلوب مختلف .

الرواية تتكلم عن زوجين وأطفالهما الثلاثة اشتريا بيتا فى تلك المدينة منذ عشر سنوات ، أى عام ١٩٧٥ ، ولكنهما تركاه هاربين بعد ثمانية وعشرين يوما من الرعب .

. . رغم كل وسائل التدفئة فإن البرد القارص أحاط بالأسرة ، ولم تنفع الملابس الثقيلة أيضاً فى حمايتها من الصقيع .

وسحب الذباب والموسيقى والأصوات الغامضة التى تنطلق من الجدران جعلت البيت وكأنه جزء من الجحيم .

والبيت حقيقى وقد أصبح مهجوراً يشاهده الناس عن بعد ولكن أحداً لا يستطيع دخوله أو لايجرؤ على الدخول لأن الرعب كما قال الزوجان جورج وكاتى لوتز فوق احتمال البشر .

والقصة فى أساسها تعتمد على أن الاسرة مالكة البيت قبل لوتز سمعت اصواتا ورأت أشباحا فاستغل آل لوتز هذه الحقيقة وقاما بتضخيمها وألفا حولها رواية فيها حقيقة واحدة وهى وجود البيت فى مكانه أما الباقى فأكاذيب باعت بالملايين .

●●●

والكاتب ويلبور فوليفا رأى أن يعيد التاريخ إلى الوراء .

إن كوبرنيكوس قال أن الأرض كروية .

وجاليليو حوكم لأنه تمسك برأيه فى أن الأرض كروية .

ولكن فوليفا رأى أن أول انسان دار فى سفينة فضاء وجد أنها ليست كروية ، فقد حسب العقل الاليكترونى المسافة التى قطعتها أول سفينة فضاء دارت حول الأرض ورأى أنه من المستحيل أن تكون الأرض كروية !

وقال العقل الألكترونى أن الأرض أشبه بالكمثرى فى بعض مناطق فهى ليست كروية تماما .

ومن هنا عاد فوليفا إلى النظرية القديمة وهى أن الأرض مسطحة وبنى رواية حول هذه النقطة التى تعتمد على حسابات العقل الالكترونى !

●●●

توجه مصور صحفى الى بيت قاضى القضاة الجديد ليصوره مع قرينته بمناسبة تعيينه فى منصبه وبعد أن أتم المصور مهمته . قال للقاضى :

ـ سيدى . ارجو أن تقفز فى الهواء .

نظر اليه القاضى فى دهشة وصرخ فيه :

ـ ماذا تريد ؟

قال المصور فى هدوء :

ـ لاشىء ياسيدى . سأصورك وانت تقفز فى الهواء لأسجل مايرتسم على وجهك فى هذه الحالة الغريبة .

وبدلا من أن يقول له القاضى :

ـ عيب . ذلك لايجوز .

إذا بالقاضى يقفز والمصور يلتقط الصورة ، ويحتفظ بها ولا ينشرها .

وكرر المصور البريطانى فيليب هلسمان هذه العملية مع الأمراء فى أوربا والدوقات والزعماء ، والحائزين على جائزة نوبل من العلماء .

وعندما قال للرسام العالمى سلفادور دالى :

ـ اقفز .

أصر الفنان على أن تكون الصورة معبرة عن حياته وفنه . فوضع بعض الزهور ، وحوضا للأسماك الملونة ولوحة من رسمه .

ويوم طلب ذلك من الكاتب الشهير برتراند راسل ، لم يتردد لحظة وقال :

ـ هذه صورة لم أفكر فيها .

أما دوقة وندسور ، المرأة التى جعلت ادوارد الثامن يترك عرش إنجلترا ليتزوجها فقد أصرت على الرفض . ولكن الدوق قال لها مبتسما :

ـ لقد قفزنا من فوق العرش ، فما المانع من أن نقفز الآن !

وهكذا جمع المصّور الصحفى صور ١٧٨ شخصية من نجوم السياسة والرياضة والفن والأدب وغيرهم ، وهم يقفزون ، ونشرها فى كتاب طريف ، غريب ، وعجيب ، عرض فى معرض فرانكفورت الدولى للكتب فأوحى للقائمين على المعرض بفكرة جديدة نفذوها بعد سنوات .

أعلنوا عن مسابقة منذ سبع سنوات عن أغرب كتاب صدر فى ذلك العام ففاز اثنان

من المؤلفين البريطانيين ، اختاروا معا كتابا عنوانه . . « محاضر جلسات المؤتمر الدولى الثانى الذى عقد فى معمل الفيران العراة » !

وفى كل عام ـ منذ ١٩٧٨ ـ كان الكاتبان يفوزان فى مسابقة معرض فرانكفورت فقد كانا يتصلان بكل دور النشر العالمية يسألان عن عناوين الكتب ثم يختاران كتابا واحدا .

فى احدى السنوات فازا بالجائزة لأنهما اختارا عنوان كتاب « سعادة الدجاج » !

وفى سنة أخرى كان فوزهما عن عنوان يقول « المربى ، وسوابقها التاريخية ودورها فى العالم المعاصر » !

ووجد الكاتبان وهما « راسل آشى » و« بريان ليك » أن هذه الكتب الغريبة توزع توزيعا جيدا ، فلابد أن لها قارئا ، وأن هذا القارىء يسعى إليها ويريدها .

ووجدا أيضا أن الكتب الغريبة قديمة فأخذا يبحثان عن أسمائها فى كل العصور ويطالعانها فى المكتبات العامة والخاصة ويطلبان الى جامعى الكتب وهواتها أن يكتبوا اليهم بأعجب الاسماء .

وجمعا هذه الاسماء فى كتاب ممتع اسمه « الكتب الغريبة » صدر فى لندن .

● ● ●

بين المؤلفات الغريبة كتاب اسمه « الصليبيون المرحون » عن الحرب الصليبية التى انتصر فيها صلاح الدين .

والكتاب فكاهى ساخر يروى قصص الصليبيين الغزاة الذين جاءوا من أوربا الى الشرق الاوسط وحياتهم الحقيقية المرحة بعيدا عن الهدف الدينى !

وكتاب اسمه « ذكريات حفلات راقصة » يقدم أشهر الحفلات الراقصة عبر التاريخ ، من أقامها ، ومن المدعوون ، وماذا قدم فيها من رقصات ، والمآسى التى وقعت فيها والزيجات التى أسفرت عنها .

والكتاب يحكى قصة جمع مادته ، فبعض الحفلات أقيمت فى زمن لاتصدر فيه صحف . ولكن المؤلف رجع الى مذكرات ، وقصص حياة ، وكتب أدبية ، وتاريخية صدرت فى أزمنة مختلفة لينتقى منها اللقطات التى تكلمت عن الرقصات .

وكتب كثيرة أصدرها مؤلفون أخفوا أسماءهم ، وآخرون ذكروا أسماءهم عن المدارس الحكومية والأهلية التى درسوا فيها وانتقدوها بعنف وكتبوا أسماء المعلمين والنّظار والمديرين .

والغريب فى أمر هذه الكتب أن المؤلفين تكلموا عن مدارس للحضانة والتعليم الأولى والابتدائى مما يدل على أن الاطفال الصغار يستوعبون ،ويذكرون ، ثم يتابعون هذه المدارس لأنهم لم ينسوا ذكريات أليمة ومعلم أهمل فى أداء واجبه أو كان فظا مع طفل صغير ، وهب ـ بعد ذلك ـ قلماً معبراً !

وهناك كتب كثيرة عن الزراعة والنباتات كتبها مؤلفون غير متخصصين .

يوجد كتاب عن « أشهر الأشجار فى نيوزيلندا » . . وفى غير نيوزيلندا .

وكتاب عن « الأسر العريقة » لايقصد به الأسر كريمة المحتد ، بل يقصد به الأسر التى احتفظت بعراقتها لأنها اهتمت بحديقة للنباتات فى منطقة مجهولة من أستراليا .

وألفت سيدة تهتم بحديقتها مجموعة كتب اختارت لها عناوين غريبة .

أحد هذه الكتب اسمه « حديقة الجهل » عن جهل السيدة بفن النباتات وعلومها فكانت حديقتها دليلا على جهلها .

ولما تعلمت الزراعة اصدرت « متعة الأرض » عن سعادتها بما وجدت عند ظهور النباتات والثمار .

●●●

وكتب التعليم ـ غير المدرسى ـ لاتحصى .

ألف طفل كتابا عن « قيادة الدراجات للمبتدئين » .

وأصدر قاطع طريق كتابا عن « حياة المجرمين » فقد عاش ٤٠ عاما فى السجون يحيا مع المسجونين ويكتشفهم .

وألف أحد الوعاظ كتابا عن « فن الوعظ » .

وكتاب عن « الدليل النباتى للصحة » ألفه مزارع عاش طول حياته لايأكل اللحوم

واشتهر كتاب « بحث فى الجنون » ألفه رجل عاش معظم حياته يعانى الجنون

ويقاسى من المجانين الذين أقاموا معه ، أو أقام معهم ، فى مستشفيات الامراض العقلية فدرس حالته وحالتهم واعتبر كتابه مرجعا طبيا يستند اليه الأطباء !

و « برامج دراسية لباعة التجزئة » كتبه زبون فى المحلات التجارية درس عيوب الباعة ومزاياهم .

والكتاب ينصحهم من خلال أمثلة كثيرة رآها الزبون وأعجبته أو كرهها .

و « كيف تعيش أكثر من مائة سنة » و « دائرة معارف كرة القدم » وكل الألعاب الرياضية ، وألوف الكتب عن الطبخ والرجيم والالكترونات و « تاريخ الساعة التى تملؤها بنفسك منذ عام ١٧٧٠ حتى الآن » و « دراسة موضوعية للحفاظ على المواعيد وعلاقة ذلك بشخصية الانسان وأعماله » . « وموسيقى المغول » « والعنف كوسيلة من وسائل الاتصال » و « حياة المعسكرات » و « تحسين عقلية الطبقة العاملة » و « الحفر على الجليد » و « تاريخ بصمات الأصابع » و « تاريخ المقص » و « تاريخ الفصول » و « تاريخ الملكات » أى « ملكات النحل » و « تاريخ الدخان » و « مائة طريقة وطريقة لنطق الكلمات » و « الخطايا التى لم تذكرها بعض الكتب الدينية » و « التاريخ الكيميائى للخليقة فى ستة أيام » و « الوصف التقليدى للجحيم » و « كتاب عن أسماء الكتب التى ألفت عن السيرك » !

والكتب التى تحاول أن تعلم الانسان شيئا كثيرا . .

هذا كتاب « النوم العذب » للذين يظلون طوال ليلهم فى أرق ليستمتعوا بالأرق إذا عجزوا عن الوصول إلى النوم الجميل الذى يهديهم اليه هذا الكتاب .

و « العزف على الأرغول » .

و « الصعوبة التى يواجهها الأيرلندى فى اللغة الهولندية » .

و « ذكرى كلب » وهو كتاب ألفه السفير البريطانى نيفيل هندرسون الذى كان قائما بأعمال المندوب السامى فى مصر عندما وقعت أزمة كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لمؤلفه الشيخ على عبد الرازق عام ١٩٢٥ كما كان هندرسون فى مصر عند وفاة سعد زغلول عام ١٩٢٧ واختير سفيرا لبلاده فى برلين عندما أعلن هتلر الحرب عام ١٩٣٩ فاعتقله هتلر .

وكان هندرسون يقول لحكومته فى برقيات كثيرة أن هتلر لايريد التوسع ولا يسعى للاستيلاء على أوربا ويحب السلام .

ولكن قيام الحرب واعتقال هندرسون جعله يؤمن بأنه خدع ، وأن هتلر ورجاله ضحكوا عليه وأضحكوا عليه وزارة الخارجية البريطانية فاهتم ـ بعد ذلك ـ بكلبه وبكاه فى كتاب يعلم الناس كيف يحبون هذا الحيوان الأليف .

●●●

والإنسان يتساءل :

ـ كيف تباع هذه الكتب ؟

والجواب أن المؤلف لابد قد اقتنع بفكرة الكتاب ووجد أنها تستحق البحث والدراسة وإلا ما تفرغ لتأليفها .

ومع ذلك فإن الأسئلة تظل مثارة ولاتجد جوابا شافياً .

إن رساما استهوته لوحات الحيوانات التى رسمها كبار الفنانين فاختار الرسامين وحيواناتهم موضوعا لكتابه . ولكنه اختار نوعا غريبا من الحيوانات وهو « وحيد القرن فى الفن » عن الرسامين الذين رسموا صورة وحيد القرن !

واختار كاتب آخر الرسامين الذين رسموا الثعابين !

ومؤلف ـ وهو ليس طبيباً ـ ألف عن « فك وأسنان سكان هاواى القدامى » .

ورجل ـ ليس حلاقاً ـ كتب عن « تصنيف البشر بشعرهم » بفتح الشين .

أما ضابط مرور فقد اختار العنوان التالى « العنصر الانسانى فى اللعب » .

والعنوان مضلل فالموضوع لا علاقة له باللعب وإنما عن حوادث السيارات ودليل القيادة .

ولكن ضابط المرور يرى أن السيارة لعبة وإن الحوادث لاترجع إلى المصادفات والمصادمات ، بل إلى البشر الذين يلعبون بسياراتهم ويلهون ، فهم لايجدون فى القيادة مسئولية ولذلك يسرحون ولا ينتبهون ويلعبون بأرواحهم . . وحياة الناس .

وظل مدير إحدى حدائق الحيوان يراقب الحيوانات فى أقفاصها ويتأملها ويراجع قصص وصولها الى الحديقة فاهتدى الى تأليف « الحيوانات الامبراطورية » عن الحيوانات التى صادها الأباطرة والملوك فى معظم العصور !

ومن المؤكد أن تأليف مثل هذا الكتاب ليس سهلا بحال فالمراجع قليلة ، ولكن بعض القصص مذهلة .

فقد زار أحد الأمراء مقاطعة فى الهند .

وفكر الأمير فى رحلة صيد الى الغابات فنظم له الحاكم رحلة ممتعة انتهت بحصول الأمير على صيد ضخم ، كما قتل مجموعة من الحيوانات المتوحشة .

ولكن أحد رجال الأمير عرف الحقيقة وهى أن الحيوانات ربطت بحبال قوية ورقيقة أيضا حتى يستطيع الأمير صيدها بإطلاق الرصاص عليها وهى لاتستطيع الحركة أو الفرار .

وقبـل أن يصل الأمير الى مكان الصيد أسرع أحد أفراد الحاشية ليمزق الحبال ويخفى آثـارهـا حتى لايراها الأمير فيظل مؤمنا بقدرته الفائقة على صيد الوحوش من الطلقة الأولى بلا مران أو تجارب !

وكتب السياحة لها عناوين مثيرة وعلى سبيل المثال ، « جولات ساحرة من الصين الى بيرو » و« ساعات كسولة فى المكتبة » و « أيام كسولة فى بتاجونيا » و « القليل الذى رأيته فى كوبا » إشارة إلى الرقابة الشيوعية على السياح فتمنع الناس من مشاهدة الكثير ورؤية القليل جداً .

●●●

وإذا تركنا هذه الكتب جانبا . . التى تحتاج إلى بحث ودراسة الى الروايات فسنجد أسماء . . لها العجب .

رواية عنوانها « كلنا نقتل الجدات » و « زوجان فى المشرحة » و « مغامرة كبيرة ولكن مؤلمـة » و « غرام بيروقـراطى » و « مدينـة للنسـاء المفقـودات » و « العـروس ترتدى الحشائش » و « كن شجاعا مع الموز » و « حتى لايقتلك البرق » و « اخبرنى ياأبى عن الجنازات » و « الدفن قبل الأوان » و « على المشنقة » .

●●●

وفى ذلك الكتاب اكثر من خمسة الآف عنوان لكتب لم نطالعها أو نسمع بها ولكن ملايين الناس قرأوها وأعجبوا بها .

ولو أن أمين مكتبة فى العالم العربى راجع اسماء الكتب العربية منذ بدايتها فأنه سيجد اسماء أغرب وأعجب .

ولو أن هذا « الامين » قدم كل مؤلف بفقرة أو فقرتين فأن كتابه سيصبح ضرورياً فى كل مكتبة مدرسية وفى كل بيت .

ولو أن شباب المؤلفين طالعوا هذه الاسماء فمن غير شك ستفتح شهيتهم للتأليف وسيجدون أن كل موضوع يمكن أن يطرق ، ويصلح مجالا للبحث والدراسة وأنه مشوق وله قراء عديدون .

والمشكلة لدى شباب المؤلفين أنهم لايتمتعون بالجرأة ، ولايستمتعون بها .

ولو أن حماسهم زاد فمن المؤكد أنهم سيحدون قراء لكتب عن حبات رمل الصحراء وعذاب الوصول إلى البترول ، ومتعة السهر فى غير ضوء لقمر ، ومرارة السهر الطويل للوصول إلى كتاب جميل !

معارض للكتب القديمة

وقف موكب سيارات اللورى الكبيرة والصغيرة أمام فندق « راسل » فى لندن عند الفجر وهبط السائقون ومعهم آلاف الكتب والأرفف واللافتات أخذوا ينشرونها فى القاعة الكبرى .

وفى الثامنة صباحاً افتتح معرض الكتب القديمة والأثرية الذى نظمته الجمعية الأقليمية لباعة الكتب إذ زحف الألوف من عشاق الكتب ومحبيها من إنجلترا وأوربا لشراء الكتب التى نفدت ومن الصعب الحصول عليها إلا من باعة الكتب وأسواقهم ومعارضهم .

ولم يأت وزير أو محافظ أو ناشر ليقص شريطا أو يلقى خطبة ، فحب القراء لايحتاج الى احتفالات من هذا النوع . القراء الجادون الذين يضنيهم البحث عن كتاب يسرعون وراءه فى كل مكان لايهتمون بالمظاهر بل كل يحاول أن يجىء مبكراً ليسبق منافسه الهاوى مثله فى شراء الكتب .

وخلال ٢٤ ساعة كان كل بائع قد باع ما قيمته ثلاثة آلاف جنيه تقريبا من الكتب القديمة والأثرية .

وإذا كان الباعة قد جاءوا قبل الفجر فإنهم رحلوا فى ساعة متأخرة من المساء حتى لايتحملوا نفقات إقامة ليلة أخرى فى لندن .

ودفع كل بائع خمسة عشر جنيها مقابل الركن الذى عرض فيه كتبه . أما الفندق فقد حصل على ثلاثة آلاف جنيه عن تأجير قاعته الكبرى ليوم واحد .

وقد اختير هذا الفندق بالذات لا لأنه من الفنادق الحديثة التى عرفت بالأبهة ولكن لأنه يوجد فى منطقة يعرفها هواة الكتب و اشتهرت بالرواد الأوائل ومشاهير الفن والأدب . . ففى هذا الحى عاشت فرجينيا وولف ، وشارلز ديكنز ، وتوماس جراى ،

والرسام روزيتى ، ويوجد أيضا المتحف البريطانى الشهير وجامعة لندن وفيهما يجتمع هواة القراءة والفكر .

●●●

بدأت فكرة هذه المعارض منذ ١٨ سنة عندما وجد ١٥ بائعا للكتب القديمة والأثرية فى إنجلترا أن كثيرا من المشترين يجيئون اليهم طلبا للكتب القديمة ويعرضون ثمنا يفوق سعرها وهى جديدة .

اتصل الباعة بالناشرين يسألونهم عن احوال النشر وظروفه فوجدوا أن الناشرين أصبحوا يطبعون نسخا محدودة من كل كتاب جديد تتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف نسخة . وهم يحرصون على إصدار الكتب التى يعلمون أنها تروج وتأتى بربح عاجل .

وتبين أن الناشرين يسعون إلى دورة سريعة لأموالهم تجىء بالمكاسب . . أما إعادة طبع كتاب فعملية لاتتم فى أحوال نادرة وعندما يكون الكتاب مطلوبا من القراء بصورة غير عادية . وفيما عدا ذلك فمن يريد كتابا قديما عليه أن يطوف المكتبات بحثا عنه . وفى هذه الحالة يرتفع سعرة مرتين أو ثلاثة عما كان عليه عند صدوره .

وكان باعة الكتب القديمة وعددهم ستمائة قد شكلوا منذ قرن كامل جمعية تضمهم ويدفع كل منهم اشتراكا سنويا قدره ثلاثون جنيها ، فاتفقوا على إقامة معرضهم الأول عام ١٩٧٢ ونجح نجاحاً كبيراً .

وكانوا ـ فى البداية ـ يكتفون بمعرض سنوى واحد فلما وجدوا الإقبال يتضاعف زاد عدد المعارض حتى أصبحت تصل الى ١٤٠ معرضا سنويا . . أى نحو ٣ معارض أسبوعيا تنتقل الى معظم مدن إنجلترا الكبرى .

ويعلن مقدماً قبل عام كامل عن مكان إقامة هذه المعارض وتوزع الجداول والبيانات على الجامعات والمكتبات والمعاهد العلمية والبلديات والمتاحف والصحف المتخصصة أما المعارض نفسها فتقام فى هذه المؤسسات العلمية أو المحليات والمتاحف وتتبع هذه المعارض المهرجانات الأدبية والفنية والعلمية .

وفى مهرجان أدنبره الأخير الذى استمر ثلاثة أسابيع أقيم معرض للكتب القديمة خلال الفترة نفسها حقق رواجاً هائلاً .

وتشترك الجمعية مع جمعية دولية فى إقامة معرض عالمى للكتب القديمة والأثرية يحضره الراغبون من جميع أنحاء العالم . ويقام هذا المعرض فى لندن وفى غيرها من عواصم أوربا .

●●●

قال لى بريت السكرتير الفخرى للجمعية . وهو وكذلك أعضاء مجلس الادارة جميعا لايتقاضون أجرا عن عملهم :

ـ بدأت تنتعش تجارة الكتب القديمة فى اليابان وأستراليا وأمريكا أيضاً فإن الناس فى الغرب يهتمون بالقديم . . كالألقاب القديمة . . بصورة لم يسبق لها مثيل . . وجاء الآن دور الكتب .

صار الناس يحبون الاحتفاظ بالطبعات الأولى ، ومؤلفات قدامى الكتاب ومشاهيرهم ومن هنا زاد الإقبال عليها وأصبحت أسعارها خيالية .

قلت :

ـ فى بلادنا انتعشت محلات بيع الأحذية وملابس النساء والأطفال !

قال :

ـ هنا يوجد كساد فى هذه المجال ولم ينتعش إلا سماسرة العقارات والصيدليات ومكاتب المراهنات على الرياضة وسباق الخيل والمقامرة بصفة عامة .

قلت :

ـ ولكن أسعار تأجير المحال غالية جداً فهل يستطيع صاحب مكتبة أن يدفع الإيجار المرتفع ؟

قال :

ـ فى قلب مدينة لندن قرب المسارح الكبرى توجد أشهر محال لبيع الكتب القديمة وأصحابها يدفعون الإيجارات العالية لأنهم يربحون .

قلت :

ـ ألا تنفذ الكتب القديمة . إن صاحب المكتبة إذا باع ما يملك فإنه يصبح بغير رصيد يبيعه .

قال :

ـ الناس يريدون التخلص مما لديهم من الكتب القديمة التى اشتروها أو ورثوها فيسعون الى بيعها .

قلت :

ـ وهل تعطونهم الثمن المناسب ؟

قال :

ـ نحن نربح كثيراً من هذه العملية . ومن يريد الاستغناء عن شىء يقبل الثمن المعروض . ومن ناحية أخرى فالذين يريدون التخلص من كتاب قديم هم أفراد ضاقت بيوتهم بالكتب ولم تعد دخولهم تكفى حاجتهم ومن هنا يسعون للحصول على إيراد إضافى فيبيعون ما يملكون .

وبالإضافة الى ذلك فإن البعض يتمنى شراء كتاب جديد يطالعه ولذلك يعرض للبيع الكتب القديمة . أما راغب الشراء فهو طالب علم يريد مرجعاً أو قارىء يريد كتابا بالذات أو رجل عنده فائض من الأيراد ولذلك يرغب فى اقتناء كتاب أثرى يزين به مكتبته وبيته .

وليس معنى ذلك أن جامعى الكتب القديمة لايقرءون بل إنهم هواة من نوع آخر فهم قراء ، وهم أيضاً راغبون فى الاقتناء .

وقال :

ـ يوجد دليل على رواج هذه التجارة من الأرقام . لقد زاد عدد باعة الكتب القديمة فبعد أن كانوا ستمائة ارتفعوا الى ستمائة وخمسين تقريبا وتمثل المرأة ١٥ فى المائة من هذا الرقم . •

وقال :

ـ دخلت المرأة هذا المجال التجارى عن طريقين . . فإما أنها ورثت المكتبة عن أبيها وشقيقها أو زوجها . وإما أنها أنشأت هذه المكتبة لميول فكرية لديها أو لأنها تجارة رابحة . . وهى بالفعل رابحة .

وقال :

ـ الفرق بيننا وبينكم أن الناشرين فى بريطانيا وعددهم ٤٠٠٠ تقريباً أغلبهم

لايملك مطبعـة . أمـا عندكم فالناشر أساسا صاحب مطبعة، كماكان الحال بالنسبة لأصحاب الصحف القديمة . فالصحف ـ فى بدايتها ـ أصدرها أصحاب مطابع. أما هنـا فالناشر مجرد وسيط أو سمسار أو وكيل عن المؤلف (يشترى الكتاب من المؤلف ويعطيه العربون ونسبة من إيراد البيع ويطبع الكتاب عند أصحاب المطابع وعددهم محدود فيحصل على مبلغ يمثل نسبة أخرى من ثمن البيع . وهكذا يتقاسم الجميع الثمن ويحصل البائع ـ أى صاحب المكتبة ـ على النصيب الأكبر من إيراد البيع وهو ٣٥ فى المائة من ثمن الكتاب .

واذا كان البائع ينال هذه النسبة من الثمن فإن صاحب المكتبة القديمة التى تبيع الكتب المستعملة ينـال اضعاف هذه النسبة. نظراً لارتفاع الثمن . ولذلك زاد عدد المكتبات القديمة وراجت اقتصادياتها وانتعشت .

وقال لى :

ـ اذا أردتم أن ينتعش سوق الكتب فلا بد من انتشار الكتب القديمة .

ويبقى السؤال الهام وهو :

ـ كيف يتحقق ذلك ؟

●●●

قابلت فى نيويورك أشهر بائع كتب فى العالم « فرد ريك باس » الذى يبيع يوميا خمسة آلاف كتاب باللغة الانجليزية ، وهو رقم ضخم بالنسبة لبائعى الكتب فى كل مكان فى بلاد الدنيا ، وأسعار كتبه تبدأ من ربع دولار الى ٣٠ ألف دولار ، ـ والمشترون لهذا ، وذاك ، كما يقول كثيرون . . ولولا أنه وجد من يشترى بالسعرين المتناقضين المتباعدين لكان قد أغلق مكتبته منذ زمن .

واذا كان هناك من يشترى من « فردريك باس » فإن من يبيع له كثيرون أيضا لأن مكتبته تبيع الكتب الجديدة ، والقديمة المستعملة على حد سواء .

تقع مكتبته « ستراند » عند تقاطع الشارع رقم ١٢ مع شارع برودواى ، وتضم مليونى كتاب لايقل عددها أبدا لأنه يبيع ويشترى فى الوقت نفسه .

وعمر هذه المكتبة ثلاثون عاما، بدأت صغيرة ، بشراء الكتب القديمة ممن يريد التخلص منها ثم يبيعها بفارق بسيط يحقق له ربحا مكنه من الانتقال الى المكان الحالى ومساحته ٣٢ ألف قدم وثلاثة أدوار أحدها تحت الأرض .

وإذا كان ـ فى البداية ـ يحصل على الكتب من الأفراد فإنه على مر السنين يشتريها من أشخاص لايخطرون على البال أبداً .

قال لى :

ـ النقاد هم الذين يبيعون لى الكتب الجديدة . . فإن العرف جرى فى الولايات المتحدة والغرب بصفة عامة ، على أن يبعث المؤلفون والناشرون بكتبهم الجديدة الى الصحف ، والى أقسام الكتب فى الصحف والمجلات التى تهديها للنقاد .

ولا يستطيع الناقد أن يقرأ كل ما يصله ، أو يحتفظ بعشرات الكتب التى يعجب بها ولذلك فإن النقاديتخلصون من هذه الكتب أولا بأول ويبيعونها لمكتبة « ستراند » .

وعلى مر الزمن نشأت صلة منتظمة بين المكتبة والنقاد ، وهم يرسلون الكتب بالبريد أو يحملونها بأنفسهم الى المكتبة ، أو يطوف أحد الموظفين على النقاد فى مواعيد منتظمة يأخذ ما تجمع لديهم من الهدايا !

وعملية الحساب تتم شهريا .

ولا يمكن أن يبالغ الناقد فى الثمن لأسباب كثيرة فهو لم يدفع ثمنا للكتاب ، ومن ناحية أخرى فإن الناقد يعلم يقينا أن مكتبة « ستراند » تبيع أحيانا الكتب الجديدة التى لم تقرأ بنصف الثمن وربما أقل .

وهناك أيضا الناشرون ولديهم رصيد ضخم من الكتب التى لم يتم بيعها ليسلموها بصفة دورية لستراند التى لا ترفض كتابا على الاطلاق فهى التى تحدد الثمن وتعرف أن هواة الكتب كثيرون وأن لكل كتاب قارئا يبحث عنه .

وعندما لاتجد المكتبة سوقا رائجة لبعض الكتب فإنها تبيع كل ٥ كتب بدولارين حتى لايتجمع لديها مخزون ليس له مشترون .

●●●

وهناك باعة آخرون يوجهون مالديهم من الكتب لستراند .

إنهم أيضا أولئك الذين تضيق بيوتهم بالكتب ، أو يحتاجون للمال ، فيجدون أن المعدة أهم وأولى من العقل ، وهؤلاء ، كما يقول « فرد ريك باس » يبدو الحزن فى عيونهم وهم يعرضون ما لديهم على « ستراند » .

ولذلك فإن المشترى من موظفى المكتبة يعامل مثل هذا البائع « المسكين » بحب وزقة ويقول له : إن مثقفا آخر يحتاج لهذا الكتاب وسيطالعه ويشكرك دون أن يعرفك .

وفى الوقت نفسه فإن موظف المكتبة لن يسيل رقة وهو يحدد الثمن لأن هذا الموظف أصبح بخبرته وطول تجاربه ـ يعرف سوق الكتاب ويدرك تماماً الكتب الرائجة التى يقبل عليها المشترون .

وفى هذه المكتبة يوجد ١٢٥ موظفا وعاملا يتقاضون أجورا مجموعها ٤٠ ألف دولار شهريا ، بينهم من يقرأ المجلات، الأوربية والأمريكية ، وصفحات النقد فى الصحف والمجلات ، وهؤلاء هم الذين يحددون أسعار الشراء والبيع ، ويعيدون تقدير الأثمان صعودا أو هبوطا لأنهم أدرى الناس ببورصة الكتب وتقلباتها فى السوق .

ويرى « فرد ريك باس » أن مكتبته ضرورية وأساسية وتلبى حاجة الناس ، القراء الهواة والمثقفين الدارسين أيضاً .

●●●

فى هذه المكتبة ترى من يمضى ساعات يقرأ كتابا ولايقول له أحد :

ـ ماذا تفعل ؟

أو :

ـ توقف .

أو :

ـ عيب ؟

لسبب بسيط هو أن هذه الحرية تشجع القارىء « الفقير » على أن يشترى كتابا أعجبه ولا يستطيع أن يتمه داخل المكتبه .

وكل ما تحرص عليه « ستراند » ألا يسرق أحدهم كتابا فالمثقفون يسرقون ، ولذلك فإن مرايا مكبرة كثيرة تنتشر فى المكتبة ليتسنى من خلالها مراقبة المتفرجين والمشترين ولايسمح لأحد بدخول المكتبة يحمل حقيبة أو كتابا ، بل يجب أن يترك هذا كله مع موظف الاستعلامات عند المدخل .

وبهذه الطريقة تتوقف ، وتمتنع السرقات ، كما أن عددا من رجال الأمن ، مفتولى العضلات ، يقفون عند باب المكتبة يخيفون اللصوص .

ومن ناحية أخرى فإن صاحب المكتبة يعذر قارئا مثقفا يحاول أن يسرق كتابا ، ولذلك لايقدمه الى رجال الشرطة بل يقول له موظف المكتبة بابتسامه :

ـ لابد أنك نسيت أن تدفع .

أو :

ـ موظف الخزانة هناك

ويشير الموظف الى موقع الخزانة .

وفى المكتبة ـ بالمناسبة ـ أربعة من موظفى الخزانة يحاسبون المشترين ، وهم كثيرون ، فى وقت واحد !

●●●

وأغرب من يبيع الكتب لستراند أصحاب المكتبات الخاصة الفخمة فيطلبون إلى المكتبة أن يحضر موظفون لبحث حالة الكتب وتقدير ثمنها .

سألت فرد ريك باس :

ـ وهل تجرى مساومة فى هذه الحالة ؟

أجاب :

ـ نعم نحن نساوم من نشترى منه ، وهو أيضا يساومنا ، ولكننا لانساوم أبدا من نبيع اليه وإلا ضاع الوقت فى هذه العملية . فأسعارنا محددة ، ونحن نعيد التقييم والتقدير فى كل فترة .

●●●

والمكتبة مقسمة الى أقسام ، أحيانا حسب الموضوع ، وأحيانا حسب اسم المؤلف والقراء المتفرجون يغيرون ـ كثيرا ـ مكان الكتب ، ولذلك فإن الموظفين يعملون طوال اليوم لإعادة كل كتاب إلى مكانه للتيسير على المشترين .

وهذا التيسير بتحديد مكان كل كتاب هو الذى يجعل الناس يجيئون الى ستراند ، أو يبعثون اليها يطلبون كتابا معينا بالبريد .

قلت لفرد ريك باس :

ـ ولكن فكرة مكتبتك ليست جديدة ؟ على ضفاف نهر السين فى باريس يوجد باعة

للكتب القديمة . وفى ضواحى لندن توجد مكتبة أخرى مماثلة ، وفى شارع « شيرنج كروس » فى لندن توجد مكتبات للكتب القديمة .

قال :

ـ ولكننا نبيع الكتب الجديدة أيضا . ولانتعطل يوما . ولانحصل على اجازة أبدا . وبالاضافة الى ذلك فإمكاناتنا المالية ضخمة تسمح لنا بشراء أى كتاب مهما غلا ثمنه بدليل أن عندنا كتابا « لجيمس جويس » صدر عام ١٩٢٨ ونطلب ثمناً له ٣٠ ألف دولار .

قلت :

ـ هل تعتقد أن أحدا سيشترية .

قال :

ـ بعنا مثله بالثمن نفسه وبأكثر منه .

قلت :

ـ وهل ترفضون شراء كتب معينة .

أجاب :

ـ نعم . الكتب المدرسية ، فنحن نستهدف القارىء العام والمتخصص والباحث ولكننا لانشترى أو نبيع كتباً مدرسية أبدا .

●●●

وبعـــــــــد . .

فإن أشهر باعة الكتب القديمة نجدهم على سور الأزبكية فى القاهرة ، وهؤلاء رواد ، رؤوس أموالهم قليلة ومع ذلك كانت توجد لديهم مجموعات نادرة من الكتب .

ومع زحف الكتب الخفيفة ، والروايات البوليسية « لأجاثا كرستى » وشرلوك هولمز وأرسين لوبين وجيمس بوند وغيرهم ، وانتشار شرائط الكاسيت تحول هؤلاء الباعة بالتدريج الى بيع هذا النوع من الكتب فهى أرخص ودورة المال أسرع ، والربح القليل يتجمع .

ولكن أختفت ، أو كادت ، تلك الـظاهـرة الحلوة ، وهى بيع كتب المكتب الخاصة التى كانت تفيد باحثاً ، هاويا يبحث عن كتاب بالذات .

وظاهرة باعة الكتب على سور الأزبكية لابد أن تتكرر فى العواصم العربية مع تغيير أسلوبها بأن يكون لباعة الكتب القديمة مكان خاص توفره لهم الدولة ، بحيث يكون لكل بائع مكان أكبر أو أصغر حسب ما لديه من كتب وتساعدهم الدولة بعرض كتبهم القديمة فى معارض الكتب السنوية .

ويمكن أن يتجمع هؤلاء الباعة فى جمعية تعاونية تستطيع برأس مال أكبر أن تؤدى خدمة ضخمة لأصحاب الكتب ولراغبى شرائها أيضا . وهذه الخدمة نحن فى حاجة إليها مع انتشار التعليم وكثرة المتعلمين وإقبال المرأة على القراءة .

وهناك كتب نفدت ولايوجد من يريد إعادة طبعها ولكن يوجد آلاف يتمنون قراءتها .

وفى صحف ومجلات كثيرة فى الخارج توجد أبواب للكتب القديمة يعلن أصحابها عن حاجتهم لكتاب بالذات ، ويعلن آخرون عن بيع كتب معينة لايريدونها فإن الإعلان عن كتاب قديم جيد يحقق مصلحة كبيرة للفرد وللمجتمع أيضا .

وفى ألمانيا الغربية تصدر الصحف ملاحق فى نهاية الأسبوع عن السيارات القديمة وأرقام تليفونات أصحابها ، وهذه هى الوسيلة الأسرع للبيع .

وقد بدأوا الآن يخصصون صفحات ـ لا ملاحق ـ للكتب القديمة . ولا يخجلون من بيع هذه الكتب والإعلان عن ذلك . أما فى العالم العربى فإن المثقف يخجل من بيع كتاب لأنه يعتقد أن ذلك إعلان عن فقره أو أعلان للكافة بأنه قد زهد الكتابة والكتب ، وننسى أن بيع كتاب يفيد قارئاً مهما .

وبائع الكتب القديمة يحقق مصلحة عليا للجميع ولا يخجل من مهنته بل يفاخر بها .

ولكن أغرب ما فى الحكاية أن بعضا من باعة الكتب على سور الأزبكية لايجيدون القراءة والكتابة بل ـ كما يقول المثل الشعبى المصرى ـ « يفكون الخط » أى يقرأون ويكتبون بصعوبة ، ولكن لديهم وعى كامل بقيمة الكتب ، وهم خبراء فى علم النفس يعرفون المثقف من غيره ويعرفون أهمية الكتاب ويقدرون ثمنه ، عندما يحاول المثقف أن يظهر عدم الاهتمام به ، وأنه يشتريه بلا مبالاة مع أنه يبالى ولولا ذلك ما وقف عند هذا السور العتيد !

الخـــلود . . فى مكتبة

دهش الجالسون فى المطعم يتناولون عشاءهم عندما تقدمت سيدة إلى رجل يجلس وحده تقول فى صوت حاد :

ـ لم تركتنى . لماذا لم تطلب منى مالا ؟

توقف الرجل العجوز عن الطعام ووقف أمامها يقول فى أدب جم :

ـ معذرة ياسيدتى . لقد نسيتك فاعذرينى لهذا الخطأ . . وهأنذا أطلب منك، أى شىء .

قالت السيدة وهى تنصرف غاضبة :

ـ سأبعث إليك بشيك غدا ، فقد نسيت دفتر شيكاتى .

ولم يعرف أحد اسم السيدة

ولم يعرف أبدا ما إذا كانت قد تبرعت أم لا . . ولكن رواد المطعم أقبلوا على الرجل يعتـذرون ويوقعون على شيكات بمبالغ مختلفة، فإن الرجل هو أستاذ التاريخ السابق بجامعة بنسلفانيا والرئيس الجديد لمكتبة مدينة نيويورك ، الذى شاهد الجميع صوره على شاشة التليفزيون .

وهـذه القصـة تبـدو كما لو كانت لقـطة سينـمائية أو مشهدا فى إحدى الحلقات التليفـزيونية ولكن الـدكتور جريجوريان يكررهاللحاضرين فى الاحتفال الذى شهدته بمناسبة العيد الخامس والسبعين للمكتبة .

ولـولا أنى دعيت مع أساتذة التاريخ الأمريكى لما استطعت الحضور فإن قيمة الاشتراك فى المائدة الواحدة فى حفل العشاء الذى أقيم فى المركز الرئيسى للمكتبة عند تقاطع الطريق الخامس مع الشارع رقم ٤٢ بلغ ألف دولار .

وقـد حرص جريجوريان على رفع قيمة الاشتراك للحصول على أكبر دخل ممكن للمكتبة ليعاونها على اجتياز الأزمة المالية .

وكانت المكتبة تعاني ضائقة شديدة عندما تولى أستاذ التاريخ منصبه قبل سبع سنوات ، وقد استطاع بمآدب العشاء والغذاء أن يجمع ٧٧ مليون دولار لتجديد المكتبة وتعيين الأمناء اللازمين . ولكن المشكلة المالية لاتزال قائمة فالمكتبة تحتاج الى ١٥ مليون دولار سنويا والتبرعات الحالية لاتزيد على مليون ونصف مليون دولار فى كل عام .

ومكتبة نيويورك تختلف عن كل مكتبات العالم . نشأت كمكتبة خاصة تبرع لها اثنان من أهل المدينة بكل مالديهما من الكتب . وتبرع ثرى ثالث بالمال . وهكذا كانت البداية .

والآن للمكتبة ٨١ فرعا فى جميع أنحاء المدينة تنفق عليها بلدية نيويورك ، ولكن ٣ مكتبات للأبحاث والمبنى الرئيسى تعتمد على التبرعات الخاصة وأيضاً لدفع مرتبات العاملين وشراء كتب بثلاثة آلاف لغة .

والمركز الرئيسى يقف وسط شارعين ويقطعهما . وهو المبنى الوحيد من نوعه فى نيويورك الذى يعترض امتداد شارعين . يقف أمامه تمثالان حجريان لأسدين أشبه بأسدى كوبرى قصر النيل الشهير فى القاهرة ويختلفان عنهما فى أن أسدى نيويورك يرتديان القبعة العالية .

وقد عانت المكتبة من الأزمة الخانقة التى عصفت بميزانية بلدية نيويورك فاضطرت فروع كثيرة إلى فتح أبوابها ثلاثة أيام فى الأسبوع وفروع أخرى بلا أجهزة تكييف فتغلق فى أيام الصيف الحارة .

ولم تستطع فروع كثيرة إنشاء مداخل بلا سلالم حتى يمكن أن يعبرها المعوقون من أصحاب الكراسى ذات العجلات .

وجاء جريجوريان ليعتمد على المتبرعين يناشدهم .

ورغم أن التبرعات كانت صغيرة للغاية فى البداية إلا أنه دعا ستة آلاف من هؤلاء المتبرعين إلى حفل استقبال بدار المكتبة وصافح كلا منهم .

وكان لهذه العملية صدى ضخم فى المدينة فزادت التبرعات .

ولجأ إلى إقامة المآدب الضخمة للأثرياء . وجعل قيمة الطبق الواحد ألف دولار .

وكانت مأدبة القمة فى العيد الماسى عندما جعل ثمن مائدة العشاء ٢٥ ألف دولار !

وإذا كانت المكتبة تختلف عن غيرها بالنسبة للموقع فإنها تختلف عن غيرها فى الكتب التى تحتويها .

لقد اتفق الأساتذة والخبراء على أنها آخر ملجأ فى العالم يتجه إليه الانسان إذا عجز عن الاهتداء إلى المرجع النهائى فى ٦٦ موضوعا منها الهندسة والمحركات وتاريخ السود ولعبة البيس بول وبراءات الاختراع .

وفيها مليونا صورة .

أما الخرائط فلا حصر لها ، ويمكن أن تجد فيها شوارع أية عاصمة أو مدينة كبرى فى العالم .

وتفتح مكتبة الابحاث ٨٧ ساعة كل أسبوع لتناسب مواعيدها أى فرد يريد الاطلاع على شىء . ويقولون إن المهاجرين إلى الولايات المتحدة الذين يصلون إليها مفلسين يتلقون أول مراحل التعليم فى مكتبة نيويورك .

وفى هذه المكتبة نشأت أفكار اختراعات جديدة جريئة .

إدوين لاند مخترع كاميرا « البولاريد » وجد الفكرة الأولى وهو يطالع فى قاعة الابحاث .

وريبلى مؤلف كتاب « صدق أو لاتصدق » عاش ٥٣ سنة يقضى سبعة أيام كل أسبوع فى هذه المكتبة يجمع مادة كتابه .

وكل الذين طالبوا بتعويضات عن خسائر الحرب الثانية ، أو قبل ذلك . . جمعوا المستندات من خلال أدلة التليفون فى وارسو وبرلين وبودابست فى الثلاثينات وحتى انتهاء الحرب ، وهى توجد داخل المكتبة .

ويقولون إن رجلا من نيوجيرسى أمضى ١١ سنة يتابع أسماء قتلى الحرب الأهلية الأمريكية من مواطنى ولايته ليثبت أن عدد الضحايا كان ضخما . . وبالفعل أصدر دليلا يضم أسماء ٥٠ ألف قتيل من نيوجرسى .

والسبب فى تعدد لغات الكتب أن مدينة نيويورك فيها أشخاص جاءوا من دول كثيرة : ولذلك فإن كل كتاب تشتريه المكتبة يجب ـ إن أمكن ـ أن يكون قد ترجم إلى سبع لغات عدا الانجليزية لإرضاء سكان المدينة الذين جاءوا من أصول يونانية وإيطالية وأسبانية . . إلخ .

والكتب مدرجة فى قوائم يضمها عقل ألكترونى . . ومع ذلك فإن ٤٠٠ ألف كتاب وضعت على الأرض لم تسجل أسماؤها بعد فى كتالوجات لأنه لامكان لها على الرفوف .

ومع ذلك يفكرون الآن فى إقامة دائرة تليفزيونية مغلقة تربط المركز الرئيسى بالفروع حتى يستطيع أى فرد أن يعرف فى أى فرع يوجد الكتاب الذى يطلبه . وهل استعاره أحد أم لايزال على رف فى هذا الفرع أو ذلك . وماهو المرجع المناسب إذا كان القارىء يبحث فى موضوع معين !

والأغرب من ذلك أنهم يريدون شراء إيريال ضخم حتى يمكن الاتصال بأية بلد ، وبأية مكتبة فى العالم لمساعدة الباحث فيما يطلب .

ويحاول «جريجوريان» أن يعوض الخطأ الذى وقع فيه عندما أقام الحفلات الراقية التى تجمع ألوف الدولارات فى الليلة الواحدة . فقد قال له كثيرون كما فعلت سيدة المطعم :

ـ وما حاجتك إلينا ونحن فقراء . عندك الأغنياء يمدونك بما تطلب من المال .

ومن هنا فإنه يحرص على أن يوجه خطاب شكر شخصى لكل من يقدم مالا أو كتابا .

وهو يقول :

ـ هل تعلمون ماذا كلفتنى هذه المآدب . . لقد زاد وزنى أكثر من ١٥ كيلو جراما إذ أضطر لتناول الطعام مجاملة للحاضرين .

وإذا كان وزنه قد زاد فإن مجموعة الكتب أيضا قد تضاعفت ولكنها مهددة بفقد معظم الكتب الصادرة قبل عام ١٨٥٠ .

المادة التى صنع منها ورق هذه الكتب لاتتحمل مناخ المكتبة وجوها وظروفها ولذلك بدأ الورق يتجعد وينكمش ويبلى حتى أن بعض الكتب أصبحت « كالبودرة » .

ومن هنا فلابد من الاستعانة بمواد كيماوية لحفظ هذه الكتب ثم تصويرها على الورق وعلى شاشات العقول الألكترونية .

وقد قيل له :-

- مالذى يدعوك لهذا الجهد ، أو الاستمرار فيه ولست من سكان نيويورك ومواطنيها . إن أحدا غيرك لم يفعل مافعلت .

قال :

- لأنى مؤمن بشىء واحد . وهو الخلود .

قيل له :

- ولكن الخلود أن تؤلف . . أنت . . كتابا .

قال :

- لا .

وأضاف :

- الخلود الحقيقى لايوجد إلا فى مكتبة . . أية مكتبة . . إنها الذاكرة الجماعية للبشرية وللانسانية . . وأعتبر نفسى أستاذا فاشلا للتاريخ إذا لم أقنع الناس بأن المكتبة هدف يستحق أن يعيش الإنسان من أجله .

●●●

وفى العالم العربى تقام الحفلات لتكريم اشخاص . وتجمع التبرعات لإقامة المستشفيات وغير المستشفيات . ولكننا لم نسمع عن إنسان يهب نفسه لبناء مكتبة أو المحافظة عليها، ويقيم الحفلات الغنائية من أجلها . . وفى سبيل الخلود والاحتفاظ برصيد الفكر العربى وما أكثره وأعمقه مع أن أول مكتبة عامة متنقلة قامت . . هنا . . فى الشرق .

وهى أغرب مكتبة فى العالم أيضا . وضعت الكتب - ١١٧ ألفا - نسخت بخط اليد على ظهر ٤٠٠ جمل تتبع الوزير أبو القاسم إسماعيل فى الصحراء ، حيث يسير .

ورتبت الكتب حسب الحروف الهجائية لسهولة الاطلاع والاستدلال قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألف عام .

وانتشرت المكتبات بعد ظهور المطابع ، وأصبحت قاعدة أن يودع الناشر - نسختين أو أكثر - من كل كتاب يصدر فى المكتبة العامة الرئيسية فى العاصمة .

وانتقلت المكتبات العامة من بلادنا إلى بلاد أخرى ، فأصبحت مكتبة الكونجرس فى وشنطن أكبر مكتبات العالم أقيمت على أرض مساحتها ٦٤ فدانا وتضم ٢٠ مليون كتاب ، وطول رفوفها ٨٥٦ كيلو مترا . وتعمل بالعقول الاليكترونية .

أما المكتبة البريطانية فى لندن ، وقد اشتهرت باسم مكتبة المتحف البريطانى فتحفظ فيها أيضا الأعداد التى تصدر من ٩٠ ألف صحيفة .

وتضاف إليها سنويا ٧ كيلو مترات من الرفوف للكتب الجديدة .

زرت هذه المكتبة ـ ولها ١٦ فرعا فى لندن ـ وكنت مضطرا للعودة إلى القاهرة فى اليوم نفسه وأمامى كتاب يجب أن أطالعه ولا أستطيع إتمامه فقد اقتربت الساعة من العاشرة مساء والمكتبة ستغلق .

أخذت أتجول فى الأقسام المختلفة ، أدخل وأخرج ، وأخضع لإجراءات الأمن الدقيقة فاقترب منى أحد رجال الشرطة يسألنى بابتسامة :

ـ مارأيك ؟

قلت يائسا :

ـ أفكر فى سرقة هذا الكتاب .

قال :

ـ عرفنا ذلك من رؤية وجهك على دائرة التليفزيون المغلقة . . فزادت الرقابة حولك .

وأضاف :

ـ تستطيع هذه السكرتيرة أن تصور لك كل الكتاب فى دقائق . . وبقروش .

وعرفت يومها ـ لأول مرة ـ أن كل المكتبات الكبرى تصور الكتب والصحف لمن يرغب فتحصل على إيراد ضخم ، وتوفر على المثقفين مشقة السرقة والقبض عليهم متلبسين بسرقة الفكر . . ماديا !

● ● ●

ولاتوجد وسيلة لتشجيع القراء سوى المكتبات العامة ، فهى لاتتقاضى مالا لمن يقرأ الكتب داخل قاعات المكتبة . ويطلب بعضها تأمينا لمن يستعير الكتب خارجها .

ويدفع القارىء ثمنا فى حالتين :

الأولى : إذا تأخر فى رد الكتاب عن موعده المقرر حتى يلتزم الجميع لصالح الجميع فلا يستأثر أحدهم بكتاب .

وهذه القاعدة مطبقة فى مكتبات المعاهدة الأجنبية .

وهناك حالات صارخة ـ قياسية ـ للتأخير .

رد أحدهم لجامعة «سينسناتى» الأمريكية كتابا عام ١٩٦٨ استعاره أحد أجداده قبل ١٤٥ سنة فطالبته مكتبة الجامعة بمبلغ ٢٦,٦٤٦ دولار مقابل التأخير فاعتذر قائلا :

ـ إن جده مسئول ولم يترك ميراثا .

فكرت الجامعة فى إقامة دعوى ضد ورثة الجد القارىء .

وفكرت الجامعة أيضا فى منع الأسرة كلها من استعارة الكتب .

وكان هناك مؤيدون لحرمان الأسرة .

وكان هناك من دافع عنها قائلا إنها ردت الكتاب فلها فضل .

وأخيرا عدلت الجامعة عن الحرمان وعن العقاب باعتبار أن الدوى الذى أحدثه التأخير حقق الأثر المطلوب عند باقى القراء .

●●●

وقام حريق فى منزل وكيل نيابة فى نيويورك .

أسرعت فرق الإطفاء لتنقذ ١٥ ألف كتاب استعارها وكيل النيابة مستغلا نفوذه دون أن تكون لديه بطاقة استعارة من المكتبة .

وكان دفاع وكيل النيابة المتهم أنه قارىء هاو لكتب القانون يريد الرجوع إلى كل هذه الكتب فى وقت واحد .

قيل لوكيل النيابة .

ـ كنت تستطيع العودة إلى بعضها داخل مكتبة نيويورك .

رد قائلا :

ـ هذه ليست مكتبة مثالية .

قالوا له :

ـ بعد كل مافعلنا تهاجمنا ـ وما المكتبة المثالية فى رأيك ؟

أجاب :

ـ هى المكتبة الانسانية التى يستطيع فيها الانسان أن يدخن وهو يقرأ ، لأن التدخين ممنوع فى قاعات القراءة فى كل المكتبات العامة خوفا على القراء والكتب ويستطيع الانسان أن يحتسى قدحا من الشاى أو القهوة ، ويقلب صفحات الكتاب بصوت مسموع ، ولايعامل الكتب كأنها وسائل نقل مقدسة لنقل العلم والمتعة والمعرفة .

قال له مدير المكتبة متسائلا فى دهشة :

ـ وأين هذه المكتبة .

أجاب وكيل النيابة المتهم :

ـ مكتبة الانسان الخاصة فى بيته . . ولذلك جئت بهذه الكتب لأطالعها بطريقتى المفضلة !

ولا دليل على صدقه سوى أن الكتب مرتبة أنيقة لم يمسها سوء إلا أن الحريق كاد يلتهمها جميعا بعد أن عجز عقل وكيل النيابة عن الاحتفاظ بها .

قيل له :

ـ وهل تعرف مزايا القراءة داخل المكتبة العامة .

قال :

ـ لاتوجد مزية واحدة .

قال مدير المكتبة :

ـ أنت مخطىء ، فى المكتبة العامة تحس بأشباح المؤلفين وأبطالهم تحيط بك وتلهمك .

أما فى المكتبة الخاصة فإنك لاتقرأ إلا بين برنامجين أو حلقتين ، على شاشة التليفزيون أو عندما تهرب إلى الكتاب بعد مشاهدة فيلم على شريط فيديو يمثله فنان .

وهناك فرق ضخم بين الكاتب والفنان ، من يؤلف الكتب ومن يؤلف أغنية أو لحنا .

المؤلف يحصل من الناشر على مبلغ معين مقابل حق نشر أى كتاب .

وإذا كان المؤلف شهيرا فإنه يأخذ نسبة من ثمن بيع الكتاب للقراء . . وهذه النسبة تتراوح بين ١٠ و ٢٥٪ حسب شهرة الكاتب .

واذا أعيد طبع الكتاب مرة أخرى فان نسبة دخل المؤلف تزيد ، أو تنقص ، على أساس اسمه وقدرته على المساومة فى أغلب الاحوال .

أما الفنان فيتمتع بمزايا كثيرة .

مؤلف الأغنية ، أو المقطوعة الموسيقية ، وملحنها يحصلان على أجرهما من المغنى ، أو المغنية . والمغنية تبيع أغنيتها للإذاعة وشركة الاسطوانات ومحطة أو محطات التليفزيون .

وكلما أذيعت الأغنية فى إحدى الاذاعات أو فى التليفزيون فإن المؤلف والملحن ينالان أجرا فى كل مرة يدفع لهما فى نهاية العام بواسطة جمعية المؤلفين والملحنين فى باريس ، أو فروع هذه الجمعية فى الدول المختلفة .

وبهذه الطريقة يجد الفنان وورثته دخلا سنويا ثابتا .

وفى العالم العربى يقل دخل الكاتب نظرا لأنتشار الأمية وارتفاع ثمن الكتب بالقياس إلى دخول القراء مما يجعل توزيع الكتب محدودا .

●●●

ومنذ نصف قرن والكتاب فى كل مكان يبحثون عن وسيلة لزيادة دخولهم وظلت المعركة قائمة بينهم وبين الناشرين الذين يفضلون مشاهير الكتاب لسرعة توزيع مؤلفاتهم فيسترد الناشرون أموالهم . . مع الأرباح .

وتدخلت الدول بشراء حقوق التأليف من بعض الكتاب ، وطبع كتبهم ، أو بتقديم دعم للكتاب والتوسع فى منح الجوائز .

ولكن الكتّاب لم يكتفوا بذلك . وطالبوا الدول بمعاملتهم أسوة بالفنانين فقالوا إنه يجب منحهم أجرا عن كل كتاب يطالعه قارىء فى أية مكتبة عامة كما يحدث للفنان عندما تذاع أغنيته وألحانه فى الاذاعات والتليفزيون .

وقد وافقت إنجلترا أخيرا على تطبيق هذه القاعدة التى تعتبر تطورا خطيرا لصالح المؤلفين .

وافق وزير الفنون البريطانى اللورد جورى على اعتماد مليونى جنيه لهذا الغرض .

واختار عشرين مكتبة عامة تعير الكتب للقراء فى البيوت ، أو تسمح لهم بمطالعتها ، داخل المكتبة .

ورأى تطبيق ما يحدث فى هذه المكتبات العشرين على مكتبات إنجلترا بعد نجاح التجربة .

وخصص أقل من قرش واحد ـ على وجه التحديد ٩٢٪ من القرش ـ للمؤلف عن كل مرة يطالع فيها كتابه أحد القراء .

وطلب من المؤلفين الذين يريدون الحصول على دخل من هذه العملية أن يتقدموا بطلبات رسمية . . فتقدم ٩٣٩٥ كاتبا .

وقال إنه سيستفيد من هذه العملية المترجمون وجامعو المقالات ، ولكن دخل هؤلاء ٣٠٪ و ٢٠٪ فقط من القرش .

وقال إن الكتاب الأجانب الذين يقيمون فى إنجلترا يستفيدون أيضا .

وخصص ١٥ موظفا للاشراف على التنفيذ وعقلا أليكترونيا يتولى القيام بالعملية الحسابية لتحديد دخل كل كاتب .

●●●

وقد أفاد من هذه العملية فى العام الماضى ٧٦٨٠ كاتبا وحرم ١٧١٥ كاتبا لم يحصلوا على النسبة المطلوبة من القراء .

وكان متوسط ماحصل عليه كل كاتب ٢١٦ جنيها .

ونال ٤٧ كاتبا مبلغ ٥٠٠٠ جنيه .

وبعض هؤلاء من مشاهير الكتاب فى بريطانيا ، وإن كان أغلبهم غير معروف فى العالم العربى ، وهم جيفرى أرشر وبريان الريس وكاترين كوتسون وبربارا كارتلاند .

ولعل هذا يدفع القائمين بأعمال الترجمة فى العالم العربى إلى الاهتمام بأسماء الـ ٤٧ كاتبا لترجمة ما يصلح من كتبهم للقراء العرب .

وتبين أن هناك كتابا لايتمتعون بالشهرة ومع ذلك فإن القراء فى المكتبات العامة يستعيرون كتبهم ، ويطالعونها بكثرة ، لأن قارىء الكتب فى المكتبة العامة يختلف عن القارىء الذى يشترى الكتب . . لكل مزاجه ورغباته وميوله عند شراء الكتاب أو عند استعارته .

ومن خلال العقل الأليكترونى استطاع وزير الفنون البريطانى أن يعرف رغبات القراء لتشجيع حركة النشر . كما عرف الناشرون مالم يكونوا يعلمونه عن القراء الفقراء .

ورغم أن المبلغ الذى حصل عليه المؤلفون ـ فى المتوسط ـ يعتبر متواضعا إلا أنه بداية ستزيد بعد أن رفع الاعتماد المخصص لهذا الغرض إلى مبلغ ٢,٧٥٠,٠٠٠ جنيه .

قال لى الاستاذ محمود لطفى مستشار جمعية المؤلفين والملحنين فى مصر إنه لابد من تطبيق هذه القاعدة التى اتبعت فى بريطانيا على المؤلفين فى العالم العربى .

وقال لى إن الفنان العربى أسعد حظا من الكاتب العربى والغربى أيضا .

وأضاف ساخرا إن المغنى أو المغنية ينال أجرا ضخما إذا غنى فى حفل عام أو خاص .

وقال إن مؤلف وملحن الأغنية ينال كل مهما مليمين فى الدقيقة الواحدة من الاذاعة المصرية فى مرة تذاع فيها أغنيتهما .

ويرتفع هذا الأجر إلى ٣٠ مليما للمؤلف والملحن عن الدقيقة الواحدة فى التلبفزيون .

ويخصص التليفزيون ١٨ ألفا من الجنيهات لهذا الغرض .

ولكن المؤلفين والملحنين يحصلون على مبالغ أخرى من الاذاعات ومحطات التليفزيون العربية والغربية بمعدل ٣ جنيهات عن الدقيقة الواحدة .

وتدفع الاذاعة البريطانية ـ مثلا ـ لجمعية المؤلفين والملحنين المصرية ٣٠ ألف جنيه سنويا ـ وبهذه الطريقة ترتفع المبالغ التى توزع على المؤلفين والملحنين فى العالم العربى إلى ٥٠٠ ألف أو ٦٠٠ ألف جنيه سنويا .

وأشهر الملحنين الذين يحصلون على دخول من حق الأداء العلنى ، السنباطى ٣٠

ألف جنيه سنويا ـ لأنه لحن أغانى أم كلثوم ويليه محمد عبد الوهاب ٢٩ ألفا وبليغ حمدى ٢٧ ألفا .

وهناك نسبة معينة للموسيقى التصويرية فى الأفلام السينمائية تدفعها دور السينما التى تقدم هذه الأفلام ، كما تدفع أيضا مقابل الأغانى التى تذاع قبل بدء العرض وأثناء الاستراحة . ويحصل جمال سلامة على ٢٢ ألف جنيه سنويا فى المتوسط ويليه فؤاد الظاهرى ١٠ آلاف جنيه سنويا .

ولايقتصر حق الأداء العلنى على الإذاعة والتليفزيون بالنسبة للمؤلفين والملحنين بل إن شركات طبع الشرائط المسجلة تدفع ٤٪ من صافى الايراد للمؤلف ومثلها للملحن وحصيلة ذلك للجمعية المصرية يصل إلى ربع مليون جنيه .

بل إن كل محل عام وناد ليلى فى أى فندق مصرى يدفع مبلغا ثابتا للجمعية مقابل حق الاداء العلنى .

●●●

ومع انتشار الفيديو يطالب الفنانون بالحصول على نسبة معينة من شركات تأجير أفلام الفيديو عن الأفلام والأغانى للحصول على حق الأداء العلنى .

وقد أصدرت المحكمة العليا فى الولايات المتحدة حكما بإلزام صاحب إحدى شركات تأجير أفلام الفيديو بأن يدفع لمؤلف أغنية مبلغا نظير الاداء العلنى .

وحكم المحكمة العليا فى أمريكا نهائى ولذلك فإنه سيلزم كل شركات الفيديو .

وجرت العادة على أن أحكاما مماثلة تصدر من القضاء الأوربى فى أعقاب صدور حكم المحكمة العليا الامريكية فى القضايا المتشابهة .

●●●

وقد بدأ حق الأداء العلنى للمؤلفين والملحنين فى فرنسا عام ١٨١٥ . ومن فرنسا انتقلت الفكرة إلى باقى دول اوربا وأمريكا .

وعندما استقلت الدول العربية التى استعمرتها فرنسا ، فى شمال أفريقيا ، أصدرت تشريعات مماثلة لحماية حق المؤلف والملحن .

وقامت جمعية المؤلفين والملحنين فى مصر عام ١٩٥٤ وصدر أول تشريع عام ١٩٥٥

وفى الوقت نفسه تدفع بعض الإذاعات العربية للجمعية الفرنسية فى باريس مبلغا مقابل الاغنيات الاجنبية التى تقدمها الاذاعات التى تنطلق من العواصم العربية ، وكذلك محطات التليفزيون . ولكن هذه المبالغ تعتبر قليلة كما أن الميزان لصالح الفنان العربى الذى تحتاج لصوته وكلماته وألحانه المحطات الاجنبية التى تقدم إذاعات وبرامج عربية .

●●●

وبقى الكاتب مهضوم الحقوق فى حق الأداء العلنى فى العالم كله حتى وجهت اليه الاهتمام وزارة الفنون فى بريطانيا .

وما فعلته هذه الوزارة يعتبر بداية على طريق تصحيح الأوضاع ، أو بداية إنصاف لذلك الانسان الذى يحيا من فكره وقلمه .

وفى العالم الغربى يستطيع الكاتب أن يتفرغ للكتابة ليحصل على دخل من كتبه إذا راجت وانتشرت . ومع ذلك فكرت وزارة الفنون فى إصلاح اجتماعى محدود لصالح هذا الكتاب ، أما فى العالم العربى فإن الكاتب لايستطيع أن يتفرغ للتأليف ولابد أن يعمل فى الصحافة أو الاذاعة والتليفزيون ، أو فى وزارة الاعلام أو التدريس أو أى عمل آخر ليتقاضى مرتباً ثابتا يعينه على الحياة وإلا مات جوعا إن صح هذا التعبير !

ومن هنا لابد من نظرة حديدة لتشجيع الكتاب بتقرير حق المؤلف فى مبلغ محدد عن كل كتاب يستعيره قارىء .

ولكن عدد المكتبات العامة فى الدول العربية قليل ، ولابد من زيادته والتوسع فى إنشاء المكتبات فى المدارس والكليات الجامعية لتضم كتبا عامة خارج النطاق المدرسى والجامعى لتتسع مدارك الطلاب .

●●●

وإذا كانت المكتبات تشجع القراءة فإن « نادى الكتاب » الذى قام عام ١٩٢٦ لأول مرة يساعد على نشر الكتب .

وقد تعددت هذه الأندية وأصبحت تحمل اسماء أخرى مثل « نادى كتاب الشهر » .

وأعضـاء النـادى يدفعون اشتراكات سنوية مقابل حصولهم على الكتب بأسعار مخفضة للغاية ، وفى طبعات شعبية ، كما تقدم الأندية كتابا أو أكثر مجانا لكل عضو يشترى كتابين أو ثلاثة .

وفى هذه الأندية محكمون من كبار النقاد والادباء يختارون كتابا كل شهر . . ومن هنا جاء اسم النادى .

وترحب دور النشر بهذه الأندية لأن اختيار كتاب يعنى رواجه وزيادة مبيعاته .

وتـدفـع الاندية أيضا لدور النشر مبالغ ـ أحيانا طائلة ـ مقابل السماح بإصدار الكتاب فى طبعة شعبية لأعضاء الاندية .

وأكبر مبلغ دفعه ناد كان لكتاب آرثر شليزنجر عن « روبرت كيندى وعصره » أما المبلغ فهو ٧٢٥ ألف دولار .

وأهم ما تحققه هذه الأندية أنها ترسل الكتب الفائزة المختارة لقراء فى مناطق نائية لاتوجد فيها مكتبات عامة ، أو متنقلة أو مكتبات تبيع الكتب .

ولايوجد دليل على تراجع القراءة وانحسار مدها من انتشار أندية الفيديو فى كل مكان من عالمنا العربى كله فى حين لايوجد ناد واحد للكتاب .

وقد أصبح قيام وانتشار أندية الكتب فى بلادنا ضرورة فى مواجهة التليفزيون وافلام الفيديو أو لإقامة نوع من التوازن معها .

وفى بعض الدول يستغلون التليفزيون للدعاية للكتب .

المذيع على الشاشة يقرأ فقرات ثم يقول للمشاهدين :

ـ هذه لقطات من كتاب كذا .

أو يقدم التليفزيون مشهدا تمثيليا من الكتاب ثم ينصح الناس بقراءة الكتاب .

وهذا كله نجح جزئيا فى الدول التى انخفضت أو تلاشت فيها نسبة الأمية .

وفى الدول النامية لابد من وسائل أخرى كثيرة أهمها الدعم بكل الطرق .

وإذا كانت الحكومات تدعم المواد الغذائية ، وورق الصحف ، والكتب فإن دعم أندية الكتاب لايقل فائدة .

ومن الصعب فى البداية جمع العدد اللازم من الأعضاء لإقامة ناد واحد للكتاب

فى حين تعدد الأندية فى معظم دول الغرب ، فلا بد من مساعدة حكومية لتأجير مقر ، وتشجيع شراء الكتب من المؤلفين والناشرين .

بل أن من واجب الناشرين أيضا المساعدة على تأسيس هذه الاندية لأنه على المدى البعيد ، تتحقق فائدة ضخمة للمؤلفين والناشرين من تعدد الأندية . . وخلق المناخ الفكرى الذى تسعى إليه الدولة .

قبل الحرب العالمية الاولى كان ينشر فى ألمانيا سنويا ٧٠٠ كتاب عسكرى فى حين لاينشر فى إنجلترا سوى ٢٠ كتابا فقط فى الشئون الحربية، وبذلك وجد مناخ ورأى عام فى المانيا ينادى بالحرب ، ويطالب بها ، ويشجع عليها . . فلما أعلنت المانيا الحرب أيدها الرأى العام وإن ندم ساعة الهزيمة .

ويمكن للحكومات أن توجه قيادات الاندية لا فى اختيار الكتب الفائزة فحسب ، بل فى تشجيع نشر الكتب الأدبية ، والاقتصادية والتى تسمو بأفكار القراء .

وفى بلاد ، كالمجر ، تحصل الحكومة على نسبة مئوية من توزيع الروايات تخصصها لنشر الكتب الأخرى ، العقائدية ، لتوفير المناخ الفكرى الذى تسعى إليه الدولة .

وهم يعللون ذلك بأن من يقرأ رواية يجب أن يدفع لنشر كتاب غير روائى . . أو كتاب جيد !

●●●

وقد تبين أن أندية الكتاب ، وأندية كتاب الشهر أحدثت انقلابا فى عالم النشر وأصبح ٢٠ فى المائة من الكتب يباع عن طريق هذه الأندية وبواسطتها .

●●●

وهناك وسائل كثيرة لنشر الكتب .

فى بريطانيا تجد لافتات على المبانى ، وضعتها البلدية تقول :

ـ هذا البيت كان يقيم فيه الكاتب فلان ، أو الشاعر فلان .

وعلى مبان أخرى لافتات تقول :

ـ هنا كان يوجد بيت فلان .

وفى فرنسا يحتفلون بمرور الأعوام على ميلاد أو وفاة مشاهير الكتاب والشعراء .

وتقام المآدب فى دور النشر بهذه المناسبة ويشهدها أحفاد المشاهير وعدد من القراء أعضاء أندية الكتاب وغيرهم .

والتليفـزيون والاذاعـة يحتفلان بالذكرى بطريقة لاتجعل المشاهدين والمستمعين يحسون بالملل .

ودور النشر تتضامن أحيانا بعرض مخطوطات الكتاب أو الطبعات الأولى من كتبهم .

وفى المكتبـات العـامة تعقد الندوات نقدا وتحليلا وإعجابا . لأنهم يعتقدون أن الفكرة يخدمها الأنصار والخصوم على السواء .

ولعل أطرف ما جرى فى فرنسا ، فى هذا الشأن حدث عام **١٩٢٦** .

ظل اعضاء الجمعية العامة ـ البرلمان ـ طول الليل وحتى الفجر يناقشون تخفيض الميزانية فأكلوا وشربوا على حساب الدولة بما قيمته **٣٥** ألف فرنك .

وبعد أيام وافقوا على اعتماد **٣٠** ألف فرنك للاحتفال بذكرى الكاتبة مدام سافينيه دون أن يأكل أحدهم ، أو يكلف الدولة ثمن كوب ماء واحد .

أبنـاء الاحتــلال

قال التلاميذ لمدرسة الفصل :

ـ لاداعى للدروس اليوم . دعينا نذهب عائدين إلى بيوتنا فأن آباءنا فى قلق .

قالت المدرسة :

ـ درس اليوم هام جداً .

قال التلاميذ ببراءة الصغار :

ـ وهل هو أهم مما يجرى عندنا .

قالت المعلمة :

ـ إنه متمم لما يحدث . ضعوا أمامكم كتاب التاريخ المقرر .

فتح الصغار الحقائب والأدراج وأخرجوا الكتاب .

قالت المعلمة :

ـ والآن مزقوا الصفحة رقم ٢٩ .

قال أحد التلاميذ فى دهشة :

ـ نمزق الكتاب . هل هذا معقول . ماذا أصابك ياسيدتى ؟

قالت المدرسة وهى تحاول كتمان مشاعرها :

ـ ليس هذا شأنك ، مزق الصفحة .

استنكر باقى التلاميذ ذلك . ولكن المعلمة أمسكت أحد الكتب ، فى غضب ، ومزقت الصفحة .

بكى التلاميذ وهم يقلدونها .

واستمرت المدرسة تقول :

ـ صفحة ٣٥ .

قال أحد التلاميذ ساخرا .

ـ لم يحدث هذا من قبل .

ومرة أخرى أمسكت المدرسة كتابا ومزقت الورقة ولكنها احتفظت بها أمامها لتأخذها معها .

وتبعها التلاميذ يمزقون الورقة فى أسى .

وتكررت العملية أكثر من مرة .

قالت المدرسة :

ـ أما فى الصفحة ٨٢ فلا داعى لتمزيق الصفحة . . . وأطمسوا بعض السطور .

وأخذت تملى أرقام هذه السطور .

قال أحد التلاميذ :

ـ كيف نفعل ذلك ؟

قالت المدرسة :

ـ بالقلم . بالحبر . لاتجعل سطرا واحدا يظهر .

قال تلميذ :

ـ تريدين أن نمحو تاريخ بلادنا ؟

قالت المدرسة التى انفجرت بدورها باكية :

ـ هذا ما أعنيه ، وأقصده . نعم من الآن يجب أن نمحو تاريخ بلادنا .

قال أول الفصل :

ـ لاحظت أنك تمزقين الصفحات والسطور التى تتحدث عن مجدنا القديم وعظمتنا الخالدة ؟

أجابت المدرسة :

ـ نعم . من الآن يجب أن يتغير التاريخ .

قال تلميذ :

ـ ولكن كل هذا جرى فيما مضى ، ولايملك أحد أن يمحو الماضى ، وأن يبدله . إنه جزء من تراثنا القومى .

قالت المدرسة وهى تنهى الحصة :

ـ إن تاريخ اليابان سيتغير ابتداء من الآن . الأسطول الأمريكى يرسو ـ هذه اللحظة ـ على شاطىء القرية . . قريتنا .

وغادرت الفصل دامعة العينين .

وجاءت مدرسة الرسم . قالت :

ـ هل جئتم بكل اللوحات التى رسمت طوال السنة .

قال التلاميذ متسائلين :

ـ كلها ؟

قالت المعلمة :

ـ ضعوا أمامكم اللوحات التالية : السفن الحربية . الطائرات الحربية . المعارك القتالية . الجيش اليابانى .

انهمك الطلبة فى جمع اللوحات قائلين :

ـ هاهى أمامنا .

قالت المعلمة :

ـ مزقوها تماما . اقطعوها . لاتجعلوا شيئا منها يظهر .

قال أول الفصل :

ـ يبدو أن المدرسة تريد إلغاء أعمال السنة تماما . فى الحصة الماضية محونا التاريخ . وفى هذه الحصة نمزق الجيش والطيران اليابانى !

قالت المدرسة :

ـ ما داموا قد انتهوا فى الواقع فلم لا ننهيهم فى اللوحات .

وغادرت المدرسة الفصل باكية .

ويتكرر المشهد طوال اليوم فى رواية « أطفال ماك أرثر » .

وماك أرثر هو القائد الأمريكى الشهير الذى انتصر على اليابان فى الحرب العالمية الثانية بعد إلقاء القنبلتين الذريتين على مدينتى هيروشيما ونجازاكى فاضطرت اليابان إلى الاستسلام وتم توقيع معاهدة بذلك مع الجنرال على ظهر السفينة الحربية الأمريكية « ميسورى » .

والرواية تقدم « أطفال ماك أرثر » أى الاطفال الذين ولدوا فى قرية للصيادين ، فإن الكاتب اليابانى « يو آكو » أراد أن يقدم التغيير الذى طرأ على الجيل الجديد فى بلاده بعد الاحتلال الأمريكى لليابان : وقد حول المخرج الشهير ما ساهيرو شينودا هذه الرواية إلى فيلم سجل أعلى الايرادات .

●●●

كان شينودا فى الرابعة عشرة من عمره يوم هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية .

وطوال سنوات الحرب ، وحتى فى شهورها الأخيرة قبل الهزيمة الكاملة ، كان الصبى الذى أصبح مخرجا ، يتوقع أن تتكرر المعجزة أو الأسطورة التى وقعت مرة واحدة فى تاريخ اليابان فى القرن الثالث عشر .

كان أسطول العدو يقترب من شواطىء اليابان والهزيمة مؤكدة فجاءت الرياح لتعصف بالأسطول المعتدى وتحطمه تماما .

وقيل أنها رياح انتحارية . . أى رياح مستعدة للانتحار والموت ولكنها عازمة على النصر ولو كلفها ذلك حياتها .

وظل الصبى مؤمنا بأن ماحدث فى القرن الثالث عشر سيتكرر فى القرن العشرين .

وعندما اقتربت الهزيمة بقى الصغير ينتظر معجزة لاتجىء .

أخذ يرقب التغيير فى المجتمع . .

القادة الكبار الذين قيل أنهم أسود لايقهرون ولايهزمون ، أصبحوا مجرمى حرب ، بعضهم أعدم .

والتاريخ اليابانى بتقاليده العريقة تبدل تماما .

وخلال أربعين عاما رأى شينودا أمامه شعبا جديدا يلعب البيس بول ، ويرقص على أنغام موسيقى صاخبة .

وجد المرأة اليابانية تتشبه بزميلتها الأمريكية . وانتهى عصر الجيشا والمجتمع القديم بحضارته وثقافته .

أخذ يتساءل :

ـ لماذا حاربنا . وكيف هزمنا . ومن المسئول ؟

وقرر أن يقدم رواية زميله فى الدراسة يو أكو الذى سبقه بست سنوات فى فيلم يصف ذلك كله، تجرى أحداثه فى قرية الصيادين المنعزلة التى لاتعرف إلا القليل عن الحرب ، وعن مساوىء الاحتلال الامريكى ، ليصور ماجرى عندما استسلمت اليابان .

●●●

تبدأ أحداث الرواية بإلقاء القنابل الذرية على المدينتين اليابانيتين وحطامهما، وتوقيع معاهدة الاستسلام . ثم تنتقل إلى القرية حيث يعيش الأطفال فى رعب بينما تعلمهم المدرسة أسرع الطرق للانتحار وهى تقول :

ـ الموت خير لكم بدلا من أن تصبحوا أسرى للأمريكيين .

ولكن الحرب تنتهى قبل أن يتعلم الأطفال باقى الدروس ، أو قبل أن يتقنوا فن « الكاميكاز » أى فن الانتحار على الطريقة اليابانية !

وتبدأ المدرسة تعلم الصغار كيف يمحون تاريخهم القديم .

ويتعلم الصغار كل ماهو أمريكى ، أو أسلوب الحياة على الطريقة الأمريكية ، فيرقصون ويغنون ويمضغون اللبان .

وتعزف الموسيقى صاخبة . بينما يعدم كبار الضباط والورزراء الذين قادوا اليابان إلى الحرب .

ويعد أحد الصغار ـ فى العاشرة من عمره ـ نفسه لمقاومة الغزاة وإعادة مجد بلاده ولكن اليابان لاتقاوم الغزاة .

وينتهى الدرس بأن يكرر كل طفل ـ داخل الفصل ـ جملة واحدة هى :

- أنا طفل أمريكى .

ويكون الفيلم نفسه جزءا مما جرى لليابان . أو هو نتيجة طبيعية للهزيمة ونفوذ هوليود على الشعب والسينما اليابانية ، والفيلم يحاول أن يقدم الهزيمة ويفسرها ويعرض نتائجها من خلال الصغار ، ومن خلال جندى يابانى عائد من ميدان القتال يحاول أن يتكيف مع الواقع الجديد فيدمن المخدرات ويحتسى الخمور الأمريكية ولايتوقف عن الرقص !

ولكن أحداث الرواية لاتنتهى باليأس .

إن المدرسة تقول لتلاميذها :

- اليابان صارت تحت الاحتلال ، ولكن أرواحنا ليست محتلة .

وتتجه اليابان ، كما تقول الرواية ، إلى الصناعة ومنافسة أمريكا اقتصاديا . فإن أطفال ماك أرثر لايحاولون أن يتفوقوا عسكريا !

●●●

ولقد اضاف شينودا إلى الرواية شخصية ضابط بحرى يابانى كبير برتبة «أدميرال» ابنته تحب البطل وهو الصبى الذى يحاول الاستعداد فى المستقبل ليرد الغزاة .

ويعدم الأدميرال ضمن مجرمى الحرب .

والأدميرال يمثل - فى هذه الحالة - سلطة الأب ، فهو الرجل القوى قبل الحرب وهو مثل كل الاباء اليابانيين - رجل ذو كبرياء ومهابة ولكنه ينهار مع الهزيمة ويصبح أبا عاديا يناديه الصغار :

- « دادى » . . أو يا أبى .

بعد أن كانوا يخاطبونه قائلين :

- ياسيدى !

إن الأدميرال يمثل اليابان نفسها ، وهو يحمل تاريخها على كتفيه . وقد رحل هذا التاريخ مع اختفائه ، وأصبح الجميع كما يقول البطل :

- كلنا أمريكيون .

قيل للمخرج الكبير :

ـ لماذا تهاجم الآباء ؟

قال :

ـ ان جيل أبى هو الذى خسر الحرب !

●●●

والكتاب المدرسى هدف كل جيش يحتل بلدا ، وهدف كل حكومة تريد أن تغرس فى الجيل الجديد عظمة بلاده وأنه يجب أن يسود .

حرصت الامبراطورية البريطانية على أن يكون الكتاب المدرسى ، فى التاريخ والجغرافيا ، ملهما لطلبة المدارس الابتدائية والثانوية للتمسك بالامبراطورية والمحافظة عليها . . والموت فى سبيلها !

منذ ١٥٠ سنة قدموا جوائز للطلاب الذين يكتبون موضوعات عن الامبراطورية .

ومنذ مائة عام بعثت الحكومة البريطانية بخطاب دورى إلى نظار المدارس الابتدائية والثانوية بضرورة تدريس تاريخ وجغرافيا المستعمرات البريطانية .

ومنذ تسعين عاما أوصت الجمعية الجغرافية الملكية بتدريس الجغرافيا الامبراطورية فى كل مراحل التعليم . . أى الجغرافيا التى تصور الامبراطورية وحدة واحدة لاتنفصم .

وقبل ثمانين سنة أنشأت « جمعية المكتبات » قسما للأدب الاستعمارى ، وجعلته مادة من مواد الامتحان لمن يريد أن يكون أمينا لمكتبة أو مساعدا للأمين .

وأصبح تدريس التاريخ إجباريا فى كل المدارس الثانوية وكان علما اختياريا يدرسه ربع الطلبة تقريبا .

ونص على أن يشمل التاريخ التجارة والأعمال أيضا .

واعترض أبناء الطبقة العاملة قائلين إنهم يفضلون أن يتعلم أبناؤهم الكتابة والحساب لا التاريخ . ولكن الحكومة ردت على اعتراضاتهم بأن هذا العلم حيوى لأستمرار الامبراطورية وحتى يجد كل بريطانى على مائدته مايحتاج إليه !

ومادام التاريخ قد أصبح موضوعا يدرسه الطلاب فإن الامر انتقل إلى نوع الدراسة نفسها .

تغير البرنامج الدراسى تماما وتغيرت الكتب المدرسية الخاصة بالتاريخ .

أضيفت موضوعات الحرب الأهلية الامريكية وتجارة الرقيق ، والتوسع الامبراطورى !

●●●

وفى التاريخ حروب كثيرة خاضتها بريطانيا .

والكتاب المدرسى يفسر الحروب بطريقة سياسية تتفق مع الهدف الذى تسعى إليه الدولة .

الحرب ضرورية ولابد منها . فالاطفال يتعاركون وهم يلعبون ، وكذلك الدول والشعوب . ولكن الحروب التى تخوضها بريطانيا أساسية لنمو الامبراطورية وهى سر عظمتها . إنها حتمية ضد المعتدين . وهى عادلة ودفاعية أيضا . وصورت للطلبة بطريقة غريبة !

حرب بريطانيا ضد ايران عام ١٨٥٥ اضطرت اليها بريطانيا بسبب مؤامرات روسيا .

والحرب ضد الصين عام ١٨٥٩ نتيجة غرور قوميسير صينى .

وحرب الأفيون التى أدت إلى أن أصبحت الصين سوقا لبيع الأفيون ألقيت مسؤليتها على حكومة الهند . . مع أن الهند كانت مستعمرة بريطانية .

وكل الحروب السبع التى خاضتها بريطانيا منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر كان هدفها تحقيق السيادة الامبراطورية لمصلحة إنجلترا ولمصلحة هذه الشعوب أيضا !

والحرب تقدم على أنها رواية مسلية .

والبطل فى كل الاحوال يجمع بين القوة العسكرية والدين .

وهناك مبالغة فى الرواية عن كل قائد بريطانى يقتل فى الحرب .

وكتب التاريخ تقدم قصصا مسلية عن أبطال الحروب .

وكل رئيس وزراء تقدمه كتب المدارس من زاوية عسكرية ، أى ما فعله رئيس الوزراء البريطانى لزيادة القوة العسكرية لبريطانيا فى الجيش والبحرية

وأي نقد توجهه الكتب لرئيس وزراء سابق يقدم على أساس أنه قصر فى تدعيم الجيش والبحرية .

وتخصص المدارس نصف ساعة فى ذكرى المعارك الكبرى مثل يوم نلسون القائد البحرى الذى انتصر على نابليون .

وفى المدارس لوحات على الجدران للمعارك الحربية الكبرى التى غيرت تاريخ بريطانيا والعالم حتى يحس الطالب بالفخر والتيه وهو يتطلع إلى هذه اللوحات أكثر من مرة كل يوم ، ويتمنى أن يكون مثل أبطالها .

وبذلك يحيا فى حلم دائم يسعى لتحقيقه .

وكل حركة من حركات التحرير لتحقيق استقلال الشعوب تصور بطريقة خاطئة .

عندما يقمع نائب ملك الانجليز فى الهند إحدى حركات التحرير يقول الكتاب المدرسى أن نائب الملك استعمل الرأفة والرحمة مع العصاة !

وتروى صفحات الكتب ماحققه الاستعمار البريطانى للهند . فالبلاد أصبحت تتمتع بحالة سلام دائم . والفلاحون الصغار تمكنوا من زراعة أرضهم آمنين من المذابح التى كانوا يتعرضون لها وهجمات المعتدين من المتوحشين الهنود .

والاستقلال فى هذه الحالة منحة من الانجليز الذين ألغوا الرق فى مستعمراتهم !

واهتموا بالتاريخ على أنه يصور حياة أشخاص قدموا خدمات للإنسانية فى كل المجالات « بادن باول » هو الذى أنشأ الكشافة . « ولفنجستون » وصل إلى منابع النيل حتى ترى أفريقيا النور . . . . إلخ .

والطلاب ـ وبالذات الاطفال ـ يحبون سير العظماء من الرجال والنساء ويعشقون الاعمال العظيمة .

ولكن التاريخ هنا له غاية واحدة وهى تشجيع الجميع على الخدمة العسكرية ، والقتال فى سبيل الوطن ، والانتقال بالامبراطورية من حالة عظيمة إلى حالة أعظم وإلى مجد أكبر !

●●●

وفى الجغرافيا .

الطلبة-يتعلمون أن سكان مناطق « السافانا » أى سكان أوربا ، وبالذات بريطانيا ، يتفوقون ، نتيجة للمناخ على سكان الغابات المتخلفين .

والسكان فى أواسط أفريقيا وجنوبها متوحشون يأكلون لحوم البشر !

وبعض الدول الأفريقية نموذج للبربرية .

وآسيا لاتختلف عن أفريقيا . . سكانها فى حالة تدهور مستمر .

الصينيون مثلا قساة منتقمون منظرهم لا يسر .

وقالت الكتب المدرسية :

« الافريقيون مجرد أطفال غارقون فى الجو الاستوائى . وهم مغرورون يهوون الكسل . ولم ينجحوا أبدا فى إنتاج صناعى أو فكرى .

وعندما انتقل الأفارقة عبر المحيط الاطلسى الى جزر الهند الغربية مثلا فإنهم حملوا معهم صفاتهم وطبائعهم الأصلية إلى كل الدول التى استقروا فيها .

إن روح الشر تأصلت عندهم . ولا أمل فى أن يتغيروا ولن يعملوا إلا إذا أجبروا على ذلك » .

والمعنى واضح والهدف واضح ،وهو أنك أيها الطفل االبريطانى عندما تصبح شابا وتعمل فى أفريقيا فلا بد أن ترغم الافريقى على العمل .

ويقال للطلاب فى الكتب المدرسية :

« إن بعض أصابع الموز تكفى الرجل الأسود . وهو يلتقط هذه الثمار من الغابة دون جهد أو عرق . وهو ـ لذلك ـ يؤمن بأنه لافائدة من العمل ولا جدوى منه مادامت الطبيعة تهبه هذا الرزق الذى يكفيه .

إنه يريد السعادة وقد تحققت له وهو نائم » !

●●●

ولاتترك قارة لم تشرحها الكتب المدرسية للطلاب الإنجليز . . بطريقة مغرضة .

فى أحد هذه الكتب نجد أن سكان أستراليا قساة غلاظ يتجولون عراة . وهم جهلة لايعرفون إلا الصيد .

ونتيجة للفقر فإنهم يقتلون المرضى والعجزة ويأكلون لحوم البشر أيضاً .

والنتيجة الطبيعية المنطقية التى ينتهى إليها الكتاب المدرسى أنه لابد من استغلال شعب أستراليا اقتصاديا لمصلحة الإنجليز .

وكل بلد وكل قارة تقدمها الجغرافيا على أنها منطقة اقتصادية تمد القارىء الطالب بحاجته من صنف من صنوف الطعام أو الملابس . ويتحقق التكامل الاقتصادى لبريطانيا عن طريق المستعمرات .

●●●

وبعد الحرب العالمية الأولى حدث تغيير فى بعض كتب الجغرافيا .

إنها تقول صراحة :

« انتهى العصر الذى كانت فيه بريطانيا تنتج كل ما تحتاج إليه . يجب أن تستمر فى الاعتماد على المستعمرات وأجزاء الإمبراطورية . اللحم تنتجه نيوزيلندا ، والقمح والدقيق من كندا . والصوف من أستراليا . والشاى من سيلان . والفواكه من جنوب أفريقيا .

ومعظم ما فى البيت الانجليزى ، وكل بيوت إنجلترا . يصل من الشعوب التى تعيش فى الامبراطورية البريطانية الواسعة .

ومن الضرورى الهجرة حتى يشرف الانجليز على عمليات الانتاج ، ويحققون الاستقرار ويدعمون الامبراطورية .

ومن الضرورى أيضاً الكتابة إلى كل بريطانى يقيم فى هذه المستعمرات لمعرفة أسلوب الحياة والنشاط الاقتصادى » .

●●●

والامبراطورية تعنى الطعام .

والبواخر تعنى الرقابة التكنولوجية .

واذا كانت بريطانيا تستورد القطن من المستعمرات وتنسجه مصانع لانكشير البريطانية فان الطالب قد يتساءل :

ـ ولماذا لاتحول المستعمرات أقطانها إلى ملابس .

ولكن الرد يجيء فى كل كتاب مدرسى . . يقول :

« لايمكن إنتاج أقطان لا نكشير إلا فى بلاد يرتفع فوقها العلم البريطانى » !

●●●

ورأت الحكومة البريطانية لتشجيع الافكار الاستعمارية والتوسع فى الامبراطورية إنشاء معهد اسمه « المعهد الامبراطورى » يساعد فى هذه العمليات كلها يقيمه، ويموله الافراد والشركات حتى يقال إن الشعب هو الذى يريد أن يستعمر ويسود الدول الاخرى .

كان للمعهد مجلس إدارة يضم محافظ بنك إنجلترا وعمدة لندن وأحد كبار الأساقفة .

واعتمد المعهد على التبرعات وكانت الصحف تنشر كل أسماء المتبرعين ويذيع المعهد قوائم بكل الأسماء .

ورفع المعهد شعارا يقول تبرع بنصف جنيه تضم لقائمة المؤسسين مثل المليونير روتشيلد وغيره .

وأخذ المعهد يقدم منحا دراسية لمن يريد أن يتعلم تاريخ وجغرافيا واقتصاديات المستعمرات .

وكان يعلم اللغات ومنها العربية والفارسية بلهجاتها المختلفة و ١٠ لغات شائعة فى الهند واللغة السواحيلية المنتشرة فى الدول الافريقية و١١ لغة أخرى .

وأنتج المعهد ١٣٠٠ فيلم وزعها على المدارس .

وأقام متحفاً يعرض إنتاج كل مستعمرة وسمح للتلاميذ وغيرهم أن يرسلوا إليه ما يصلهم من هدايا من المستعمرات لتحليلها فى معامل المعهد !

ونظم رحلات أسبوعية للطلبة يزورون المعهد ويطوفون بقاعاته وأقسامه . ولكل مستعمرة نصيب .

ونشأت رابطة قوية بين المعهد والمدارس لتعديل نظم التعليم وبرامجه على أساس ردود أفعال الطلاب .

ولم يكن هذا المعهد الامبراطورى فى لندن نموذجا فريدابل وجدت مدرسة للغات الشرقية المعاصرة فى فرنسا والأكاديمية الشرقية الامبراطورية فى دولة النمسا ـ المجر ، والمدرسة الألمانية للغات الشرقية فى ألمانيا ، وكلها تؤدى عمل المعهد الامبراطورى البريطانى ، تفرض كتبا مدرسية وتحدد برامج التعليم لصالح فرنسا والنمسا ـ والمجر ودولة الالمان !

●●●

ولعل ذلك يدفعنا إلى مراجعة كتب التاريخ والجغرافيا والترجمة . أو التى توجد بها فصول كاملة مترجمة لتصحيح ما بها .

ولعله يدفعنا أيضاً إلى إصدار كتب مدرسية جديدة فى كل العلوم الانسانية تتفق مع ماضينا وحاضرنا .

إنهم فى بريطانيا وفى غيرها حرصوا ـ فى تدريس العلوم الانسانية ـ على الربط بين الماضى والحاضر . فالتاريخ لايقدم فترة زمنية انتهت بل يبين أن التاريخ مستمر ومترابط وأنه مسيرة واحدة نحو مستقبل أفضل .

إنهم يقدمون قصة كل بطل معروف ومجهول . وأهمية المواد الخام . وأين توجد ودورها فى تقدم البشرية . . فاذا لم تتوافر فى بلادهم فإنهم الذين طوروها أو أجسنوا استخدامها .

وكل مدرس للتاريخ والجغرافيا فى كل فصل مدرسى عربى عليه مسئولية ضخمة بأن يقدم هذين العلمين ، وكل العلوم ، بطريقة ملهمة تجعل من التلميذ الصغير متمسكا بدينه من خلال هذه العلوم لا من خلال الدروس الدينية وحدها ، مؤمنا ببلاده مدافعا عنها . . فإن العلوم الانسانية يمكن أن تجعل من كل طفل مواطنا صالحا يؤمن بواجبه . . فإن الامبراطوريات العظمى أقيمت بفضل قادتها ونتيجة لكتاب مدرسى واستاذ الفصل ، وكل الفصول !

كتاب مسموع و . . . للمكفوفين

يحتفل يوم ٢٨ أكتوبر من كل عام بذكرى وفاة الدكتور طه حسين الذى مات عام ١٩٧٣ .

ولا تقتصر الاحتفالات على نقابة ، أو طائفة ، أو هيئة ، أو مجموعة بعينها لأن طه حسين كان متعدد المواهب والثقافات .

إنه ينتسب للأزهر ، تلقى فيه ، المراحل الأولى من التعليم .

وهو صحفى ، نشر فى معظم صحف مصر تقريبا ، رغم تباين اتجاهاتها السياسية وهو من أسرة الجامعة ، منحته درجة الدكتوراه ، كان أستاذا وعميدا ومديرا لها .

وهو من رجال التعليم، كتب عن « مستقبل الثقافة فى مصر » وتولى وزارة المعارف وحقق فيها ما نادى به فى كتابة، وغير سياسة التعليم المصرى . . كله .

وهو من رجال اللغة ، رأس المجمع اللغوى ثلاث دورات متعاقبة .

وقد اشتهر ككاتب للرواية والمقال والقصص وذكريات « الأيام » .

وهو فوق كل ذلك . . رجل سياسة .

وهو ينتمى ، رغما عنه ، إلى عشرات الألوف من المكفوفين فى العالم العربى . . ويعكس أروع قصص كفاحهم .

فالكاتب العربى الكبير فقد بصره ، وهو فى الخامسة ، واستطاع أن ينتصر على الظلام ، فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ودرس اللغة الفرنسية ونال درجة الدكتوراه مرتين بالعربية والفرنسية . . دون أن يرى حروف أى منهما .

أما سر عدم احتفال المكفوفين بذكرى طه حسين فلا يرجع إلى اتجاه جماعى ، أو قرار من هيئة أو نقابة للمكفوفين، فلا يوجد مثل هذا التنظيم وإنما السبب فى ذلك أن طه حسين لم يساعدهم كما كان ينبغى له أن يفعل ، فلم يضاعف معاهدهم ولم يساعد على نشر إنتاجهم ولم يتوسع فى إصدار الكتب ، العلمية بالذات ، لهم .

وربما يكون السبب فى ذلك أن طه حسين أبى أن يعترف بعجز أو امتنع عن التحيز لأقرانه . وربما يكون السبب الغالب أن الكاتب الكبير رأى أن ظلام الجهل يلف الكثيرين ، والكل فى حاجة إلى المساعدة ، والأمية سائدة فرأى أن يعاون الجميع ويقدم لهم العلم كالماء والهواء . . بوصفه حقا للكل ، بغير استثناء .

وكان يجب عليه أن يقدم معونة أكبر لهؤلاء الذين لمع من بينهم . . وهم أولى الناس بالرعاية من طه حسين قبل غيره !

وليس طه حسين وحده الملوم بل إننا جميعا ـ فى هذا الشأن ـ ملومون !

ففى نهاية القرن الماضى ، وفى ظل تقاليد وقيم مثالية حلوة وجد طه حسين من يقرأ له وهو صبى أزهرى فقير .

وفى باريس وجد زوجة فرنسية تعاونه .

وبعد ذلك كان له سكرتير دائم .

وفى زماننا هذا لايستطيع الكفيف الفقير أن يضمن سكرتيرا متطوعا أو متفرغا .

ومن حسن الحظ أنه بعد انتشار الكتابة بحروف « برايل » أصبحت هذه الحروف تقوم بمهمة السكرتير لكل المكفوفين .

●●●

إن الذين كتب عليهم الظلام عاشوا ، بعد ثلاثة قرون من اكتشاف جوتنبرج لحروف الطباعة ، لايعرفون إلا الأدب الشفهى ، يتلقون العلم عن طريق آذانهم وحدها .

وجرت محاولات كثيرة لجعل المكفوفين يقرأون بأصابعهم الحروف البارزة . وصنعت هذه الحروف من الخشب والرصاص فى القرن الثامن عشر .

ولكن الخطأ الذى وقع فيه مبتكرو هذه الفكرة أنهم اعتمدوا على نفس الحروف التى يراها المبصرون ولكن بطريقة أخرى . . أن أحد السطور كان يبدأ من اليسار إلى اليمين ، والسطر التالى يبدأ من اليمين الى اليسار حتى لاتضيع أصابع الكفيف وهى تنتقل من سطر الى آخر !

وكان من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يبتكر مبصر وسائل تعليم المكفوفين لأنه لايفكر مثلهم أو بعقليتهم .

ولذلك نجح طفل - اسمه لويس برايل - عمره ١٦ عاما يدرس فى معهد المكفوفين الملكى فى باريس فى الوصول الى طريقة القراءة بالأصابع التى عرفت باسمه .

وكان لويس قد أصاب إحدى عينيه بسكين فى محل الجلود الذى يملكه والده ، وأظلمت عينه الثانية بسبب المرض وهو فى الثالثة . وقد حصل على منحة دراسية فى المعهد فى العاشرة ، فلم يجد به سوى ١٤ كتابا . . حروفها بارزة .

اختار برايل طريقة القراءة والكتابة التى يستعملها الجنود ليلا ليستطيعوا الاستغناء عن الأضواء خوفا من العدو وطبقها على المكفوفين بحيث تسهل عليهم - لا على المبصرين - عملية القراءة بطريقة النقط لا الحروف .

وألف برايل كتابا يشرح فيه طريقته عام ١٨٢٥ ونشره المعهد الفرنسى بعد ٤ سنوات وتبناه مؤتمر دولى عام ١٩٣٢ .

وبعد ٦٠ سنة وجدت الآلة الكاتبة للمكفوفين .

ونجحت طريقة برايل فى تعليم المكفوفين العلوم الرياضية واعتبر هذا الشاب الفرنسى « جوتنبرج العميان » !

وتطورت طريقة « برايل » ونشأت وسائل أخرى لتعليم المكفوفين الذين تظلم الدنيا أمامهم ساعة الميلاد ، أو فى سن الشباب أو الشيخوخة .

وطبقت هذه الطريقة فى الحروف العربية ونشأت « معاهد النور » فى العالم العربى تعاون المكفوفين !

●●●

فى مكتبة الكونجرس فى واشنطن وحده ٣٠ ألف كتاب للمكفوفين .

ويصدر سنويا ألفا كتاب لهم فى الولايات المتحدة بالإضافة الى الصحف والمجلات الدورية الكثيرة .

وأشهر المكفوفين اللامعين فى دنيا الأدب شاعر الاغريق الكبير هومر مؤلف « الإلياذه » و « الأوديسا » .

ومن الواضح أن هومر الذى عاش قبل الميلاد ، قبل « برايل » وجد من يقرأ له ويملى عليه قصائده .

وقال أو ادعى البعض أن آخرين اشتركوا معه فى نظم الاشعار، ولكن مدرسا فى جامعـة كولـومبيا فى نيويورك أجـرى بحثا بالعقل الألكترونى على ابيات « الالياذه» وعددها ١٥٦٩٣ بيتا .

قام العقل الاليكترونى بتحليل الشعر فلم يجد فارقا فى انتظام الأبيات . وأكد أنها كلها من نظم شاعر واحد .

وهنـاك الكـاتب الـروائى الفيلسوف « ألـدوس هكسلى » الذى أصيب بما يشبه العمى فى شبابه فتعلم طريقة برايل حتى يقرأ دون إرهاق القليل الباقى من بصره الذى يخبو .

واسترد هكسلى بصره وأنتج كتبا رائعة .

وتعلم فى شيخوخته أن يقرأ وهو نائم على سريره فى الظلام ، وأصابعه ويداه وكتابه تحت بطانية ثقيلة تجنبا لبرد الشتاء . . بعد أن وجد بصره يخبو مرة ثانية ويرهقه الضوء .

وفى أحد كتبه « عالم جديد شجاع » تنبأ بأن المجتمع سيفقد قدرته على التفكير الحر نتيجة وسائل الاتصال التكنولوجية الحديثة . وقال أن التليفزيون خطر على المجتمع .

وفى معـرض فرانكفـورت الدولى الأخير للكتاب قال كثيرون أن حياة وكتب « ألدوس هكسلى » كان ينبغى أن تكون موضوعا للبحث والدراسة والمحاضرات فى هذا المعرض .

وكانت إدارة المعرض قد اختارت شخصية « جورج أورويل » مؤلف كتاب « عام ١٩٨٤ » الذى تنبأ فيه بانهيار عالم السرية والخصوصية لأن أجهزة الاتصال : العدسات السرية والتليفزيون ستكشف كل شىء حتى أفكار الناس .

وأستطاع كاتب أسبانى كفيف أن يؤلف أكمل مرجعين ـ حتى الآن ـ فى تاريخ أمـريكـا الـلاتينية يشرحان سر انتصار الاسبان على العالم الجديد وهما « تاريخ غزو المكسيك » و « تاريخ غزو بيرو » .

وهذا الكاتب هو وليم هايكلنج برسكوت .

وإذا كان هكسلى قد استعان بطريقة برايل فإن برسكوت وجد سكرتيرين يقرأون له مثل طه حسين !

كتب برسكوت يقول : إن الكفيف الذى تعلم يستطيع أن يكتب عن كل شىء مثل المبصر باستثناء الألوان فلن يعرفها أبدا لأن هذه تحتاج إلى عيون !

وقال إن كل ما يمكنه عمله هو أن يقلد غيره ويكتب مثل الآخرين عند الحديث عن الألوان فيصف البحر بأنه أزرق والسماء زرقاء والأرض خضراء والدم أحمر قان .

ولو ترك للكفيف أن يبتكر الألوان ولايقلد غيره سيقول : البحر أخضر ، والسماء صفراء لأن الألوان لاتعنى شيئا بالنسبة له بينما يمكنه أن يتكلم عن صفات يعرفها كالرحمة والعدل والخير !

وقال برسكوت : الكفيف الذى لم يتعلم مثل إنسان مبصر دخل مطعما حافلا بكل ما تشتهيه النفس ولكن فرض عليه أن يأكل ـ كالصينيين ـ بعصى طولها أكثر من متر . . إذا وضع فيها الطعام فانه لايتمكن من وضعه فى فمه .

ولكن إذا طلب لهذا الانسان أن يأكل بهذه العصا فيمكنه ذلك اذا قام باطعام زميل له ، وتولى هذا الزميل اطعامه . .

وكذلك الحال بالنسبة للمكفوفين . العالم أمامهم ملىء بآلاف الكتب ولكن يجب أن يساعدهم المبصرون .

وفى أوربا وأمريكا تغيرت النظرة إلى المعوقين ، مكفوفين ، وغيرهم .

فى السويد بدأوا يجعلون المكاتب الحكومية فى الأدوار الارضية حتى لايتحمل المتقدمون فى السن مشقة صعود درجة أو درجات .

وفى أمريكا أرغم القضاء محطة تليفزيون على أن تزيد عدد برامجها الموجهة للصم فيظهر فى ركن من الشاشة من يشرح الصور بحركات اليدين تماما كما يقدم مذيع الراديو وصفا لمباريات الكرة .

ويتجهون الآن لإنتاج أجهزة تليفزيون تظهر على شاشتها عند الضغط على زر أقوال الممثلين حتى يطالعها الأصم . . وحده .

ويفكرون فى إنتاج أجهزة أخرى صورها بارزة حتى يتحسسها الكفيف بأصابعه إذا نجحت التجربة !

إن الكفيف مثل شىء غالى الثمن . . كتب عليه أنه « قابل للكسر » ولذلك يجب أن نلمسه بعناية ونعامله برقة بالغة .

وعالم الفكر والقراءة للكفيف هو المتعة الكبرى .

ونسبة المكفوفين فى العالم العربى أكثر من نسبتهم فى أوربا وأمريكا نتيجة ظروف الاحتلال التى مرت بها الدول العربية وانتشار الامراض واستنزاف ثرواتها وإنتاجها لصالح الدول الكبرى المستعمرة .

والكفيف كالإسكيمو الذى لم يتحرك من القطب الشمالى لم ير إلا الثلج ، والكفيف لايعرف الا الظلام . ولذلك ينبغى أن نحرره حتى يتكرر طه حسين . وهذا أفضل احتفال بذكراه لو تعاونت كل الهيئات الكثيرة التى ينتمى إليها فى طبع مزيد من الكتب بطريقة « برايل » العربية وتحديد نسب للمكفوفين فى الوظائف وإنشاء معهد جديد فى كل بلد عربى فى الاحتفال السنوى بمولده أو بيوم ذكراه !

لقد نجحت الكتب التى تطالع باللمس . وكانت متوقعا لها هذا النجاح لأن المكفوفين يريدون أن يروا بأصابعهم العالم .

ونشأت كتب أخرى للمكفوفين هى الكتب المسموعة ، ولكنها لم تصدر للمكفوفين وحدهم ، بل للأغنياء ولكل إنسان لايستطيع أن يتفرغ للقراءة . وكانت بداية الكتب المسموعة غريبة للغاية !

●●●

قال الناشر :

ـ لعلك سعيد بتسجيل هذه القصائد على شريط .

أجاب الممثل جيمس ماسون :

ـ سعادتى غامرة . ولكنى أعتقد أنك لن تكون مثلى .

دهش الناشر الامريكى . قال :

ـ مالذى يدعوك لذلك ؟

قال الفنان :

ـ هذه العملية لن تكون مربحة لك أبدا . من يشترى قصائد مسموعة ؟

وأضاف :

ـ الناس يحبون سماع الاغنيات . . أما شرائط القصائد فلن يكون لها سوق .

قال الناشر :

ـ إذا لم يشترها الناس هذه الايام ، فسيفعلون ذلك غدا . المستقبل لهذا النوع من الاشرطة .

كان الناشر يتنبأ عام ١٩٥٠ ، فى مدينة نيويورك ، بأن الناس سيسمعون الشعر بدلا من قراءته ، أو كما يطالعونه .

وظل الناشر يبيع القصائد فى كاسيتات .

وعندما قيل له أن الروايات يمكن أن تسجل على أشرطة ليستمع إليها الناس قال :

ـ لا أعتقد ذلك . القصيدة كالأغنية ، أما الرواية فلابد من قراءتها .

واستثنى الناشر بطبيعة الحال أولئك الذين لايستطيعون القراءة لأنهم مكفوفون ، أو لأنهم أميون !

ولكننى رأيت فى أوربا وفى أمريكا أن الكتاب المسموع ، فى كل العلوم والفنون ، أصبح حقيقة ، وأنه أخذ ينتشر بعد ٣٨ عاما من تسجيل وبيع أول كتاب شعر مسموع !

وقد أنشئت شركات عديدة تطبع الكتب على أشرطة بدلا من طبعها على انورق .

ولم تكن العملية ناجحة فى بدايتها فإن الناس رفضوا الفكرة الجريئة فى أول الأمر ثم أصبحت عادة . . عند الكثيرين .

●●●

نشأت الفكرة فى وقت واحد عند علماء النفس ورجال الاقتصاد .

قال بعض العلماء :

ـ النـاس الآن مرهقـون ويريدون للذهن فترة راحـة ، ومن هنـا رأوا الاستماع للأغنيات التى يريدونها لا تلك التى تفرضها ، أو تفضلها محطات الاذاعة .

وقال علماء آخرون :

ـ كثير من الناس يفضلون القيام بعملين فى وقت واحد أو ليس لديهم الوقت الكافى لمهمتين متتابعتين . وهم يعلمون أن الزمن محدود ومتساو للجميع .

البعض يستمع إلى الراديو وهو يقود السيارة فلا تعارض بين القيادة والاستماع .

والبعض يجرى ويمشى ويركب القطار والطائرة وهو يستمع الى شريط مسجل . الأم ترعى أولادها ، وتطهو طعامها . وتسمع الاذاعة والشريط المسجل أيضاً .

وأجمع العلماء على أنه يمكن الافادة من هذه الظاهرة أكثر من ذلك بأن يكون الاستماع مفيدا بتقديم كتب مسجلة فى العلوم والفنون والأدب وتعليم اللغات وغير ذلك من الحرف والهوايات والمتعة الذهنية أيضا .

وأيد رجال الاقتصاد هذه الفكرة بالأرقام .

وجدوا أن أجهزة التسجيل زاد عددها الى الحد الذى أصبحت فيه متوفرة فى ٨٥٪ من البيوت فى الولايات المتحدة والدول الاوربية المتقدمة و ٦٠٪ من السيارات . كما أن الذين يحملون أجهزة التسجيل الصغيرة المتنقلة يمثلون نصف الشباب !

وقالوا إن أجهزة التسجيل أكثر انتشارا من أجهزة التليفزيون نظرا لفارق الثمن ولأن التليفزيون يجذب السمع والبصر معا . . بينما الشريط المسجل يأخذ معه حاسة واحدة !

ولكن المشكلة هى : كيف يمكن تحقيق التحول الضخم من القراءة الى الاستماع .

قال الذين يملكون المال والجرأة :

ـ البشر حولوا مجرى الأنهار والبحار ، وبدلوا عادات الناس . . فلم لايبدلون ويغيرون عادة القراءة .

قيل :

ـ عمر القراءة ملايين السنين منذ النقش على الحجر . . فهى عادة غرست واستقرت .

وكان الجواب :

ـ تغيير العادات يبدأ بخطوة واحدة .

وبدأوا بالقصائد الشعرية . . ثم تبعتها الروايات .

وهنا بدأت المشكلة الأولى لا فى الفكرة . ، ولكن فى التنفيذ .

●●●

وجدوا أن الكتب المسموعة تحتاج إلى وقت طويل .

الرواية تسجل على شريط يسمع فى عشرين ساعة ! وفى هذه الحالة فإن ثمن بيعه قد يصل إلى ٧٥ دولارا ، ولذلك فإن الاقبال سيكون محدودا لارتفاع التكاليف وبالتالى ارتفاع الثمن .

ورأوا ألا تزيد مدة أية رواية أو كتاب عن ساعتين على الأكثر لخفض الثمن وحتى يمكن بيعه بما يعادل ٨ دولارات ، وحتى لايمل الناس الاستماع إليه .

واضطر الناشرون الى تلخيص الكتب كما يفعل بعض المؤلفين من المدرسين عندما يلخصون الكتب المقررة على طلبة المدارس !

وعلى الفور قامت ضجة ، واشتد الجدل .

اتهم الكتاب ، وورثتهم ، وجمعيات الدفاع عنهم ، شركات التسجيل بأنها متحيزة وليست عادلة . فعندما يختصر كتاب ويلخص فهنا ينشأ الهوى الشخصى والمزاج الفردى . ولايمكن التعبير عن آراء الكاتب كلها فقد يقصد من كتابه كله سطورا أو صفحات لايفهمها ، أو قد لا يدرك مغزاها ، من يقوم بعملية التلخيص .

وطالبت جمعيات حقوق المؤلفين بعدم الاختصار ، ومراجعة هذه العملية من قبل الجمعيات على أن تتولى بنفسها اختيار القائمين على هذا العمل .

ولكن الناشرين أكدوا أنهم يستهدفون الربح ولكنهم يحافظون على العمل الأدبى أيضا .

وقالوا إنهم يريدون الرواج والمحافظة على سمعتهم الأدبية واذا فقدوها فإن تجارتهم تبور .

ونشأ عن هذه العملية توفير أعمال لشباب المؤلفين الذين يقومون بتركيز كتب . . كبار المؤلفين .

●●●

هدأت الضجة لتنشأ مشكلة أخرى . . وهى : من يقوم بتسجيل الكتب ؟

حدث فى مصر أن أصر الفنان محمد البحر على أن يتولى تسجيل أغنيات أبيه سيد درويش . . بصوته وحده .

وقال أنه ورث الموهبة عن أبيه ، وصوته يشبهه ، وهو مغن يحسنن الاداء ، ولكن كثيرين يحاربونه ، ويضطهدونه ويريدون الشهرة عندما يغنون لأبيه فنان الشعب المصرى .

وتعطل تسجيل كثير من أغنيات سيد درويش وأقيمت عدة قضايا بين محمد البحر والفنانين وشركات الاسطوانات .

وحل الزمن والموهبة هذه المشكلة عندما جاء إيمان البحر حفيد سيد درويش ليسجل بصوته أغنيات جده .

وتكررت المشكلة فى أوربا وأمريكا بالنسبة لتسجيل الكتب على الكاسيتات .

قال ورثة كبار كتاب الغرب ، الذين يتطلعون إلى الشهـرة :

ـ لن يسجل غيرنا كتب الآباء والأجداد .

واحتاج الأمر إلى فتاوى ، وقضايا ، واستفتاءات ، واتصالات ، وانتهى الأمر بحصول من يستحق من الورثة على حقوقه القانونية عند التسجيل .

ولكن هذا الخلاف أدى بدوره إلى مشكلة ثالثة وهى : من الذى يتولى القراءة بعد استبعاد الورثة .

جاء كبار الممثلين يقرأون ، وكانت الأجور التى تدفع لهم عالية فاستبدلوا بفنانين من الشباب يحسنون القراءة ولايطلبون الأجور العالية .

وكان من أسباب اتخاذ هذا القرار خشية الناشرين أن تباع الكتب لأصوات القراء لا لأهميتها ، ومضمونها وأسماء مؤلفيها !

وترتب على القرار وقف المنافسة بين دور النشر على كبار الفنانين أصحاب الاصوات الرائعة الذين يجيدون هذا الفن الجديد .

●●●

أُخذت دور النشر تبتكر وتتقن فى تقديم الكتب المسموعة حتى لايحس القراء بالملل من ناحية ، وحتى يسهل انتقال الفكر من فصل إلى فصل .

القارىء لايقول للمستمع :

ـ هذا فصل جديد .

بل يقرأ الفنان الكتاب كما هو . ولذلك وضعوا موسيقى تصويرية لتيسير عملية الانتقال من قصة إلى أخرى إذا كان الكتاب يتضمن قصصا قصيرة ، وللنقلة من فصل الى آخر ، ومن موضوع الى موضوع .

ووضعوا مؤثرات صوتية لاتشتت ذهن القارىء بل تساعد على تنشيط الخيال والفكر .

ورأت بعض الدور اختيار أكثر من قارىء إذا جاء فى الكتاب حوار . ولكنهم اشترطوا ألا يجرى الحوار بطريقة تمثيلية وإلا تحولت الكتب الى تمثيليات اذاعية !

ورأى بعض الناشرين أن يقدموا لكل كتاب بمقدمة عن أهميته وتاريخه ، وقصة المؤلف ورأى النقاد فيه .

واختار ناشرون آخرون وضع هذا كله فى نهاية الكتاب .

●●●

أدى ظهور الشرائط إلى نقص مبيعات بعض الكتب المطبوعة ، ولكن تبين أن قراء الكتب يتناقصون بصفة عامة ، أولا تزيد نسبتهم بنسبة زيادة عدد السكان ، وكان التليفزيون والفيديو هما السببان الرئيسيان .

وتبين أن الكتب المسموعة تستعيد أرقام المستفيدين بالكتب بصفة عامة وإن أثرت فى عدد القراء بالذات .

وتحولت بعض دور النشر من الكتاب المقروء إلى الكتاب المسموع أو أنشأت أقساما جديدة تبيع الكتب المسموعة .

وظهرت مكتبة الكاسيتات التى قدمت أعظم مائة كتاب صدرت حتى الآن .

وصارت كاسيتات الكتب جزءا من المكتبات العامة ، فيستعير الانسان شريطا كما يستعير كتابا فالهدف واحد وإن اختلفت الوسيلة .

وقامت مراكز استماع للكتب مثل مركز مشاهدة التليفزيون ، وزودت المكتبات العامة بالسماعات الصغيرة ليجلس الراغبون متجاورين يستمع كل منهم إلى كتابة المفضل دون أن يزعج الآخرين .

وأعلنت بعض المكتبات عن ساعات معينة لسماع كتب بالذات ، فجاءت الامهات والزوجات غير العاملات وصغار الابناء يستمعون الى فصول من الكتب قد تؤثر فى عقول الاطفال لسنوات طوال .

وقدمت الصحف المحلية برامج هذه المكتبات كما تقدم برامج التليفزيون !

وفى مدن أمريكا وأوربا توجد آلات أوتوماتيكية يضع فيها الناس أموالهم ويضغطون على زر فيتساقط بين أيديهم ما يريدون من أغذية ومشروبات وحلوى فيختارون ما يريدون بين ماهو معروض أمامهم من أصناف .

الآن توجد آلات مماثلة فيها شرائط مسجلة لكتب كثيرة فإذا وضع الانسان القيمة المقررة وجد بين يديه كتابه المختار !

●●●

ولكن أكثر الكتب المسموعة رواجا حتى الآن هى الروايات ويليها الشعر ثم الكتب التى تعلم مهنة وحرفة ولغة .

ولم تسجل بعد كتب الرأى والسياسة وإن كان متوقعا أن يجىء عليها الدور، فالظاهرة عندما تنتشر لا تتوقف .

ورأت وزارات الثقافة فى بعض الدول تشجيع هذا اللون من التسجيلات حتى توازن بين انتشار الفيديو والتليفزيون وتثقيف الناس .

ويقال الآن أن الفنون المتكلمة قادمة فى الطريق !

●●●

ولقد استغرق انتشار هذه العملية ٣٨ سنة ومع ذلك فإنها لم تحقق التوسع المطلوب .

يقول المتشائمون :

ـ ستظل الكتب المسموعة محدودة .

ولكن المتفائلين ، وأنا منهم ، يرون أن ظهور المطبعة تأخر بعد اكتشاف الكتابة آلاف السنين ، وعندما وجدت المطبعة أصبح الكتاب هدفا وغاية ولايزال . وكانت الكتابة فى أول الامر بخط اليد وتطور فن الطباعة فأصبح أليكترونيا يستعين بأجهزة التليفزيون .

والكتاب المسموع تطور آخر هدفه أن تقرأ ولا ترهق ، وأن ينتقل إليك الفكر عن طريق الأذن والعين .

ولكن أسعد الناس بظهور هذا الفن الجديد أولئك الذين حرموا البصر وعاشوا فى الظلام !

البريـــد . . فـن

وصف الفيلسوف الالمانى « نيتشه » ساعى البريد بأنه وسيط يحمل مفاجآت غير متوقعة سارة أو حزينة .

وقال إنه ينقل فى حقيبته خفقات القلوب والمشاعر الانسانية والخدع البشرية أيضا .

وأوصى « نيتشه » ساعى البريد أن يترفق بشحنته كما أوصانا جميعا الشاعر العربى أبو العلاء المعرى أن نترفق بالتراب لأنه يمثل بقايا أجساد البشر . . عبر الزمن .

وبعض الرسائل الخاصة يطالعها الانسان ثم يلقيها بعيدا ، وينساها تماما .

والبعض يبقى أبد الدهر سليما لايفض ولا يقرأ .

والبعض يعيش حياة صاحبه أو يعيش طويلا . فهو يحكى قصة الانسان كما كتبها بقلمه ودمه أو دموعه .

وهذه الرسائل الخالدة هى التى يعيد الانسان قراءتها ليتعلم ويتعزى ويتأسى

هذا فان جوخ الرسام العالمى يكتب إلى صديق له قائلا .

« أريد أن أظل أرسم الانسان ، الانسان ، ومرة ثالثة الانسان » .

ولذلك عاشت رسومه .

وهذا « مونيه » الفنان يصف عذابه فى شيخوخته عندما يريد أن يؤدى واجبه كفنان ولكن قواه تخونه فلا يرسم بالريشة ما يحب أن ينقله ويتركه .

قال : الألوان لاتبدو لى براقة كما اعتادت أن تكون .

زحف الطين إلى اللون الاحمر أو هكذا يخيل لى . وأمزج الألوان ولكننى لا أصل أبدا الى اللون الصحيح .

ما أرسمه الآن مثل لوحة قديمة أقارنها بما رسمت من قبل فأمسك بالسكين أمزق لوحاتى الاخيرة .

وكاميل كوروت قال :

« على أن أستيقظ فى الثالثة صباحا قبل شروق الشمس أجلس تحت شجرة أرقب وأنظر .

فى البداية لايلوح لى شىء . ويجىء أول شعاع ينير السماء . وتستيقظ الازهار سعيدة . فوق كل منها قطرة ندى وكأن الزهور تصلى » .

واذا لم تكن قد شاهدت اللوحة فإن هذه الكلمات تتراقص أمامك لتجسد لوحة تتخيلها العيون ولا تراها .

وهذا «مايكل أنجلو» فنان ايطاليا الشهير الذى ظل اربع سنوات يرسم لوحة فى سقف ليصبح فى سن السابعة والثلاثين أعظم الفنانين المعاصرين ولكنه يكتب قائلا :

« تركت ضوء عينى فى هذه اللوحة فلا أستطيع القراءة إلا اذا رفعت الكتاب عاليا فوق رأسى لأتمكن من رؤيته » .

والشاعر بلينى يكتب :

« أصيبت أعصاب اذنى بالشلل ولم يعد الصوت يخترق المخ لم أعد أسمع شيئا . أذنى فى حاجة إلى كل شجاعتى وقوتى حتى لا أسقط يائسا وأنهى - بعنف - عذابى .

إصرارى على العمل لبلادى وشعبى يلهمنى - وحده - القوة على العمل » .

وكرر الموسيقى « بيتهوفن » هذه المعانى عندما فقد السمع فكتب إلى أخيه :

« هذه الحاسة ضرورية لى أكثر من أى إنسان أخر ويجب أن تكون كاملة .

إذا رأيتنى أنسحب من صحبتك التى أستمتع بها فلا تلمنى .

عذابى مزدوج . الناس يسيئون الحكم على . ولا أستطيع الاسترخاء بينهم والحديث أو تبادل الثقة بهم .

علىَّ أن أحيا وحيدا ولا أزحف نحو أى مجتمع إلا عند الضرورة القصوى .

يجب أن أعيش منبوذا حتى لايعرف الناس حقيقة حالتى » .

وكل فنان له مشكلته التى يعبر عنها فى رسائله .

« بوريس باسترناك » الكاتب السوفييتى الذى حصل على جائزة نوبل أحس بالموت يقترب فكتب يقول :

« أفكر فيما سيحدث بعد وفاتى . حرصت على أن يكون لزوجتى وابنتى مايعينهما على الحياة ستة أشهر . وبعد ذلك سيجدان عملا . وسيعاونهما الاصدقاء ولن يعاملهما أحد معاملة سيئة .

ولكن ستأتى النهاية مفاجئة قبل أن أتم كتابى » .

وتتحقق النبوءة كاملة !

والكاتبة الانجليزية فرجينيا وولف بعثت لزوجها قبل أن تنتحر غرقا . قالت :

« أعرف أنى سأجن مرة أخرى .

لن أعبر هذه الأوقات العصيبة » .

ولن أستعيد صوابى .

بدأت أسمع أصواتا غريبة ، ولا أستطيع تركيز أفكارى .

لقد منحتنى أقصى سعادة . ولا أظن أنه كان هناك من هو أسعد منا . لا أستطيع أن أقاوم أو احارب مرة أخرى فإنى سأفسد عليك حياتك ».

والشاعر « روبرت فروست » أحس بالفشل غندما انتحر ابنه باطلاق الرصاص . قال :

« مشيت فى طريق خطأ » وجربت طرقا كثيرة كلها خطأ . ولكن شيئا فى أعماقى يلومنى لأنى لن أحاول مرة أخرى .

ابنى فكر لنفسه . فكر كثيرا . وفكر طويلا ولا أظنه استراح من التفكير ساعة واحدة فى السنوات الأخيرة .

ولم أعد أتكلم إلا قليلا . وأعترف بأنى لا أصلح لتقديم نصيحة . فشل ولدى فى الزراعةوالشعر،وكان رائعا مع الحيوانات والاطفال الصغار . لو أنى اهتممت بذلك وتركته يعيش مع الخيول .

وعاشت شارلوت برونتى الكاتبة الإنجليزية نفس المأساة عندما توفى أخوها . كتبت رسالة تقول فيها :

« لم تبق منه إلا ذكريات أخطائه وآلامه .

ضاعت موهبة وتحطمت عندى تطلعات وطموحات بالنسبة له .. وقد هلكت جميعا فى أسى » .

والكاتب الفرنسى « جوستاف فلوبير » كتب بعد وفاة صديقة وأستاذه :

« مشيت وحدى فى المساء وتبعنى ، دون نداء عليه ، كلبه .

ظل طوال الليلة السابقة على الوفاة ينبح وفشلت كل محاولات تهدئته .

اعـدت قراءات كتاب « أوراق الخريف » وتوقفت عند القصائد التى يحبها ولها معناها عنده .

لم يسمع قصيدة ، فقد مات . قمت . نظرت إليه وغطيت وجهه . أحسست ببرودة أطرافه وتيبسها ، ولاتزال هذه الاحاسيس عند أطراف أصابعى حتى اليوم » .

وكتب « روبرت روس » يصف وفاة أوسكار وايلد الكاتب البريطانى المسرحى :

« استدعتنى الممرضة فى الخامسة والنصف صباحاً لتقول إن صاحبك يموت .

نظرت إليه فلاحظت أن خطوط وجهه تبدلت . عيناه لاتستجيبان للضوء . صوت حشرجته يعلو ويعلو . وفجأة تنهد بعمق . وكان هذا هو الصوت الطبيعى الوحيد الذى سمعته منه .

امتدت أطرافه وأصبح تنفسه أضعف . . وأضعف » .

وكتب طيار يابانى عمره ٢٤ سنة اسمه أيشيزو هاياتشى رسالة إلى أمه قبل أن يقوم بهجوم انتحارى على الاسطول اليابانى .

ولم يعرف هذا الشاب إلا بشجاعته ولم يشتهر الا برسالته التى حفظتها أمه قال لها :

« جاء الوقت لأنقل إليك أخبار سيئة ،

أحببتنى أكثر مما أستطيع أن أحبك .

إنى سعيد لإنهم اختارونى لهذه المهمة الخاصة، ولكننى لا استطيع منع دموعى عند التفكير فيك .

بذلت كل جهد لتعليمى وساعدتنى على مواجهة المستقبل . وحزنى عميق قوى لأنى سأموت دون منحك شيئا مقابل هذا كله . لا السعادة ولا الهدوء النفسى .

لا أستطيع أن أطلب منك إن تكونى راضية . وأنا أضحى بحياتى . أو تجدى فخرا فى وفاتى مهما كانت الميتة مجيدة .

سأقول لك وداعا صامتا وأنا بين السحب .

كنت دائما تحلمين لى بمستقبل رائع ويؤسفنى أنى خيبت أملك .

لن أنسى قلقك على وأنا أدخل كل امتحان .

حاولى أن تجدى العزاء عندما تذكرين أنى كنت طيارا رائعا .

وأقول الحقيقة إنى أحيانا أفكر فى العودة إليك ولكن هذا عمل جبان » .

●●●

وفى رسائل اثنين من الكتاب الروس حديث عن الحرب بأسلوب مختلف .

ستويفكى كتب يشجع الحروب فقال :

« . . . بلا حرب ينمو الناس ثراء ودعة . ويفقدون القدرة على التفكير والنبل . ويعودون إلى الحالة البربرية ويصبحون متوحشين .

ولا أتكلم عن أفراد بل عن أجناس كاملة .

الإنسان ـ بلا ألم ـ لايحس بالفرح . والألم كالذهب يصبح ـ بالنار ـ نقيا . والتجارب العابرة لاتؤذى . وتنبت الحياه الجديدة من الصدمة القوية » .

أما « تو لستوى » فكان ضد الحروب .

كتب فى رسالة :

« لا أوافق الناس عندما يقولون أن طرفا واحدا يقع عليه اللوم فى حرب تشتعل .

وربما يكون أحد الأطراف قد ارتكب اساءات أكثر من الطرف الآخر. ولكن ذلك لايبرر هذه الظاهرة الرهيبة اللاإنسانية » .

●●●

وفى رسائل كبار الكتاب نصائح للمؤلفين الشبان .

كتب الفيلسوف المسرحى الساخر جورج برنارد شو إلى باحث أراد أن يكتب قصة حياته فقال :

« أريد أن تؤكد على التدريب العقلى الذى مارسته ، وإلا فإنك ستبالغ فى تقدير كفاءتى الطبيعية .

ساعدنى هذا التدريب على خلق انطباع بأنى ذكى خلاق رائع . إن مؤلفاتى نتيجة عمل منتظم فى الكتابة خلال ربع قرن أو أكثر .

وكل إنسان يستطيع الوصول إلى مهارتى إذا دفع الثمن نفسه .

وإذا أردت أن تكتب عن حياتى غير العادية فقل إن آلاف المنافسين خير منى . ولكنى تفوقت بالجهد، ولايوجد أسوأ من الادعاء بأن علمى جاء من رجل يجلس فى صالونات المجتمع وتأتيه الأفكار فجأة هينة وسهلة أيضا » .

●●●

سأل قارىء الكاتب الشهير برتراند راسل عن المضايقات التى تفسد عليه حياته وكل المؤلفين وقال : إنى أعد بحثا جامعيا فى هذا الشأن .

أجاب راسل :

« أعانى كثيرا من الاشخاص الذين يظنون أن مهمة الكاتب هى القيام بعملهم .

ولندع هواة جمع التوقيعات وصياديها الأنتقل الى القراء الذين يطلبون معرفة رأيى فى شئون كتبت عنها وناقشتها كثيرا فى كتبى .

إنى أتلقى رسائل من هنود يطلبون منى تبنى فلسفتهم الروحية ، وبولنديين يقولون إن القوميات كلها قد تكون سيئة أما القومية البولندية فهى أنبل الجميع . ومهندسين لايفهمون نظرية النسبية عند إينشتين ويريد منى ـ دون غيرى ـ شرحا مبسطا لها . ورجال دين يرغبون فى تفسير نظريات الوراثة . وأزواج يشكون من زوجات تركن البيوت وأخذن معهن الأثاثات ويطلب الازواج معرفة مالذى يفعله الرجال الأفاضل فى مثل هذا الحالة .

وبين رسائلى استفسارات من أمهات شابات يسألننى عن الرضاعة الصناعية .

وهذه مجرد نماذج من المضايقات الطفيلية .

●●●

والرسائل التى تستحق القراءة والخلود لاتنتهى .

ولكن الناس لايتلقون الآن رسائل كثيرة كما كان الحال فى الماضى .

حلت البرقيات الموجزة محل الخطابات الطويلة . وجاءت التليفونات والاقمار الصناعية لتنقل الصوت الانسانى عبر القارات .

وحتى الذين يعرفون القراءة أصبحوا يستعملون شرائط التسجيل للتعبير عن مشاعرهم .

وفى بعض المدن الكبرى أنشئت ستديوهات فيديو ، لا لتسجيل البرامج فحسب ، بل لتسجيل الرسائل فى أشرطة شخصية يتبادلها الاصدقاء والمحبون ، ويقول كل منهم بالصوت والصورة ما يريد بعد أن اختفى « الكاتب العمومى » الذى كان يجلس القرفصاء مثل الكاتب الفرعونى القديم . . قرب الوزارات والمصالح وفى الميادين يدبج الشكاوى العلنية والمجهولة ورسائل الحب والغرام بأسلوب واحد معاد !

لو استطاع باحث أن يجمع الرسائل التى كتبها العرب فى السياسة والأدب والفن والاقتصاد والاجتماع فإن أضواء كثيرة ستكشف حقائق غير معروفة عن الزعماء والأفراد العاديين وتاريخ البلاد ، وذلك قبل أن يندثر تماما فن الرسائل أو فن البريد .

سنة للاحتفال بكاتب

رأينا الأمم المتحدة تخصص سنة للمرأة وأخرى للشباب وثالثة للمعوقين . . إلخ . وخلال هذه السنة توجه جهود الحكومات والشعب لهذه القضايا تبحث أسبابها وتحاول الوصول إلى علاج .

ولكن الدانيمرك خرجت على هذه القاعدة وبدأت سنة خصصتها كلها للاحتفال بذكرى كاتب واحد هو هانز كريستيان أندرسن .

رأت الدنمارك أن تخرج على المألوف فى مثل هذه المناسبة فهى لاتقيم الاحتفالات يوم مولد الكاتب أو يوم وفاته . وإنما رأت أن تبدأ السنة بمناسبة ذكرى ظهور الكتاب الأول للمحتفى به .

وخلال هذه السنة تقام المعارض فى مختلف مدن الدانمرك والمهرجانات وتمثل روايات الكاتب ويقرأ شعره ، ويعاد طبع مؤلفاته بكل اللغات .

والعملية فى الوقت نفسه مربحة لأنها ستضاعف الحركة السياحية فى البلاد فهذا الكاتب ترجمت مؤلفاته إلى ٨٠ لغة .

والناس يطالعونه بشغف فى الصين واليابان والاتحاد السوفييتى وأفريقيا والشرق والغرب .

وربما لايعرف الناس شيئا عن الدانمرك ، ولكن من المؤكد أنهم يعرفون ويسمعون عن دانمركى واحد هو هانز كريستيان أندرسن .

●●●

ولد عام ١٨٠٥ فى مدينة أودنس . أبوه صانع أحذية ، مات وترك ابنه فى الحادية عشرة فقيرا فاشتغلت الأم بغسل الثياب .

وكان الطفل قبيح الشكل يضحك منه الاطفال ، ويشتغل بأى عمل للحصول على دخل .

وتتغير حياة الطفل لسبب لايخطر ببال أحد .

عهد اليه يوما بتسليم طرد مقابل مبلغ صغير .

فتحت له صاحبة البيت الباب لتجد أمامها طفلا فى ذهول ، لايتكلم .

طال به الصمت فارتابت السيدة فى أمره ، وكادت تغلق فى وجهه الباب لولا أنه تذكر مهمته .

سلمها الرسالة وهو يقول :

ـ سيدتى أريد أن أقرأ . . هل تعطيننى كتابا .

فقد رأى الطفل الصغير داخل البيت ، ومن خلال الباب المفتوح ، صفوفا طويلة من الكتب تملأ الحائط .

دهشت السيدة لغرابة مايريده الصغير فأعطته ترجمة بالدانيمركية لكتاب ، شكسبير « هاملت »، وسمحت له أن يحضر فى أوقات معينة ليطالع الكتب فى حجرة الخدم .

ومن هذه المصادفة التى نجدها تتكرر بصورة غير عادية فى حياة الكتاب والفنانين والعظماء ، بصفة عامة ، بدأ مشوار جديد فى حياة الصغير !

ترك قريته فى سن الرابعة عشرة إلى العاصمة كوبنهاجن .

لم يساعده ما لديه من مال قليل إلا فى الوصول إلى ضواحى العاصمة فمشى عدة كيلو مترات حتى وصل الى باب المسرح الملكى .

وكانت لديه أمنيات فى أن يصبح مغنيا أو راقص باليه أو ممثلا ولكنه طرد بعد تجارب كثيرة وأخذ يستجدى الخادمات والوصيفات طعام يومه شهورا طويلة .

وحاول أن يحترف عدة اعمال ولكن الفشل لاحقه وأمسك به ، وأخيرا استطاع ان يلتحق تلميذا بالمسرح الملكى رغم جسمه الضخم !

وخلال تلك الفترة من سن الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة أخذ يكتب قصائد ومسرحيات غير معقولة يقرؤها لمن يرغب فى الاستماع اليها ويتوسل للآخرين أن يسمعوها . ولكنه كان يجهل قواعد اللغة وبدت أفكار المسرحيات رائعة أما لغتها فركيكة ولذلك رفضت جميعها .

ولكن هذه التجارب حققت غايتها .

ألح على خادمة أستاذ الاصوات فى المسرح أن ترجو سيدها السماح له بأن يلقى شعرا أمام ضيوفه فوافق الاستاذ على سبيل الدعابة . ولما رأى أن الشاب صاحب موهبة تحتاج الى من ينميها ويعاونها على الظهور، وأن الشاب مصر على النجاح قرر تقديم العون له .

جمع مدير المسرح مالا من اصدقائه والمهتمين بشئون الثقافة والفن وأدخل الشاب الذى كان فى السابعة عشرة من عمره ، مدرسة يتعلم فيها اللغة .

ووضع الرجل شرطا واحدا للشاب وهو ألا يمارس الكتابة على الاطلاق وأن يخصص وقته كله لتلقى العلم . وبعد ذلك أمامه باب الفرص يطرقه على هواه .

ولم يستطع الطالب مقاومة اغراء القلم والكتابة .

بعد سنة واحدة أصدر أول كتبه تحت اسم مستعار .

وكتب الى أصدقائه ـ بعناية ـ رسائل يحتفظ بصورة منها .

وقد نشر الاصدقاء بعض هذه الرسائل فى الصحف والمجلات بعد أن أدركوا الهدف منها .

ولم يوجه أحد لوما للكاتب فإنه ليس مسئولا عن النشر .

●●●

عاش هانز كريستيان أندرسن فى هذه المدرسة ست سنوات كانت أقسى سنوات حياته . يكتب سرا كالسجين بينما الناظر يسخر منه ومن موهبته .

وعندما رفع عنه قرار حظر الكتابة . بدأت احلامه تتحول إلى مسرحيات وروايات وقصائد رفضت كلها مرة أخرى، فإنه فى محاولاته للحصول على دخل يوفر له وسائل المعيشة ، كان يكتب بلا توقف ولا يميز بين ما يصلح للنشر وما يحتاج الى مراجعة واعادة تفكير .

ويتخرج من الجامعة . .

ويحاول الزواج مرتين . . فيرد خائبا مرتين !

ويتدخل مدير المسرح مرة أخرى يقف بجانبه يسانده وهو فى مفترق الطرق .

أبلغ ملك الدانيمرك بحكايته فوافق على معاونة الكاتب الفاشل على السفر الى الخارج يرى ويتعلم من خير مدارس الحياة : التجربة !

ويمضى سنوات متنقلا فى ايطاليا والمانيا ومالطة وافريقيا وآسيا والشرق الاوسط مدة عامين .

ويكتب أول رواية له منذ ١٥٠ عاما .

وتتابع رواياته وقصائده وقصصه الأسطورية أو الخرافية التى بلغ عددها ١٦٨ اسطورة أو خرافة ترجمت الى مائة لغة .

هاجمه النقاد لأنه يضيع وقته فى تأليف هذه الأساطير والحكايات التافهة ، ولكن ناقدا ذا بصيرة قال إن رواياته ستجعله شهيرا وأساطيره ستجعله خالدا .

إن كل رواية يكتبها مؤلف ـ كما يقولون ـ هى فى حقيقتها قصة حياته . ويصدق هذا المثل تماما على هذا الكاتب الدانمركى .

الاميرة فى أية رواية فيها جانب من طباع وشخصية الكاتب .

وهو ـ أى الكاتب « الجنى » فى رواية أخرى . . يطير قلبه الى الدور الثانى مع الطالب الفقير . ولكنه يبقى فى الدور الأول يلتهم الحلوى .

وهو « البطة القبيحة » التى تحولت الى بجعة كما نراها فى روايته « البطة القبيحة » وهو « عسكرى الصفيح الشجاع » و « عروس البحر الصغيرة» و « ملكة الجليد » وصاحب « الحذاء الاحمر » .

ويمكن للفاحص المتأمل أن يتعرف عليه من خلال هذه الشخصيات جميعا ، حتى قال أحد النقاد أن أندرسن رسم لنفسه لوحات أكثر من تلك التى رسمها الفنان الشهير رامبرانت .

ولقد أشار فى مذكراته التى نشرت فى عشرة مجلدات الى كثير من شخصيات عصره بأسلوب ذكى « خبيث أيضا » .

وقيل عنه أنه ممتلىء بذاته ، أنانى ، مغرور .

وقيل أيضا أنه متواضع .

ويمكن القول أنه يتصف بجميع هذه المتناقضات . فهو يخشى السفر ولكنه يهوى التجول والترحال ولا يتوقف قط !

وفى مذكراته عبر عن هذا كله . قال :

ـ أنا انسان غريب تشغل نفسى الهموم ساعة . وفى ساعة أخرى آخذ الامور بخفة .

ولكن الواضح أنه كان يضيق بالنقد .

عندما زار لندن ونزل فى ضيافة شارلز ديكنز وجده الكاتب الانجليزى يبكى لأنه تلقى صحيفة دانيمركية تنقده بعنف .

●●●

فى متحف مدينة أودنس التى لم يطأ أرضها نصف قرن يوجد الحبل الذى ظل يحمله معه فى رحلاته ، حتى سن السبعين ، ليقفز به من الادوار العليا إذا شب حريق .

ويوجد عدد من مسرحياته ومؤلفاته بخط يده ، وهى تكشف عن حرصه على الوصول بفنه وأدبه الى الغاية التى يرجوها .

هناك كشط وتغيير كثير فى الاوراق ، والسبب فى ذلك أنه يحرص على قراءة رواياته للنساء والاطفال ، ويعرف ردود أفعالهم ويغير ويبدل فى بدايات ونهايات القصص نتيجة لما يلمسه من تأثير .

فى روايته « ملابس الامبراطور الجديدة »نجد الامبراطور وقد بدا عاريا تماما ولكن مستشاريه أبلغوه أنه ليس عاريا وأنه يرتدى ملابس من نوع خاص ومن لايراها هو المخطىء .

ويظل الناس يبدون استحسانهم لهذه الملابس كى لايتهموا بالجهل ، وبغير الجهل حتى ينطق طفل صغير بأن الامبراطور بلا ملابس فيردد الجميع ذلك .

وعندما كتب أندرسن روايته لأول مرةكانت تنتهى بمشهد الامبراطور العارى فحسب ولا أحد يجرؤ على اتهامه بذلك .

ولكن أندرسن أضاف مشهد الطفل وكلماته بعد سماع رأى الآخرين .

●●●

وروايات أندرسن يعجب بها الصغار أولا ولكن الكبار يقبلون عليها أيضا .

وهو يستطيع أن يجعل من أى موضوع حكاية ورواية بدليل هذا العدد الضخم من مؤلفاته .

وهو يحسن الرسم والغناء وترتيب الزهور . وكان يمشى وفى جيبه مقص وأوراق - فيقص الورق على هيئة أى شىء يريده .

وفى متحفه عشرات اللوحات رسمت له رغم أنه ينفر من كل لوحة فكلها لا تبين جماله المزعوم ، أو كما يتخيله .

وفى المتحف أيضا لوحات تبين أسلوب معيشته .

عاش عزبا وحيدا حتى سن السبعين . يحيا فى حجرتين فى أحد فنادق كوبنهاجن يتناول طعام العشاء مع ست أسر تقيم فى الفندق وفى مساء الأحد يخرج للعشاء وحده ، أو مدعوا فى الخارج .

وهناك فى « متحف أودنس » تجد ، بخطه ، لوحة بارزة تبين أجمل ماكتب عن نجاحه .

قال :

« منذ ربع قرن جئت إلى كوبنهاجن ومعى حزمة فيها ملابس طفل فقير مجهول وهآنذا الان أتناول الشكولاته مع صاحبة الجلالة الملكة . أجلس الى المائدة الملكية فى مواجهة الملك الملكة » !

●●●

وجرت لأول مرة فى العالم ، عبر التاريخ كله احتفالات فى ثلاث قارات بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد شخصية أدبية خرافية لا وجود لها .

الشخصية هى شرلوك هولمز رجل الشرطة أو المخبر السرى الاستشارى الذي كتب عنه فى كل طبعات دائرة المعارف البريطانية . وهو الشخصية الخرافية الوحيدةالتى كتبت عنها دائرة المعارف إذ أنها تكتب عن ابطال حقيقيين . ولكنها رأت أن كثيرين فى العالم مازالوا يصدقون أن شرلوك هولمز شخصية حقيقية ولدت ولن تموت !

وكان الطبيب أرثر كونان ويل قد ألف روايته الأولى عن شرلوك هولمز وعرضها على عدة ناشرين ورفضوها على الفور ، قائلين إن أحدا من القراء لن يعجب بها أو يقبل عليها .

وأخيرا وافق أحد الناشرين على شراء حق نشرها ودفع ثمنا لها ٢٥ جنيها استرلينيا وأصدرها فى أكتوبر عام ١٨٨٧ . وقد استرد ما دفعه ألوفا مضاعفة .

وقـد أثارت السطور الأولى للرواية إعجاب القراء ودهشتهم وأصبحت جزءا من التراث الادبى العالمى .

تبدأ الرواية بصديق يقدم رجل الشرطة شرلوك هولمز الى الطبيب واطسون الذى يصبح بعد ذلك مساعدا له .

لا ينطق الشرطى بالكلمات المعتادة :

ـ أهـلا . . . وسهـلا .

أو :

ـ تشرفنا .

بل إنه يقول :

ـ أعتقد أنك قادم من افغانستان .

رد الطبيب قائلا بدهشة :

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ويبدأ شرلوك هولمز يبين كيف استطاع من مشاهدة ملابس الطبيب وماعلق بها ان يعرف أنه قادم من افغانستان .

وتنجح الرواية الأولى ويؤلف أرثر كونان دويل ٣ روايات أخرى و٥٦ قصة قصيرة تطبع بمعظم لغات العالم ومنها اللغة العربية .

وعندما أصيب الكاتب بالملل من هذه الشخصية التى ابتدعها قرر التخلص منها فجعل شرلوك هولمز يقتل أثناء معركة مع خصم شرير له فى شلالات راينباخ فى سويسرا .

وبقى المخبر السرى قتيلا عشر سنوات كاملة ولكن القراء احتجوا ، كما أن رصيد المؤلف انخفض فى البنـك فاضطر الى اعادة الشرطى إلى الحياة وقال أنه لم يمت فى الشلالات بل أنقذ فى آخر لحظة .

ولقد جرت أحداث روايات شرلوك هولمز فى بيته رقم ٢٢١ ب شارع بيكر فى لندن وفى هذا العنوان يوجد الآن المقر الرئيسى لإحدى شركات المقاولات الكبرى فى بريطانيا

وتتلقى هذه الشركة رسائل كثيرة ، على هذا العنوان ، من جميع أنحاء العالم من أفراد يطلبون مساعدة شرلوك هولمز على حل الغاز جنائية . ولا يعرف هؤلاء أن هذا العنوان لم يكن فى يوم من الايام مقرا لرجل الشرطة لأنه لايوجد رجل شرطة بذلك الاسم .

ولكن نظرا لكثرة الرسائل واستمرارها فإن الشركة عينت سكرتيرة خاصة ترد على هذه الرسائل باسم شرلوك هولمز .

وقد شكلت جمعيات فى سويسرا وفى إنجلترا وأمريكا منذ نصف قرن باسم هذا الشرطى ، وتصدر مجلة باسمه فى نيويورك . ومنذ عشر سنوات شكلت جمعيات مماثلة فى طوكيو وخمس مدن يابانية أخرى يرأسها أستاذ فى التحليل النفسى ترجم اعمال ارثر كونان دويل ويصدر مجلة سنوية تحلل رواياته وقصصه .

ويرى هذا الطبيب ، الذى تعمق فى دراسة هذه الروايات ، أن شرلوك هولمز استشهد مرتين بلقطة من مسرحية « الليلة الثانية عشرة » التى ألفها الشاعر الكبير وليم شكسبير ولابد من اعادة دراسة هذه المسرحية بالذات لمعرفة العنصر البوليسى الغريب الذى جعل أرثر كونان دويل يستشهد بها دون غيرها من مؤلفات شكسبير وغير شكسبير !

كما أصدر عشرون من كتاب اليابان بهذه المناسبة دراسة ضخمة عن أعمال أرثر دويل باللغة اليابانية يحللون فيها سر نجاح تلك الشخصية البوليسية ولماذا سيطرت على خيال الناس .

وقد بدأت احتفالات العيد المئوى لكونان دويل بحفلى عشاء اقامتهما جمعية شرلوك هولمز فى مجلس العموم البريطانى لأول مرة ، وكانت الاحتفالات تجرى من قبل فى أحد فنادق لندن .

وفى الشهر التالى احتفل بهذا العيد فى لوس انجلوس بالولايات المتحدة .

وفى مايو أقيمت مأدبة عشاء ضخمة فى فندق كبير فى نيويورك قدمت فيه الاصناف الشهيرة التى اعتاد أن يأكلها شرلوك هولمز وكل الوجبات المفضلة لديه طبقا لما ذكره دويل من أوصاف !

وفى الشهر نفسه ارتدى اعضاء جمعية شرلوك هولمز البريطانية ملابس العصر الفيكتورى التى كان يرتديها الانجليز فى حياة هولمز وزاروا شلالات راينباخ فى سويسرا

وأعـادوا تمثيل بعض مشاهد رواياته التى سبق أن قدمت فى افلام كما زاروا المتحف الشهـير الـذى اقـامـه ابن المؤلف فى قصر لوسن عند منطقة تقع بين مدينتى لوزان والعاصمة السويسرية برن .

وفى هذا المتحف توجد حجرة استقبال ومكتب على غرار الحجرة التى كان يجلس فيها هولمز فى لندن ويستقبل فيها زبائنه الراغبين فى استشارته .

وفى يولية عقـدت ندوة فى جامعـة مدينة ويلياند برج بولاية فرجينيا . وفى شهر أغسطس ندوة اخرى فى جامعة ستانفورد الامريكية .

والظاهرة المشتركة فى كل هذه الاحتفالات أن الناس العاديين لايشتركون فيها بل يشهدها فقط أعضاء جمعيات شرلوك هولمز الذين يحتفلون بميلاده سنويا ولا يذكرون وفاته لأن الكاتب قتله مرة واحدة ولم يكررها بعد ذلك قط !

وفى التاريخ الانجليزى يمكن اقامة عشرات الاحتفالات بميلاد شخصيات كثيرة ولكن هولمز فقط هو الذى لقى التكريم فهو البطل الادبى الوحيد الذى احتفلت به بريطانيا عام ١٩٨٧ !

وقد قيل الكثير عن الأسباب التى دعت بريطانيا لذلك . وصدرت عدة مؤلفات بهذه المناسبة ولكن الناس لم يجمعوا على سبب واحد .

قيل إن الشعب الانجليزى يحن الى العودة الى ماض مجيد يوم كانت بريطانيا تحتل أجزاء كبيرة من العالم وامبراطوريتها تمتد شرقا وغربا وجنوبا فى عصر الملكة فيكتوريا .

وقيل إن شرلوك هولمز يمثل زمنا كان يتوافر فيه الحل لكل مشكلة .

وقيل إن الحياة كانت رغدة ، فتوجد سيارة أجرة ـ تاكسى ـ لمن يرغب ، والقطار السريع يصل فى موعده فإن هولمز كان يلاحظ ذلك . أما الغرفة فى أفخر الفنادق فكان ثمنها أربعين قرشا مصريا .

وقيل إن الشعب البريطانى لم ينضج بعد . كان يطالع روايات شرلوك هولمز فى المدارس الداخلية وتأثر بها ولايزال الناس يذكرون طفولتهم ومراهقتهم ويعيدون قراءة ما طالعوة فى صباهم .

وربما يكون السبب الحقيقى الكامن وراء هذا كله أن هذا الحب لشرلوك هولمز ينعش السياحة فى بريطانيا، فإن الجمعية الانجليزية لشرلوك هولمز تنظم احتفالات يزور

خلالها الاعضاء المنطقة التى اقام فيها شرلوك هولمز عندما جاء الى لندن لأول مرة ، وكذلك زيارات أخرى لكل مكان تكلم عنه المؤلف وذهب اليه رجل الشرطة ليبحث عن لص أو قاتل .

وكتبت الصحف طويلا عن هذا كله ، فإن السياح فى امريكا واليابان والمصابين بهوس البحث عن الغريب والجديد فى هذا العالم يتبعون الجمعية فى زيارة كل هذه المناطق .

ولا أظن أنـه خطر فى عقل الكاتب وهو يؤلف رواياته أن حركة السياحة ستتبع الشخصية الادبية فى كل مكان .

وأيًا ما يكون السبب فإن تلك الشخصية الخرافية لاتزال تحيا وتلقى التكريم الذى لم يستطع الادباء العرب أن يوفروه لأية شخصية أدبية . . ربما باستثناء شهر زاد .

●●●

وإذا كانت الدول والشعوب تحتفل بهذه الطرق المتعددة بكاتب أو شخصية خرافية ابتدعها كاتب فان الدول أيضا تغير قوانينها تقديرا لكاتب .

حدث أخيرا فى ايطاليا أن وقف عضو فى مجلس النواب يعترض قائلا :

ـ هذا أول استثناء من نوعه فى بلادنا .

رد رئيس الوزراء قائلا :

ـ العالم يعرف الاستثناءات من قديم .

قال النائب :

ـ الناس يعرفون الاستثناءات فى حياتهم ، أما أن يتم استثناء لإنسان بعد وفاته فهذا أمر غريب .

اندفع النواب يتصايحون مؤيدين رئيس الوزراء الذى قال :

ـ لن ينتفع الكاتب بهذا الاستثناء . ولن تفيد منه ابنته التى أصبحت فى السابعة والثمانين . أن الشعب صاحب المصلحة . ومن أجل الشعب يجب أن توافقوا .

وافق مجلس النواب الايطالى على مشروع قانون يعطى الروائى الايطالى سفينو وورثته حق الملكية الادبية خمس سنوات إضافية !

فى العالم لتفاقيتان لحماية حقوق الملكية الادبية والفنية .

الأولى وقعت فى برن عام ١٨٨٦ وتضمن للكتاب حق الملكية الادبية لكتبهم طوال حياتهم وللورثة مدة خمسين عاما بعد الوفاة .

والثانية وقعت فى جنيف عام ١٩٥٢ وتضمن هذا الحق للكاتب أثناء حياته ولورثته ٢٥ عاما بعد وفاته .

وايطاليا تطبق الاتفاقية الاولى .

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية رأت الحكومة الايطالية أن هذه الحقوق ضاعت خلال سنوات الحرب فأصدرت عام ١٩٤٥ قانونا بمد حق الملكية الادبية ست سنوات اخرى .

وعندما اقترب موعد نهاية هذا الحق بالنسبة لورثة الروائى إيتالو سفينو تقدمت ابنته العجوز تطلب من الحكومة مد هذا الحق خمس سنوات أخرى .

قالت :

ـ مات أبى وعمره ٧٧ سنة عام ١٩٢٨ ، وقدارأيت إنشاء مؤسسة باسمه لتشجيع الادباء الناشئين ولكن حقوق الملكية الادبية ستسقط ولذلك أريد المدة الإضافية حتى يتسنى لى من عائد حصته فى بيع كتبه ، تمويل هذه المؤسسة .

وقالت :

ـ عندما تنتهى المدة القانونية سيصبح من حق الناشرين إعادة طبع كتبه والحصول على كل الارباح . وأبى لم يشتهر الا فى السنوات الخمس الاخيرة من حياته . ولم يعترف به ككاتب كبير فى ايطاليا ، وفى العالم ، إلا منذ سنوات قليلة .

ومن هنا فإن رواج كتبه تحقق فى السنوات الاخيرة . ومن الأفضل استغلال ذلك لصالح شباب الادباء فى سنة الشباب .

والمعروف أن الكاتب يحصل على نسبة معينة من ثمن بيع كل نسخة من كتبه . وينال الورثة هذه النسبة بعد وفاته فإذا رادت المبيعات كان الإيراد كبيرا .

وبالنسبة لسفينو فإنه لم يؤلف الا ثلاث روايات . .

الأولى اسمها « حياة » أصدرها وعمره ٣١ سنة .

والثانية عنوانها « كلما تقدم الرجل فى العمر » ألفها بعد ست سنوات .

وظل ٢٥ عاما لايكتب حتى ألف روايته الثالثة قبل وفاته بخمس سنوات وهى « اعترافات زينو » .

ولم تترجم رواياته من اللغة الايطالية إلا بعد وفاته . كما أنه يلجأ فى كتاباته الى التحليل النفسى والاعترافات وعذاب الضمير . وهذا النوع من الادب لم يكن شائعا فى ايطاليا خلال حياة سفينو ولذلك تأخرت شهرته .

●●●

وسفينو ليس اسمه الاصلى وإنما اسم الشهرة .

سمى عند مولده إيتورى شميتز .

أصر والده على أن يعمل بالتجارة فاشتغل كاتبا فى بنك سبع سنوات .

ومن البنك انتقل مديرا لشركة تتولى إنتاج أنواع الطلاء . وكان يكتب فى أوقات فراغه .

ونتيجة لزحام العمل ظل ربع قرن لايمسك القلم . واذا أراد الكتابة قطعت أفكاره العمليات الصناعية والتجارية وألوان وأنواع الطلاء وجودتها !

ولد فى تريستا فى ١٩ ديسمبر ١٨٦١ وهى السنة التى اشتعلت فيها الحروب الأهلية الأمريكية التى أستمرت عامين .

أما يوم مولده فحافل بالاحداث الادبية .

فى مثل ذلك اليوم ، وإن اختلفت السنون ، ألف الكاتب الامريكى توماس بين روايته « الازمة الامريكية » التى بدأها بعبارة شهيرة تقول :

« هذا زمن يختبر فيه الناس أرواحهم » .

. . يقصد ضمائرهم .

وفى نفس اليوم فقد الشاعر فيليب فيرفو فى عاصفة ثلجية وهو يمشى عائدا الى منزله فمات على بعد خطوات منه .

وماتت فى ذات اليوم إميلى برونتى بمرض الصدر التقطته عندما سارت فى جنازة أخيها !

●●●

وسفينو ليس وحده الذى تحول من أعمال البنوك ومزج أنواع الطلاء الى الأدب فإن
، الفكر حافل بالاسماء التى غلبت عليها روح الفن وفرضته على صاحبها .

الكاتب الروائى بن جونسون كان عامل بناء قبل أن يتجه للادب .

وسومرست موم درس الطب ومنه انتقل الى الادب وروايته ذائعة الصيت « اغلال
بة » بطلها طالب طب .

والكاتبة الامريكية مارى رينهارت بدأت حياتها ممرضة .

وجوزيف كونراد الروائى البريطانى كان بحارا وظل حتى سن التاسعة عشرة
ف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية وبدأ يتعلمها بعد ذلك .

ووليم فولكنر الروائى الامريكى كان موظف بريد فصل من عمله لأنه لا ينتبه
اته ويقرأ أثناء ساعات الوظيفة .

والكاتب الامريكى زين جراى كان طبيب أسنان .

وليس الاطباء والعمال وحدهم الذين تقلبت بهم ظروف الحياة ولعب القدر لعبته
نقلتهم من حال الى حال .

ن تاريخ الفن حافل بهذه الصدف ، أو الحظوظ والمفاجآت .

وم ميكس البطل الذى قام بدور راعى البقر فى ٤٠٠ من أفلام السينما الصامتة
ضابط شرطة .

روك هدسون ، مثل فولكنر ، كان موظف بريد .

جريتا جاربو بدأت عاملة مانيكير بمحل حلاق فى ستوكهولم عاصمة السويد .

فليدز كان سباحا يتظاهر بالغرق أمام الناس فيتجمعون لمشاهدته بينما يبيع
ه الساندوتشات والحلوى والمرطبات يلتهمها الجميع حتى ينجو فيلدز من
.

يختلف سفينو عن هؤلاء جميعا بأنه ظل ٢٥ عاما لاينشر روايته الاخيرة بل يعيد
يكتبه لأنه يريد تحسين عمله والإبداع فيه بالوصول إلى أعماق العقل الباطن
ـ الانسان المتردد ، وكان هو هذا الانسان المتردد ، أو هو بطل الرواية نفسه ، ولم
عن نشر انتاجه كما فعل شاعر من أصل ايطالى هو دانتى جابرييل روزيتى .

كانت زوجة روزيتى مريضة بالسل خلال عامى الزواج .

وبدلا من أن يجلس زوجها بجوارها يحاول التخفيف عنها انصرف إلى عالم الإلهام يفتش عن الاشعار !

فلما ماتت زوجته أحس بالندم لأنه أضاع أجمل سنتى حياتها يؤلف الشعر فدفن كل ما كتبه من شعر مع زوجته !

وبعد سبع سنوات جاءته فى الحلم تطلب منه نشر قصائده فاستخرجها من القبر بعد أن دفنت مع الجسد لتباع ـ نتيجة لهذه القصة ـ فى أسبوعين !

وأعيد طبع القصائد ٦ مرات فى سنه واحدة لقيمتها الشعرية وربح منها الشاعر مبلغا كبيرا ـ بأسعار ذلك الزمان ـ ٨٠٠ جنيه !

ولكن سفينو لم يربح كثيرا .

لقد ظل مجهولا فى بلاده والعالم حتى مات وتبعه سوء الطالع أكثر من خمسين عاما حتى انتبه العالم إليهوأخذ الناشرون الايطاليون يستعدون لنشر رواياته بعد أن أصبحت ملكا للناس ولا يملك الورثة حقا أدبيا فيها .

ومن هنا قالت ابنته أنها تريد استثناء يحمى حقوقها ولكنها لن تستغل هذه الحقوق لنفسها بل للادباء الشبان .

●●●

اعترضت دور النشر على ذلك!

قالت :

ـ هذا القانون بمد حق الملكية الادبية يتنافى مع الدستور الايطالى ، وكل دساتير العالم التى تنص على مساواة الناس جميعا أمام القانون ، فى الحياة وبعد الموت .

ولكن رئيس وزراء ايطاليا قال :.

ـ اذا كان الكاتب قد مات قبل ان يشتهر . . وجاءته الشهرة عند انتهاء نصف القرن المحدد لحق الملكية الادبية فمن واجبنا أن نمد المدة تعويضا للأديب الذى لم يقدره الشعب خلال ١٠٢ سنة ، وهى الفترة التى انقضت منذ إصدار كتابه الأول حتى سنة انتهاء حق الملكية الادبية .

إن القراء هم الذين أخطأوا لأنهم لم ينتبهوا الى كاتبهم العظيم، وحركة الترجمة من اللغة الايطالية الى اللغات الاخرى أخطأت عندما لم تهتم بترجمة روايات سفينو فى الوقت المناسب .

وأضاف رئيس وزراء ايطاليا :

ـ من حق الكاتب أن يوصى بحصته فى مؤلفاته لمن يريد . وهذا حق للورثة أيضا وفى اتفاقيتى برن وجنيف نصوص تسمح بذلك .

●●●

كان السير جيمس بيرى مؤلف رواية بيتر بان يزور صديقا له .

قال الصديق للروائى :

ـ ابنى مريض ونصحه الطبيب بالامتناع عن تناول المثلجات وإلا تأخر شفاؤه .

حاول إقناعه فأنت كاتب تحسن التعبير بالكلمات .

اتجه جيمس بيرى إلى سرير الصغير وقال له :

ـ اذا أكلت المثلجات ستمرض غدا .

قال الطفل الصغير ببديهة حاضرة :

ـ ولكنى أريد أن آكلها وأصاب بالمرض اليوم !

أعجب الكاتب بكلمات الصغير واقتبسها فى مسرحيته ومنح الطفل نصف قرش عن كل مرة تعرض فيها الرواية .

وهكذا أصبح الصغير . . ثريا .

وراد يارد كبلنج الكاتب والشاعر البريطانى صاحب العبارة الشهيرة « الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان » رأى الممرضة تعتنى بأصغر أطفاله عناية بالغة فأوصى لها بدخله من روايته « كتاب الغابة » فباعت الممرضة نصيبها مقابل ثروة جعلتها تعتزل فن التمريض .

وأجاثا كريستى مؤلفة الروايات البوليسية أعجبت بذكاء ابن شقيقها فمنحته نصيبها من حقوقها الادبية عن مسرحية « المصيدة » .

وقدمت المسرحية أكثر من ١٠ آلاف مرة ـ حتى الآن ـ على المسرح فإصبح قريب الاديبة شديد الثراء .

ولكن ابنة سفينو لاتريد ثراء لنفسها بل أرادت أن تنشىء مؤسسة لتعليم شباب الادباء كيف يكتبون وماذا يقولون !

●●●

ومعظم الدول العربية حتى الآن لم تنضم لا تفاقيتى برن أو جنيف . ولم تضمن هذه الدول حق الملكية الادبية لكتابها وفنانيها أو لورثتهم .

ولو انضمت الدول الى هذه الاتفاقيات لصانت حقوق الفنانين وورثتهم واستغلت هذه الاموال فى تنمية مواهب كثيرة من شباب الادباء يحتاجون الى تشجيع .

وايطاليا غيرت قانونها من أجل كاتب اسمه سفينو قد لانعرفه هنا فى العالم العربى وربما لم يسمع باسمه كثير من أدبائنا .

ومع ذلك فأن حماية أديب واحد مسألة رأت إيطاليا أنها تستحق العرض على البرلمان .

وتكريم وحماية كل أدبائنا وفنانينا مسألة تستحق النظر .

فتش عن المواهب

من ذكريات المدرسة يبقى فى عقولنا مدرس ، أو أكثر ، نحفظ له كثيرا من الحب والتقدير لأنه جعلنا نحب هذا العلم أو ذاك .

ولكننا لانستطيع نسيان مدرس اللغة العربية أبدا . فالعلم الذى يدرسه لايمكن الاستغناء عنه طوال سنوات العمر . وقد ننسى الهندسة والرياضيات وعلوم الطبيعة أما اللغة العربية فسلاحنا الدائم فى هذه الحياة .

ودروس اللغة العربية لها أسلوب يكاد يكون واحدا . ولها تقاليد مشتركة بين كل المعلمين ، وفى كل الدول وخاصة فى موضوعات الانشاء .

يدخل المعلم الفصل ليحدد موضوع الانشاء ليناسب مقتضى الحال . يكتب على السبورة ، أو يملى على الطلاب جملا معينة يطلب استعمالها فى الموضوع . وتصبح هذه الجمل ملازمة لنا وجزءا من أسلوبنا مهما قرأنا ، ودرسنا ، وتعلمنا وتجولنا عبر الزمن والدول والناس !

وبعضنا يكره حصة أو درس الانشاء لهذا السبب وحده ، فأسلوبنا يصبح مكررا وكلماتنا متشابهة نرددها بلا وعى وبلا احساس بالجمال . . رغم ما قد يكون فيها من جمال .

وجـاء عصر التليفزيون وأصبحت الكلمات التى يقولها الصغار هى الإعلانات وأغانيها ، أو التعبيرات التى ينطق بها الممثلون . لقد تراجع الادب الى المقعد الخلفى فى هذا العصر وزحف الى المقعد الامامى هذا الصندوق الصغير . ولم تعد لدينا ثقافة تصنع كتابا أو تدعم كتابا .

ومن هنا بدأ التغيير الجديد فى تدريس اللغات ، وفى موضوعات الانشاء بالذات .

وما يطلب من الصغار فى هذا العلم ، يطلب أيضا من الكبار الذين يريدون أن يصبحوا كتابا .

●●●

يقولون أن الكتابة موهبة وهذا صحيح .

ولكن الكتابة أيضا علم يدرس . ويمكن أن تكون كاتبا إذا درست هذا الفن وتعلمته .

وقد يكون مدرس اللغة والانشاء هو هذا المعلم . ولكن المعلم الاول : أنت .

ولابد أن تعلم نفسك فى الصغر إذا استطعت . ويمكن أن تبدأ فى أى عمر .

والسؤال : كيف ؟

والجواب سهل . .

إنك لا تستطيع أن تقيس موهبتك أبدا . ولكن يمكنك أن تختبر ما لديك من امكانيات وأولها قوة الملاحظة ، وثانيها الخيال الحر المتجول بلا حدود أو قيود . ثم بعد ذلك لابد أن تحب الكلمات . . أن تغرم بها وتهيم .

وإذا كنت فى المدرسة تطالب بكتابة موضوعات انشائية فإنك تستطيع ممارسة هذه الهواية بانتظام وكأنها واجب مدرسى .

انظر الى أية صورة ، أو بطاقة بريد ، أو رسم على نتيجة الحائط واكتب وصفا لهذه الصورة أو اللوحة . ولابد أن يكون الوصف قصيرا سريعا تبين فيه رد فعلك لما رأيت .

وبعد ذلك اجلس بهدوء واكتب وصفا كاملا للصورة بما فيها من ألوان وظلال .

وكلما تعمقت فى الصورة ستجد جوانب لم تنتبه اليها من قبل .

وكل ماهو مطلوب منك أن تجعل الصورة حية نابضة .

واذا لم تجد أمامك صورة فاكتب وصفا لمشهد رأيته أمس ، أو قبل أيام .

فى السويد وجدتهم يتكلمون عن مدرسة وفصلها . قالوا ان هذه المدرسة ستجعل من كل تلاميذها المجهولين ، كتابا مشهورين .

إنها تخصص الدقائق العشر الأولى من كل حصة للكتابة . تطلب من تلاميذها أن يكتبوا عما شاهدوه بالامس .

وكل تلميذ حر فى اختيار موضوعه .

وهى تقوم بتصحيح الكراسات أحيانا ليعرف التلاميذ أخطائهم النحوية واللغوية .

وتعترف بأنها تتقاعس عن عملية التصحيح لأن الهدف أن يعتاد التلاميذ الكتابة كل يوم ، أو كل أسبوع ، ويصبح من الصعب عليهم التخلص من هذه العادة .

وفى مدرسة تعليم الادب ، فى السويد ايضا ، يطلب من أولئك الذين فاتتهم الفرص صغارا أن يكتبوا كل أسبوع عما حولهم . ففى كل مكان توجد ثروة من الجمال تستحق أن توصف .

ومعلمة الكبار تقول لطلابها :

ـ اكتبوا كل التفاصيل . وصفوا الناس والموقع والصوت والرائحة . ابحثوا عن التفاصيل الصغيرة واجعلوا من يقرأ يحس كأنه معكم ويتعرف على جوانب لم يرها من قبل .

وأهم ماتقوله المدرسة :

كن ملتزما . لاتترك عادة الكتابة أيضا . واهتم بالتفاصيل الصغيرة الدقيقة وإذا اعتدت ذلك فان المراقبة المتأنية تصبح جزءا من طبيعتك ، أو طبيعة ثانية لك .

إن العامل يعتاد المهارة الفنية من الممارسة ، والخبير يكون متمكنا بحكم الملاحظة القوية .

وأنت أيضا ككاتب إذا ظللت تمارس هذه العملية باستمرار فانك تكتسب هذه المهارة تلقائيا .

وإذا بذلت جهدا ضخما فى البداية فإنك ـ مع المران والتكرار ـ لن تحتاج لجهد أو وعى ، بشرط واحد أن تكون أمينا فى المراقبة وأن تستعين فى ذلك بالتركيز الكامل .

●●●

ولكن . . .

ـ ماذا يفعل الذى يقيم فى قرية صغيرة ، يرى يوميا نفس الاشخاص ، والمكان لايتغير ، ولا يوجد ما يصلح لتقديم صورة وصفية جديدة .

إن واحدا من أكبر الصحفيين العالميين وهو فيكتور زورزا وجد نفسه فى محنة .

إنه ينتقل بين عواصم العالم على هواه ، والصحف تنشر كل ما يكتبه ، وتدفع له أجرا ضخما .

أحس أخيرا أنه لايقدم جديدا . التاريخ يعيد نفسه . والاحداث متكررة متشابهة ليس فيها بريق .

إن العالم ـ على اتساعه ـ أصبح ضيقا فى نظره ، أو على حد تعبير معلم الفصل القديم . . صار العالم أضيق من ثقب الابرة .

هجر الكاتب هذا الفضاء العريض وسافر الى قرية صغيرة عند سفح جبل فى الهند يصف القرية ، والناس البسطاء ، والحياة العادية ، ويكتب عنها ثلاث مرات كل أسبوع ليقدم شيئا جديدا مثيرا فى عالم الصحافة والادب .

ومن المؤكد أن الصحف العديدة التى تنشر مقالاته وجدت أنها تجذب القراء وإلا توقفت عن النشر .

فالصورة التى تراها عادية ربما تشد انتباه الكثيرين .

●●●

اعتادت مجلة صغيرة فى انجلترا نشر القصائد التى يبعث بها القراء .

قرأ الناقد والشاعر الكبير ستيفن سبندر فى تلك المجلة قصيدة عن قطار يعبر واديا لشاعر مجهول فى مدينة بعيدة فأحس بأنه يقرأ تحفة رائعة فكتب إلى الشاعر يعبر عن إعجابه فتلقى منه رسالة شكر تقطر خجلا .

رأى سبندر أن يدعو الشاعر للحضور الى لندن لتناول الغداء معه . وأحس بفقر الشاعر الشاب فأرسل له مع الدعوة ثمن تذكرة القطار .

جاء الشاب فى حالة توتر عصبى بالغ . وأثناء الطعام لم ينطق بكلمة ، فتولى الناقد الكبير مهمة الحديث للترفيه عن ضيفه .

وأسفر اللقاء عن شحنة من التشجيع للفنان الناشىء لم ينسها أبدا .

وأصبح الشاعر الشاب أكثر شهرة من الرجل الذى ساعده على الانتقال الى القمة .

ولكن « ديلان توماس » لم ينس الجميل أبدا . وظل يعترف ويقول :

ـ أخطر شىء على الادب ، والشعر والفن مهاجمة الناشئين . . النقد غير البناء ، فى هذه الحالة ، يعتبر جزيمة قتل .

والقتل لايكون لإنسان أو حيوان . . ولكن قتل المواهب جناية على مستقبل الشعوب والافراد .

●●●

وفى مدينة بوسطن الامريكية مدارس ومعاهد كثيرة لتعليم حرفة الكتابة .

أول درس يقولونه للجميع :

ـ لابد أن تكتب كل يوم . واذا لم تجد حولك ما يجذبك فاكتب من الذاكرة .

والذاكرة عضلة مثل باقى عضلات الجسم تستحق التمرين وإلا أصابهاالضمور. وكل شىء تراه يستحق الكتابة عنه . وما لاتجده مفيدا اليوم ستعرف قيمتهغدا، وستجد أنه أكثر جمالا وروعة .

ومتى تعلمت ومارست قوة الملاحظة فستتعلم ايضا كيف يسرح بك الخيال .

واجعل نفسك جزءامن المشهد الذى تكتب عنه . كن البطل .

كن خائفا ، متشائما ، مذنبا ، سعيدا ، ضاحكا ، أو يملؤك الامل .

ومتى كان هذا رد فعلك فإن الصورة التى تصفها ستكون حية لها ضجيج .

وفى كل الاحوال فإن شخصية الاديب الكامنة تحت جلدك ، ستخرج وتنطلق .

واختر الوقت المناسب للكتابة . . إما صباحا قبل أن يمسك بك العالم ، أو ليلا بعد أن يتركك العالم للوحدة والفن والخيال .

●●●

ومن أنجح طلاب احدى مدارس بوسطن مساعد الطيار الذى ألقى أول قنبلة ذرية فى العالم على مدينة هيروشيما فى اليابان وهى القنبلة التى ساعدت على انهاء الحرب العالمية الثانية فى الشرق الاقصى ، وأدت ، مع قنبلة نجازاكى ، إلى استسلام اليابان .

قالت المدرسة للطلاب ولم تكن تعرف أن من بين طلبتها ذلك الرجل :

ـ كل انسان ينظر للامور من زاوية معينة . ان الطيار الذى يطير فوق مدينة اثناء الحرب ليقذفها بالقنابل يقوم بعملية حسابية محضة .

هذا الطيار معه خريطة .

وكلما ألقى قنبلة على منطقة يضع حولها خطوطا سوداء حتى لايعود لضربها بالقنابل مرة أخرى .

وهو لايفكر فى الأمر من وجهة نظر عاطفية أبدا . .

لايهتم بما ستحدثه القنبلة ، أخطارها ، وأضرارها ، وضحاياها ، اولئك الذين يموتون ، وعشرات المصابين ، وأهل هؤلاء وأولئك .

الطيار فى هذه الحالة رجل يعرف علم الرياضة والجغرافيا .

إنه إنسان جرد من العواطف .

أحس مساعد الطيار بشىء جديد . . بعاطفة اخرى تجتاح كيانه وتكاد تعصف به .

ترك المعهد ليكتب عن ذكرياته ويصف التحول العظيم الذى طرأ عليه والعذاب الذى عاناه ، وربما لايزال يعانيه .

وكتب الرجل ذكرياته بأسلوب أدبى لأنه اكتشف مواهبه .

وعندما سمع الطيار بالقصة انفعل بطريقة أخرى مختلفة تماما .

وجد أنه قاتل ولكنه لايستطيع أن يكتب لأن شبح القتلى والضحايا أصبح يطارده . . فتحول من طيار إلى راهب .

●●●

قال المدرس العجوز للتلميذ الذى يهوى الكتابة :

ـ انظر بإمعان الى الاشياء العادية مثل القلم ، الكوب ، الفنجان ، طبق الشوربة . . ثم عد إلى .

بعد أيام رجع الشاب الى استاذه قائلا :

ـ تأملت طويلا ولكنى لم أر جديدا .

قال العجوز :

ـ خسارة . . لو راقبت وتأملت بعناية فستجد ما يلهمك . ستعرف كثيرا من حقائق الحياة .

تذكر « جوزو إيتامى » الكاتب اليابانى كلمات أستاذه القديم التى سمعها فى صباه وهو يبدأ خطواته الاولى فى ميدان الادب وأخذ يفكر فيها حوله .

كان إيتامى يقف فى المقبرة بعد أن شيع جنازة صديق ورأى الناس بعضهم يبكى ، وبعضهم لاينفعل بمشهد الموت، ثم قرر أن يكون ذلك كله موضوعا لروايته الجديدة « الجنازة » .

وصدر الكتاب ، ثم أصبح فيلما تتحدث عنه اليابان لأن الكاتب طرق موضوعا ممنوعا ، أو محرما لايجوز لأحد أن يكتب عنه ، ولكن « إيتامى » رأى ان تكون روايته فكاهية ساخرة ، يضحك القارىء والمشاهد للدعابة ، رغم القسوة البالغة التى غمس فيها الكاتب قلمه .

بطل الرواية عجوز من أسرة متوسطة .

قال له الاطباء :

ـ لا تأكل كثيرا .

ورغم ذلك أكل أكثر مما يحتمل قلبه وأمعاؤه .

وزاد وزنه ، ومع ذلك فإن الاطباء قالوا أنه يتمتع بصحة جيدة .

وكل ما فعله أنه ظل يتردد على الاطباء يعيدون فحصه ، وتشخيص ماقد يعانيه من أمراض .

وفى المرة الأخيرة قال له الطبيب :

ـ لم أر قلبك من قبل بهذه القوة . يبدو أنك تعرف نفسك أكثر مما نعرفك .

ولكنه أحس بالمرض عقب عودته مباشرة إلى بيته وفشل الطبيب والممرضات فى إنقاذه . . فمات .

وبدأت مسألة إعداد الجنازة وتشييعها بواسطة أقرب الناس إليه وهما ابنه وابنته والاثنان يقومان بالتمثيل على شاشة التليفزيون .

شاهد الاثنان فيلم فيديو لتقاليد الجنازات وأجراءتها حتى لا تختلط عليهما الامور وأعدا الخطبة المناسبة التى يلقيانها أمام القبر .

وحفظا كل التفاصيل الدقيقة ونفذاها بالفعل .

وبدأ إعداد الجنازة .

أظهر الزوجان أنهما لا يهتمان بالمال ولكن يحرصان على التقاليد فسحبا كل رصيدهما فى البنك ، وكانا قد أعداه للظروف الطارئة ، ولكن لم يتجمع لديهما المال الكافى .

وتبرع الأقارب ، كل حسب قدرته ، ببعض المال فوضعوه على المكتب وهم يدمعون، ولكن ريحا طارئة هبت فطار المال مما اضطر الجميع الى عدم التظاهر بالحزن ، والاسراع وراء الاوراق المالية الطائرة يجمعونها !

وكاد احد الاقارب أن يقفز من النافذة وراء ورقة مالية طائرة .

وكان المشهد مضحكا ، ساخرا يبين النفاق الكاذب والاحترام الخادع لجلال الموت .

وتكررت مشاهد النفاق كثيرا عند الحديث عن الميراث وإلى أين يتجه . كل يريد نصيبه ويصارع من أجله ، يهدد وينذر ويرجو أيضاً .

إن الافراح فى اليابان ، وفى كل مكان تصور الآن بالفيديو . ولكن الشقيقين الفنانين رأيا التقاط فيلم للجنازة يستعيدان مشاهدها إذا رغبا يوميا فى البكاء .

وخلال موكب الجنازة حاول الاطفال فهم العادات والتقاليد دون جدوى فأحسوا بالملل .

واختلطت العواطف الصادقة ، والحزن العميق ، مع أحاديث الملل التى تجرى بين اشخاص جاءوا لأداء الواجب فحسب .

وكانت أحذية النساء البيضاء ـ طبقا للمراسم المعتادة ـ مع نظاراتهن السوداء أشبه بديكور فيلم .

وكشفت الجنازة عن شراهة منظمى الجنازات وأطماعهم واستغلال أحزان الناس .

ولكن القارىء أو المشاهد لايستطيع إلا أن يضحك رغم أن الفيلم عن الموت فقد رأى الكاتب أن الموضوع ، وأى موضوع ، يمكن أن يكون ساخرا فكاهيا .

●●●

حدث عام ١٣٥٠ أن انتشر الطاعون فقتل ثلث السكان فى أوربا . ورأى كاتب فرنسى فكاهى هو « مارسيل فلوت » أن الناس لابد أن يضحكوا بعد الوباء القاتل .

ألف الرجل فرقة مسرحية من لاعبى السرك والاحياء المشوهين . عازف أعمى ، وراقص احتفظ بقدم واحدة بعد بتر الاخرى ، وعازف طبلة بيد واحدة . . . إلخ .

طافت الفرقة بالمدن تضحك الناس لينسوا مأساتهم .

والأدب اليابانى يتجه إلى الفكاهة عقب الحرب العالمية الثانية .

وأشهر رواية يابانية معاصرة ألفها موريو كيتا منذ ٢١ عاما، ولكنها لم تترجم للغات الاوربية إلا هذه الايام .

الرواية اسمها « أسرة نيرى » وتقع فى ٧٦٤ صفحة ضمها جزءان ، وهى تروى تاريخ اليابان ، منذ عام ١٩١٨ عقب الحرب العالمية الاولى، وحتى عام ١٩٤٦ بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة اليابان .

والرواية أشبه بثلاثية نجيب محفوظ ـ « قصر الشوق » ، و « بين القصرين » ، و « السكرية » فإن الكاتب قدم تاريخ اليابان من خلال ثلاثة أجيال ، فقد رأى أن التاريخ يخلق شخصيات تؤثر فيها الأحداث السياسية والاجتماعية .

ولكن ثلاثية نجيب محفوظ وغيرها من الروايات التاريخية تجرى فى ظروف اجتماعية وفى بيئة عادية ، أى فى بيت مصرى ، مثل كل البيوت وأسرة فيها الوطنى المتطرف ، والخائف ، ومن يستغل الظروف ، والمرأة التى تطيع زوجها والفتاة المتحررة .

وقال النقاد على الفور أن اليابان كلها فى المستشفى ، أى أن الشعب كله ـ تقريبا ـ مريض بينما نفى المؤلف ذلك قائلا :

ـ أسرتى فقط هى المريضة ولكن الشعب اليابانى بخير .

ورغم ذلك فإن الرواية تمثل الشعب اليابانى كما حدث فى رواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم، فإن الاسرة التى دارت حولها الرواية تمثل مصر كلها .

كان والد « موريو كيتا » طبيبا نفسيا، ومن هنا فإن الكاتب بدلا من أن يفتش عن البطل أو عن مجال خيالى للأحداث رأى أنه يستطيع أن يكتب عما يعرفه وهو الطبيب النفسى والمصابون بأمراض نفسية أيضا .

كان الأب يدير مستشفى لعلاج الامراض العقلية هدم أثناء الحرب العالمية الثانية فجرت أحداث الرواية كلها فى المستشفى ليصف الكاتب الشعب اليابانى من خلال أولئك الذين يعالجون من أمراضهم العقلية .

فى الرواية نرى اليابان أثناء الحرب العالمية الأولى دولة لاتهتم بالحرب ، تحيا فى عزلة تقوقعت على نفسها حتى جاء زلزال عام ١٩٢٣ ليهز طوكيو ويدمرها . ولكن المدينة عادت كما كانت ، بناها الشعب .

وجـاءت الحرب العالمية الثانية لتنتصر اليابان فى البداية ثم تدمر القنبلة الذرية الاولى والثانية روحها ، كما دمرت الامراض العقلية شعبها .

وجاء يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٥ وأعلن أن الامبراطور سيوجه خطابا هاما الى الشعب . . . يومها قال البطل لزوجته :

ـ هذا يوم خطير فى حياتنا لابد أن نستعد له . . ضعى أجمل ما عندك من ثياب .

قالت الزوجة :

ـ آسفة . لم يبق عندى كيمونو واحد .

وأضافت :

ـ ماذا تتوقع حتى تجعلنا نحتفل بالمناسبة ؟

قال الكاتب :

ـ هذا يومنا الاخير فى هذه الدنيا .إن الامـبراطـور الذى لم يتكلم طوال سنوات الحرب ، سيتدخل الآن لأنه لابد من تدخله . إنـه سيدعونا الى الكفاح حتى الموت . سيطلب منا رغم القنابل الذرية أن نقدم لوطننا التضحية الاخيرة . سيدعونا للقتال مع العدو .

إذا اعـوزتنا المسدسات والسكاكين فسنحارب بالايدى لنموت أبطالا .

ولكن الامبراطور يدعو الشعب الى الاستسلام والاعتراف بالهزيمة بدلا من الدمار الشامل الذى ستواجهه البلاد .

وهكـذا تستمر الرواية لتصف الاعباء والاثقال النفسية لشعب مهزوم . والجيل الجديد الذى أصبح شديد الأنانية ،ومدير المستشفى الذى أصبح لايهتم بجمع الكتب بل صار يجمع الاغذية المعلبة فى سيارته ، والبطلة الشابة التى شوه، نصف وجهها فلا يستطيع الانسان إلا أن يتطلع الى النصف الاخر الذى احتفظ بجماله !

وقد أثرت هذه الرواية فى الشعب اليابانى لأن الابطال ـ او معظمهم ـ من المجانين الذين يلتمس القارىء عذرا لهم فى كل تصرف مهما بدت غرابته .

والـرواية تسخـر من اليابـانيين جميعـا لأن الأحـداث الخـارجية انعكست على المستشفى والمرضى ، كما أثرت فى الكاتب نفسه الذى أصابه مس من الجنون .

طبع عملة مزيفة على أحد وجهيها صورته .

وأعلن نفسه مستقلا عن بلاده، ورفض- فى بعض السنوات ـ سداد الضرائب لأنه « دولة » ذات سيادة لايخضع لليابان !

وعندما سافر الى الولايات المتحدة ليكتب عن إطلاق سفينة فضاء الى القمر اعتبر نفسه« شحاذ القمر »لأنه يريد أيضا الوصول الى القمر فطرده من قاعدة الاطلاق فى « كيب كانافيرال » رجال القاعدة .

وقد راجت رواية « عائلة نيرى » فصدرت منها ٥٦ طبعة فاخرة و ٣١ طبعة شعبية خلال ٢١ سنة رغم أن الرواية تصور شعبا عاقلا وكأن الجنون قد أصابه .

ولكن المؤلف رأى ان الاطـار السـاخر الذى وضعه يجعل الناس يضحكون من أنفسهم لأن الحرب التى خاضوها مختارين ، ولم تفرض عليهم ، أصابت عقولهم حتى استردوها عندما تحولوا من مجانين الى عقلاء يهتمون بالتكنولوجيا والاقتصاد والمال !

●●●

والسؤال الأن : لماذا تكتب أيها الشاب ؟

هذا هو السؤال الذى ينبغى أن يوجه الى الكتاب فى العالم العربى الذين يتطلعون الى نشر إنتاجهم الأول فى الصحف والكتب .

والجواب صعب لا يستطيع الكاتب الناشىء أن يجيب عليه ، بل أن واحدا من الكتاب العالميين قال :

ـ هذا سؤال سخيف ، ويستحق ردا أسخف .

وقال آخر ـ لورانس ديريل ـ صاحب رباعيات الاسكندرية الشهيرة :

ـ سؤال غبى يتطلب جوابا غبيا .

وربما يكون السبب فى هذه اجابات أن الكتاب الكبار ، الذين عاشوا طول حياتهم يكتبون ، لم يعد لديهم وقت يضيعونه ويعطلهم عن الاستمرار فى عملهم .

وهم يرون أنهم لو حاولوا فهم السبب في الكتابة فقد يتوقفون فى منتصف الطريق أو قبل الوصول إلى نهايته .

ولكن ٤٠٠ من كبار الكتاب فى ٨٠ دولة رأوا أن السؤال يستحق الرد ولذلك بعثوا بالجواب الى صحيفة « ليبراسيون » الفرنسية التى أصدرت عددا خاصا عنوانه « لماذا تكتب » بمناسبة معرض باريس الدولى للكتاب .

وليست هذه أول مرة يجرى فيها استفتاء مماثل فى فرنسا . ولكن الاستفتاء الاخير تم عام ١٩١٩ . وأجراه، الكاتب الشاعر بول فاليرى فى مجلة « الادب » التى كان يصدرها واختار مائة كاتب فرنسى فحسب . . أما الآن ، بعد انتشار الاقمار الصناعية والتليفزيون ، فإن الكتاب فى كل الدول ـ عدا الاتحاد السوفييتى ـ رأوا أن يقولوا رأيهم . . لعل الجيل الجديد يفيد من هذه الآراء المتباينة .

●●●

بعض الكتاب قالوا أن الكتابة تفى ، وتحقق ، وتستجيب ، لحاجة عندهم . أو لضرورة مثل كاتب الروايات البوليسية الفرنسى جورج سيمينون الذى كتب يقول :

« أحتاج للتعبير عن نفسى ، كما اعتدت أن أفعل منذ الطفولة . وأصاب بالمرض إذا لم أفعل ذلك » .

وألبرتو مورافيا الروائى الايطالى :

« أصبحت الكتابة جزءا من حياتى اليومية . إنها مثل الدورة الدموية . دخلت كيانى وعقلى وقلبى ـ إنها جزء من تكوينى الجسدى والنفسى أيضا ـ أستيقظ كل صباح آكل وأنام ليلا . والكتابة صارت مثل الطعام والنوم » .

وكثيرون أيضا عبروا عن هذا المعنى بأن الكتابة أصبحت عادة .

ولكن للبعض رأيا آخر .

الكاتب الباكستانى سلمان رشدى يرى « أنه ـ بالكتابة يريد أن يخترع شيئا ـ يريد أن يكذب » .

ونورمان ميللر الكاتب الامريكى على العكس من ذلك يؤمن بأن « الكتابة هى الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة » .

والكاتبة الروائية البريطانية إيريس ميردوك تعتقد أن « الفن قوة أخلاقية رائعة . وهى تعتقد أن الفن للفن ولا تريد بكتابتها أن تعمل عملا طيبا . . والفنان العظيم يساعد المجتمع بتقديم الحقائق وحدها » .

أمـا انتونى باول الكاتب البريطانى أيضا فإن هدفه من الكتابة « إعادة تشكيل العالم ، أو تحقيق النظام فيه » .

إنه يرى نفسه أشبه « بالنجار الذى يعيد تشكيل أخشاب الاشجار لتصبح ذات معنى » .

وبول ثيرو كاتب الرحلات يرضى عن نفسه كثيرا عندما يضع ـ على الورق ـ « تنظيما للفوضى العالمية » !

●●●

آخرون أكثر صدقا يرون أن الوحدة أهم حافز للكتابة .

الشاعر ألين جنسبرج يكتب القصيدة لأنه يغنى وحده .

والروائية إدنا أوبريان تحس بالوحدة ولاتجد البهجة إلا من خلال كلمات تسطرها على الورق أو تطالعها وحدها والكتابة أقرب الأشياء . . للعبادة .

والروائى الحائز على جائزة نوبل جابرييل جارسيا ماركيز يعتقد أنه بالكتابة يخترق حاجز العزلة والوحدة فيزداد أصدقاؤه حبا له .

وهناك من يستمتع بالكتابة .

والبعض يجد فيها تسلية . .

وكثيرون . . كثيرون يريدون الحفاظ على الشهرة التى دامت لهم ، أو لايريدون أن يخذلـوا القراء الذين يتابعونهم ويعجبون بهم مثل كاتبة فرنسا فرانسواز ساجان التى اشتهرت بكتابها الأول « مرحبا أيها الحزن » .

قالت ساجان صراحة إنها مدلهة بحب الكتابة ولا يمكنها القيام بعمل آخر .

والكـاتب المسرحى البريطانى الذى اشتهر بفن اللامعقول « صامويل بيكيت » يكتب لأنه لا يستطيع السباحة .

وعدد من الكتاب أكد أنه يريد أن يترك أثراً . إن الموت فناء والكتابة ستبقى طويلا مثل الكاتب الالمانى ستيفن هيرمان ، يبحثون عن الخلود .

والروائى البريطانى جراهام جرين يختلف عن الكثيرين . يعتصر أفكاره عندما تنضج فيصبها على الورق . الكتابة بالنسبة إليه « حالة غليان عقلى لابد أن يتساقط بخار الافكار حروفا وكلمات » !

وارتبطت الكتابة فى العالم الثالث بالتعبير عن قضايا سياسية . . .

فى أفريقيا ارتبطت الكتابة أثناء الاحتلال بالدعوة إلى الجلاء . . .

وبعـد الاستقلال كانت الكتابة تعبيرا عن رغبات الشعوب وأهدافها فى التنمية وصولا الى الرخاء .

وفى جنوب افريقيا مثلا فإن الكتاب يسعون الى القضاء على التفرقة العنصرية التى حتمت عليهم النضال بالكلمة .

ومعظم كتاب العالم النامى يكتبون ليعبروا عن هؤلاء الذين لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم . . لأنهم أميون ، أو خاضعون لرقابة صارمة ، أو لأنهم فى ساحات قتال حولهم رصاص يتطاير وصواريخ تتفجر ولابد لهم من كاتب يغنى أمنياتهم .

●●●

ومن المؤكد أن كل هذه الاجابات تختلف تماما عن الروح التى بدأ بها علم أو فن الكتابة عام ٨٥٠٠ قبل الميلاد كما تقول بعض الآثار ، أو عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد كما تقول آثار أخرى .

فى البداية كانت الكتابة تعبر بصورة الاشياء والاشخاص . . فصورة القدم تـعبير عن المشى

وكانوا يعبرون عن العواطف بالرموز .

وظلت اللوحات التى حفرت على الطمى فى بلاد الشرق الاوسط وبالذات مصر والعراق وإيران تشير الى صفقات تجارية أو لبيع الاراضى .

وتقدم الانسان ليبتكر رموزا لصوت الكلمة أو مقاطعها .

ولم يخطر ببال كل هؤلاء المخترعين المجهولين أنه سيجىء اليوم الذى سيتخصص فيه ألوف وملايين الأفراد للكتابة .

ولقد ذكر البعض فى رده على أسئلة المجلة الفرنسية أنهم يكتبون لسداد التزاماتهم المالية . . للطعام والشراب والمسكن وسداد الفواتير والوفاء بمتطلبات الحياة .

والكاتب الشاب الذى لم يحترف الكتابة بعد مطالب بالحذر من أن يكتب ليعيش .. ويأكل .

إن الكاتب الشاب قد يسعى لتقليد الآخرين .

وبعد فترة من الزمن لا يستطيع الكاتب الشاب القيام بأى عمل آخر فيضطر الى مواصلة الكتابة باعتبارها طريق الحياة الوحيد ..

روشتة أدبيــة

مشى إلى المستشفى فى بطء فهذا يومه الأول كطبيب .

كان فى حيرة لايعرف كيف يمارس عمله ، رغم ما تلقاه محاضرات ونظريات ، ودروس فى علوم النفس والتشريح .

دخل مكتب رئيسه تتعثر الكلمات على شفتيه ، من أين يبدأ ، وكيف يبدأ .

لم تكن أمامه فرصة ليتكلم فقد وجد الطبيب يصرخ فيه قائلا :

ـ لماذا تأخرت ؟

قال :

ـ بل جئت فى موعدى . . ياسيدى .

استمر الطبيب يصرخ :

ـ ألا تعرف أنى مرتبط بموعد سابق .

قم أنت بفحص المرضى ، وإذا لم تجد علاجا . قل لهم أن يحضروا فى هذا الموعد من الأسبوع القادم .

ونادى الممرضة قائلا :

ـ أحضرى له حصيلة اليوم .

وانصرف ليتركه جالسا بمعطفه الابيض أمام مكتب صغير وضعت فوقه الاسئلة التى ينبغى أن يوجهها للمرضى . . وما أكثر هذه الأسئلة فهو طبيب نفسى .

دخل المريض الاول فوجه اليه السؤال الاول :

ـ شكواك ؟

ـ زوجتى .

لم ينتبه الى الجواب فوجه السؤال التالى المدون فى الأوراق :

ـ تاريخ المرض .

قال الرجل :

ـ إنها تستيقظ فى منتصف الليل ، تضىء الحجرة وتظل تروح وتجىء فى الشقة الصغيرة وأخيرا توقظنى لأنها تسمع أصواتا ولاترى أصحابها .

وقد احتملت كثيرا ، ولكنى عاجز عن مزيد من الصبر . . يادكتور .

وجد الطبيب فرصة للخلاص . قال :

ـ أحضر زوجتك فى الاسبوع القادم لأستمع إليها .

قال المريض :

ـ إنها معى فى الخارج .

لم يجد مفرا من استدعائها فطلبت الانفراد بالطبيب لتقول له :

ـ زوجى . يوقظنى فى منتصف الليل لأنه يسمع أصواتا من بعيد . عالجه وأنقذنى يادكتور .

قال لها :

ـ موعدكما الأسبوع القادم .

وكتب فى الدوسيه :

ـ من منهما المجنون . من يقول الحقيقة ؟

وقال فى تشخيص المرض :

ـ كلاهما يشكو من أرق الآخر .

وانطلق هاربا من المستشفى الحكومى يحدث نفسه قائلا :

ـ إنهما عجوزان ولم يقولا « ياولدى » بل قالا : يادكتور .

لقد صرت طبيبا منذ يومى الأول .

●●●

هذه لقطة من كتاب « جرعة قوية من نفسى » للطبيب الأديب دانى أبى يصور فيها ذكريات يومه الأول كطبيب .

وقليل من الاطباء كتبوا مذكراتهم عن هذا الحدث الهام فى حياتهم لأن الاطباء والادباء والفنانيين قليلون .

هذا هيكتور برليوز الموسيقى الفرنسى الذى هرب من الامتحان الشفهى للطب ليتفرغ للموسيقى يصف تردده ، وحيرته ، بين مهنته وهوايته . يوم وصوله إلى باريس، فقد تعهد لأبيه أن يمارس الطب فى باريس وأن يهجر الموسيقى .

صحبه زميل الى المستشفى الذى يقع فى البدروم .

وقبـل وصولهما أشترى الزميل جثة أخذ يمزق أطرافها والرأس والجمجمة ففزع برليوز من المكان والرائحة وأنطلق إلى بيته وكأن الموت فى أعماقه .

جاء زميله يحاول اقناعه بالعودة ولكنه رفض فلم يعد فى قدرته أن يدرس التشريح أو يدخل المستشفيات القذرة ويسمع صرخات المرضى وأنين الموتى .

ولكن زميله أقنعه بسخافة خططه وطلب منه العودة مرة أخرى إلى بيت الموتى :

المشرحة !

عاد .

ولاحظ أنه تغلب على الصدمة الأولى بعد ٢٤ ساعة . لقد عبر الأزمة وبدأ يَستمتع بالعبث فى صدر إنسان ورئتيه .

قال صاحبه :

ـ أصبحت متحضرا .

أجاب بسخرية .

ـ متحضرا للغاية !

وألقى بكتف الميت إلى فأر !

واستمر يمارس التشريح ثم توقف ليفكر فى صاحب الكتف .

وكان توقفه طويلا فقد انتهى إلى أن يلقى بنفسه قلبا وروحا فى عالم الموسيقى .

●●●

وكل كاتب وكل أديب ، لابد أن يكتب فى بعض رواياته عن المرضى . فبطل الرواية ، أية رواية ، يصبح مريضا فى فترة من حياته يضع نفسه بين يدى الطبيب وينظر إليه بثقة ورهبة .

ومسيرة الحياة يقطعها دائما طبيب .

والأدب والفن يتعرض دواماللطبيب، يصفه بالمثالية ، فى أغلب الأحيان ، ويقدمه شريرا أو شيطانا فى مناسبات قليلة .

وفى أحوال نادرة سخر الأدب ـ فى عبث ـ من الاطباء !

ولو جمعنا ما قاله الأدباء عن الاطباء والمستشفيات عبر العصور فإننا نجمع تاريخ الطب من وجهة نظر أدبية .

فى رواية « دكتور زيفاجو » التى كتبها الأديب الروسى بوريس باسترناك الحائز على جائزة نوبل أرخ للثورة الروسية من وجهة نظر طبيب درس الطب أربع سنوات .

وفى الرواية وصف لفترة الدراسة عندما تهز عمليات تشريح الجسد الانسانى الطالب الجديد ، لأول مرة ، فيتساءل عن قصص الحياة المجهولة للموتى الذين يفحص جثثهم .

ويجد الموت شيئا عاديا فى حجرة التشريح التى أصبحت بيته ومقره وحياته كلها .

ويقرر أن يستقر على دراسة الطب لأن الرجل يجب أن يقوم بشىء عملى فى حياته بدلا من الفن والخيال !

ومن خلال الدراسة يتساءل لا عن لغز الحياة ذاتها ، فالإنسان يحيا بقلبه وجهازه العصبى ،ويدرس حركة الأرض والسماء ، ولكنه لايرى قلبه أو جهازه العصبى ولايعرف الجغرافيا الخفية لجسمه البشرى .

●●●

ومن قديم والطب يمثل **فصلا من فصول الأدب** ، أو أن الادب شاهد على الطب .

هذا أفلاطون فيلسوف الاغريق القديم يصف نوعين من الاطباء وجدهما فى زمانه . .

الاول الطبيب الذى يعالج العبيد . إنه لايستمع اليهم . الحديث من طرف واحد فحسب .

يقوم الطبيب بالتشخيص وتحديد العلاج من خلال تجاربه القديمة وكأن لديه معلومات وثيقة عن كل شيء .

والثانى طبيب الاحرار الذى يستمع للمرضى بعناية . ولكنه يحدثهم طويلا عن الجسد الانسانى وكيف يعمل . يحاول إدخال الطمأنينة إلى قلوبهم ولكنهم لايريدون أن يتعلموا الطب فهم يبحثون عن الشفاء . . فحسب .

وهذا هو الكاتب الشاعر الألمانى جوتة .

إنه أحد الأدباء القلائل الذى كان ظمآنا للمعرفة فشهد عمليات التشريح حتى لاينفر من شيء . وحضر دروسا طبية ليعرف الإنسان فى حالات ضعفه فيحسن وصفها .

وقليل من الادباء فعلوا ذلك ولكن جوتة رأى أنه لا يستطيع أن يصف المرض دون أن يعانيه أو على الاقل يرى بعض المرضى .

وهذا هو برنارد شو الكاتب الايرلندى الساخر يصف منذ أكثر من نصف قرن ما أصبح إهمالا شائعا من بعض الاطباء .

ففى مسرحيته « ورطة طبيب » يروى بالحوار قصة طبيب استأصل « أحد الجيوب » لمريضة فرأت شقيقتها أن تستأصل « جيبا » دون أن يكون لديها ما تعانى منه وتقاسى .

أجرى الطبيب العملية ساخرا عاتبا ضاحكا ففتح معدة سيدة سليمة ولكنه وهو « يخيط » الجرح تذكر أن المرضة نسيت قطعة من الإسفنج فى معدة المريضة !

●●●

ولعل الكتّاب الروس هم أكثر الذين كتبوا عن الأطباء نظرا للأحوال السيئة التى مربها المجتمع الروسى .

هذا أديب روسيا الكبير تورجنيف يروى حالة الطبيب الذى يرى أمامه مريضا تزداد حالته سوءاً فيفقد الثقة بالنفس .

إن المريض فى هذه الحالة يهزم الطبيب فتتلاشى ثقته بالنفس . ويصبح خائفا ينسى كل ما تعلمه .

والمريض لم يعد يثق بطبيبه ، وأسرة المريض تفطن لذلك فتتهامس .

ويعود الطبيب إلى كتبه ومراجعه يفتش فيها ، ويجرب علاجا بعد الآخر ، دون جدوى .

يرى أمامه انسانا يموت ولايستطيع إنقاذه . وقد يستطيع طبيب الوصول الى الداء والدواء .

ويفكر الطبيب فى الاستعانة بزميل ولكنه يخاف الفضيحة . يخاف أن يتحدث الجميع عن فشله فيعزى نفسه قائلا :

ـ لاتهتم .

ويموت المريض .

ويستمر يواسى نفسه :

ـ ليس هذا ذنبك . لقد اتبعت القواعد .

ولكن الطبيب ، فى أعماق نفسه ، يعرف أنه عندما يثق الناس به ثقة عمياء فإنهم ـ مثله ـ عاجزون .

وأنطوان تشيكوف الكاتب الروسى الكبير فى روايته « عنبر رقم ٦ » يصف مستشفى القرية .

إنه فى حالة يرثى لها . المرضى والممرضون والخدم ينامون فى نفس العنبر والجميع يائسون .

المشرف على المستشفى يسرق المرضى . والطبيب يبيع الدواء . والسكان يرون هذا ويرددونه بمبالغات كثيرة ولكنهم يتقبلون الأمور بهدوء .

ويبرر المسئولون لأنفسهم هذه الأوضاع قائلين :

ـ العمال والفلاحون هم الذين يتوجهون الى المستشفى بدلا من البقاء فى البيوت وهى أسوأ كثيرا من المستشفى .

ويقرر الطبيب إغلاق المستشفى وطرد المرضى فهذا هو الحل الوحيد .

ولكن الطبيب يجد أن هذا الحل لايخدم هدفا ، فما دام الناس قد قبلوا هذا المستشفى فمعنى ذلك أنه ضرورى لهم .

ويقبل الطبيب الأوضاع كما هى، فالقذارة، والخرافات، والمخالفات، ضرورية ولايمكن الاستغناء عنها إذا حققت هدفا مفيدا .

●●●

ولكن ألكسندر سولجنشتين الكاتب الروسى المعاصر ينظر إلى الطب والاطباء من وجهة نظر أخرى .

أمامه مريض فشل علاجه عاما بعد عام .

كسرت عظام ظهره وأصبح أمله أن تلتحم العظام وتلتئم مرة أخرى ليقول لزوجته :

ـ اصبحت سليما . يمكننى المشى الآن .

وكل المرضى يؤمنون فى أعماق قلوبهم بأنه يوجد طبيب، أو ساحر عجوز، يملك الدواء الذى ينقذهم !

والأقوياء والأثرياء يضحكون عندما نحدثهم عن المعجزات فهم لايؤمنون بها .

ولكن فى لحظات ضعف الانسان، وخوفه، وفقره، ومرضه، يظل يحلم بالمعجزة، يعيشها ينتظرها ويتعلق بها .

إنه يؤمن بالمعجزة لأنه فى حاجة إليها .

وقد ظل الموسيقى االعالمى لودفيج فون بيتهوفن ينتظر المعجزة ست سنوات كاملة .

أخذ يخدع نفسه أملا فى الشفاء .

ولم يستطع أن يقول للناس :

ـ ارفعوا أصواتكم . اضرخوا أمامى فإنى لا أسمع . إنى أصم .

لقد رفض أن يعترف بضعف حاسة السمع فإن هذه الحاسة بالذات يجب أن تكون مكتملة عنده وأقوى من الآخرين .

فشل العلاج ولم يستطع الاختلاط بالناس والاندماج بينهم . وعجز عن الاستمتاع بأجمل مافى الحياة وهو الحوار والحديث والهمس بثقة ومودة للآخرين .

أصبح خائفا وهو فى صحبة الناس .

نصحه الطبيب أن يتخلى عن حاسة السمع أو يستغنى عنها فإن هذا العجز سيظل دائما مزمنا .

كتب عليه أن يعيش منفيا وأن يبقى ذليلا فى صحبة الناس عندما يستمع الآخرون الى لحن يأتى من بعيد ، وصوت الراعى يغنى ، أما هو فلا يسمع لحنا أو صدى لكلمات الراعى وموسيقاه اليومية .

●●●

إن كثيرا من الأدباء كتبوا عن الاطباء المرضى دون أن يدخلوا مستشفى أو يروا عنبرا أو تسمح لهم الظروف بدخول غرفة العمليات .

وكثير من المخرجين والممثلين قاموا بتقديم أفلام وأدوار مماثلة دون تجربة حقيقية أو معاناة .

ويوجد عدد محدود من الأطباء العرب كتبوا مذكراتهم عن الطب أو مارسوه مثل طبيب العيون وعالم البحار الدكتور حسين فوزى، وطبيب الاسنان الدكتور التنير . . إلخ .

وعرفنا طبيبا مثل الدكتور يوسف إدريس يترك الطب ليكتب الروايات الطويلة والقصص القصيرة .

ورأينا طبيبا مثل الدكتور إبراهيم ناجى يجمع بين الاشتغال بالطب ونظم القصائد .

وظهرت نظرية جديدة اسمها التفسير الطبى للفن أصحابها أطباء ـ يهوون الفن .

أصحاب النظرية الجديدة من الاطباء لايشتغلون بالأدب، بل يستخدمون معلوماتهم ودراساتهم الطبية فى تفسير حياة الفنانين وأعمالهم .

وهؤلاء الأطباء يقرأون كل كلمة كتبها الأدباء والشعراء ، ويطالعون ، تحت منظار مكبر ، صورهم ولوحاتهم ، للوصول إلى حقيقة التناسق بين اعضاء الجسم ، وماذا وراء ملامح الفنان ، ويدرسون أحواله وظروف المجتمع .

وهم يطالعون النوتة الموسيقية التى كتبها الملحن ، ويدرسون خطه ، وينقبون عن الكمان أو البيانو الذى عزف عليه الموسيقار لمعرفة تأثير الكمان فى حركة الفلك أو العكس ، وهل يؤدى الانحناء على البيانو إلى مرض يؤثر فى الفن والفنان .

ولا يتركون اللوحات التى رسمها أى فنان دون تحليل بقصد معرفة الآثار أو النتائج الطبية لكل عمل فنى .

ومن قبل كان هناك تفسير اجتماعى للفن والأدب ، والفنان يعكس ملامح طبقته .

●●●

قال بعض النقاد أن الشحوب الذى بدا على وجه لوحة الجوكوندا للرسام ليونارد دافنشى يرجع إلى أن صاحبة الصورة كانت حاملا . . وكان ذلك أول تفسير طبى من نوعه ، وهدفه الوصول الى سر صاحبة الصورة وليس سر الرسام .

أما الآن فإن صاحب العمل الفنى هو موضوع التشخيص الطبى بلا تشريح ، وتحليل أو اشعة .

بدأ العلم الجديد ، أو الدراسة الحديثة المتطورة فى أسبانيا عن فنانها الكبير فرانسيسكو جويا صاحب لوحات « الأمثال » ، و « ويلات الحروب » « ومصارعة الثيران » « والمصائب » وعشرات غيرها .

أما سر اختيار جويا فيرجع إلى أن حياته التى طالت ٨٢ سنة وانتهت عام ١٨٢٨ تنقسم قسمين كل منهما منفصل عن الآخر تماما .

الجزء الأول يتوقف وعمره ٤٦ عاما عندما أصيب بالصمم فجأة . . ليبدأ الجزء الثانى والاخير من حياته .

●●●

فى القسم الاول رسم جويا لوحاته على السجاجيد واختير رساما لملك اسبانيا وكل صوره هادئة لاتفزع مشاهدها .

وبعد إصابته بالصمم نجد لوحات تثير الفزع :

نساء يحملن الكراسى فوق رءوسهن .

أمهات يبكين بجوار أطفالهن القتلى .

مدنيون يركعون أمام معذبيهم من العسكريين .

أشخاص ذبحوا وشوهوا وعذبوا وقتلوا بالرصاص . وتحت هذه الصورة كلمات كتبها « لماذا » و « هذا ما رأيته » و « لافائدة من البكاء » !

ولم يصور معركة عسكرية تثير الإعجاب ، بل نقل الرعب إلى كل من يتأمل اللوحات .

وقال المؤرخون إن جويا كان يحمل مصباحه ليلا ويخرج إلى ساحة القتال بعد انتهاك المعارك يفتش جثث القتلى والجرحى ويرسم أفرادا لا مجموعات ليعكس عذاب وآلام صاحب الصورة، وتخيل رعب المشاهد الذى يراها بعد ذلك فى متحف « برادو » فى مدريد .

وقالوا أن فنه ـ بعد صممه ـ يعتبر فنا أسود .

وكان السؤال :

ـ لماذا تغير الفنان ؟

كان الجواب الأول :

ـ أصبح أصم تماما ، يشك فى كل الناس ، ولا يثق بأحد . صار أسود القلب ، وانعكس ذلك على يده وهى ترسم ، أو أصيبت يده وفنه بعدوى السواد .

وكان هذا هو التفسير النفسى للفن .

ولكن التفسير الطبى شىء آخر . . جديد .

●●●

حدث يوما أن كسرت العربة التى يستقلها جويا أثناء رحلة جبلية فنزل يساعد السائق فى عملية الإصلاح .

وكانت النتيجة حمى تركت آثارها فيه .

وهذا هو التفسير الطبى الأول المباشر .

وقدم التفسير الثانى أطباء تخصصوا فى علاج الرسامين هذه الأيام . إنه يعد الألوان ويمزجها .

ويطحن بنفسه الرصاص الأبيض ويضيفه للألوان مما أعطى لوحاته ذلك البريق الذى اشتهرت به .

وهو يرسم بسرعة فى طوفان هادر . . أنهى لوحة زوجته فى ساعة . ورسم ملك أسبانيا فرناندو فى جلستين .

ويستعمل فى الرسم كل شىء . فرشاة . قطعة قماش ممزقة . وأحيانا يضع أصبعه فى الألوان ويرسم بالأصبع نفسه .

وهو يرتدى ملابس ملوثة بالأصباغ والألوان ممزقة تلتصق بجسده أياما .

ويتسلل الرصاص الأبيض من ملابسه ، وأصبعه . وهو يتنفسه أياما متصلة . . الى جلده .

وثبت طبيا أن الجلد ، ولو بغير جروح ، يمتص هذا الرصاص .

وثبت طبيا أن العظام أيضا تمتص هذا الرصاص ، وتحتفظ به بنسبة معينة ، فإذا زادت تصبح كفيضان الانهار . وتنتقل إلى الكلى ، والكبد ويصيبها بأمراض حادة .

إن كل لوحة أثرت فى صاحبها . أبدلته إنسانا آخر ، وفنانا مختلفا .

لقد أصيب بتغيير فى الشخصية واكتئاب كامل .

وإذا كان رقيقا فى النصف الأول من حياته فإنه يصاب بالدوار وعدم التوازن والاضطراب العقلى والهلوسة .

ولا يمكن أن ينجو فنه من هذا كله .

إن جويا كما يقولون دفع ثمن كل لوحة من عقله وكبده وكل جزء فى جسده .

●●●

وانتقلت الدراسة ، أو النظرية من أسبانيا إلى الاتحاد السوفييتى .

لقد كتبوا كثيرا عن تأثير علاقة تولستوى بزوجته . . على أدبه . وكيف أنه فى مرضه الاخير غادر بيته واستقل القطار ليموت فى بيت ناظر محطة مجهول .

ولكنهم الآن يكتبون عن تأثير الصرع على شخصيات الروائى الروسى الكبير تيودور دستويفسكى مؤلف « المساكين » و « بيت الموتى » و « المهانون المجروحون » و« المقامر » و « العبيط » و . . . روايات أخرى كثيرة .

ولكنهم لم يعلنوا إلا النتائج الأولية .

●●●

ومن روسيا إلى أمريكا طبقت النظرية على الشاعر . . إدجار ألان بو الذى مات عام ١٨٤٩ فى سن الاربعين .

وإدجار ألان بو ابتكر الروايات البوليسية وقدم شخصية المخبر السرى قبل انشاء سكوتلاند يارد فى إنجلترا ، وقبل إنشاء البوليس فى معظم مدن أمريكا .

بدأ بروايته الشهيرة « جريمة فى شارع المشرحة » عندما قدم لأول مرة جثة فى حجرة مغلقة لا يستطيع دخولها أو الخروج منها قاتل !

ويحاول رجل الشرطة معرفة السر فى محاولة للوصول إلى القاتل وهل كسر جانبا من النافذة ودخل الحجرة .

ولكن ـ السؤال هو :

ـ كيف استطاع إغلاق النافذة دون أن يترك أثرا ؟

وتبدأ عملية الاستنتاج والتحليل فربما تكون الجريمة قد تمت قبل دخول الجثة إلى الغرفة أو وقعت الجريمة ساعة اقتحامها .

ومن « إدجار ألان بو » تنتقل كتابة القصص الغامضة إلى آرثر كونان دويل مخترع شخصية شرلوك هولمز وموريس لبلان مبتكر أرسين لوبين وأخيرا أجاثا كريستى وبطل رواياتها رجل البوليس البلجيكى الشهير بوارو . . و . . . وعشرات غيرهم .

●●●

التحق إدجار ألان بو بالجيش ودخل الأكاديمية العسكرية الأمريكية الشهيرة « وست بوينت » وكان رياضيا يقفز من ارتفاع ٢١ قدما ويسبح سبعة أميال ونصف ميل .

وقد نجح فى كل شىء إلا جمع المال فعاش ومات فقيرا .

ولكنه استطاع أن يقفز بتوزيع المجلات التى عمل فيها رئيسا للتحرير ، ولكنه طرد لا لشىء إلا لتفوقه ونجاحه .

ولقد رأى الأمريكيون أن يكون لهم مثل الفرنسيين شاعر متشرد كالغجر يشرب حتى الثمالة ويموت سكيرا فى الطريق .

ولكن النظرية الجديدة تقول إنه اصيب بامراض نفسية نتيجة وفاة أبويه الحقيقيين والأبوين اللذين تبنياه وكذلك زوجته .

وتقول النظرية أيضا أنه ورث أمراضا فى المخ عن أبويه . وأصيب بحمى مخية كما

أنه عانى نقصا فى بعض العصارات الطبيعية المنشطة مما أثر فى كيمياء المخ وكيمياء الجسد كله !

●●●

ونظرية التفسير الطبى للفن تؤكد مذهبا عربيا قديما يقول « إن العقل السليم فى الجسم السليم » .

وأصحاب النظرية الجديدة من الأطباء الفنانين أو الفنانين أو الأطباء يقولون : إن تغير المناخ يؤثر فى مزاج الفنان . . شعره وكتاباته ولوحاته . . وكذلك الطعام والرجيم .

ولو طبقنا هذه النظرية فى الأدب العربى والشعر فإننا سنشهد تفسيرا جديدا لقصائد أبى العلاء المعرى . وقد نبرىء « امرؤ القيس » ومئات من الشعراء والادباء والفنانين العرب من اتهامات كثيرة التصقت بهم .

وقد يطلب إلزام كل الكتّاب والفنانين بفحص طبى دورى للاطمئنان على صحتهم من ناحية ، وليدرس الأطباء والنقاد - فيما بعد - على أثر ارتفاع وانخفاض درجة الحرارة ، وضغط الدم على روايات الفنانين وأشعارهم وأنغامهم أيضا .

وسنجد أن الفنانين المجهولين الذين ملأوا الآثار بالصور واللوحات دفعوا ثمنا غاليا لكل لوحة مثل آلاف العمال الذين نقلوا حجارة الهرم الأكبر وكل أهرامات الفن والشعر والجمال !

●●●

وفى العالم العربى يوجد أطباء يتخصصون فى علاج النجوم، يستريح ، أو يطمئن إليهم فنان ، فيقوم بمهمة الدعاية له داخل الوسط الفنى فيلجأ إليه فنانون آخرون وتصبح عيادة الطبيب ملتقى لأهل الفن .

ولكن الأمر يختلف تماما فى الخارج .

شركات التأمين تصر على اختيار طبيب بالذات لا لعلاج الفنانين وإنما للتأمين على حياتهم .

والعملية لا تتم لحساب الفنانين وإنما لحساب شركات السينما التى تخشى أم يمرض فنان أو يموت فجأة لأنه يعانى مرضا حادا ؛ وبذلك ، يتعطل ، أو يتوقف ، تصوير أى فيلم فتخسر الشركة مئات الألوف ، أو عشرات الملايين من الدولارات .

ومن هنا كانت عملية التأمين أساسية حتى أنهم فكروا ، فى وقت من الأوقات فى كتابة اسم الطبيب على مقدمة الفيلم عند عرضه ، ولكنهم عدلوا عن ذلك لأن فيه نوعا من الدعاية للأطباء من ناحية ولأنه يصور الفنانين وكأنهم مجموعة من المرضى يحتاجون إلى طبيب قبل أداء أدوارهم !

●●●

وقد نشرت أخيرا مذكرات الدكتور رونالد سكوت ثورن بعنوان « طبيب النجوم » .

حاول ثورن عند فحصه للنجوم أن يعرف ما إذا كانت هناك ملامح مميزة أو خصائص معينة للفنانين فلم يجد . ولكنه لاحظ ظاهرة عامة يشتركون فيها جميعا وهى أن كلا منهم حريص على أن يبدو لائقا طبيا، وأن يجد الرأى العام فى شخصه إنسانا فتيا مهما تقدم به العمر .

وفى حياته الخاصة قد يكون الفنان عصبيا أو مريضا ولكنه أمام الكاميرا إنسان آخر قوى البنية ، يقاوم المرض فالمنافسة حادة فى عالم الفن .

يبدأ الطبيب بسؤال الفنان عن الأمراض المزمنة له ولأسرته وهل سبق لأحدهم أن تعرض لأزمة قلبية .

ولايهتم الطبيب بإصابة الفنان بمرض السكر مادام تحت الرقابة، ولا تعنيه زيادة الوزن أو الامراض المزمنة . . وكل مايهتم به أن يتنبأ بأن الفنان سيعيش شهرا كاملا فحسب، وهو مدة تصوير الفيلم ، أما إذا مات الفنان بعد انتهاء التصوير مباشرة فهذه مسألة تهم أسرة الفنان والورثة لا الطبيب .

حدث أن سأل الطبيب ثورن الفنان بيتر سيلرز عما إذا كان فى صحة جيدة فوقف على رأسه ليثبت أن صحته على خير ما يرام .

وسأل الفنان جون وين عما إذا كان على ما يرام فقال وين :

ـ هأنذا أمامك . . . الرجل السليم .

وبدا جون وين شديد الغرور .

ولكنه مات بعد عامين .

وجاءته الممثلة زازا جابور ومعها كلبها .

قالت :

ـ أرجو أن تبدأ بفحص كلبى أولا .

اعتذر قائلا :

ـ لست مختصا بفحص الكلاب .

وخشى أن تغضب فأضاف :

ـ ولكن قريبا لى تخصص فى الطب البيطرى .

ووصلت إلى العيادة أنيتا أكبرج ومعها أحد ازواجها السابقين ، أما جيمس ماسون فجاء ومعه زوجته .

وطبيب النجوم يمارس عمله فى أماكن عديدة ينقل إليها كل أدواته الطبية ، جهاز رسم القلب والأشعة . . إلخ .

أحيانا يفحص الفنانين فى حجراتهم الخاصة فى الفنادق فيقطع عليه عمله رنين التليفون .

حدث أن وضع الترمومتر فى فم « ماريا كالاس » مغنية الأوبرا عندما دق جرس التليفون فأخذت تتكلم باللغة اليونانية والترمومتر فى فمها .

وهو يفحص الفنانين فى ممرات القطارات والطائرات والسيارات وأى مكان وكل الأمكنة .

أراد يوما أن يعرف . هل يفيق أورسون ويلز من الخمر ليستطيع التمثيل فسأله :

ـ ماهى الأفلام الثلاثة الأخيرة التى مثلتها ؟

قال :ـ

ـ ماكبث وهاملت .

ثم توقف وقال :ـ

ـ لماذا أجيب على هذه الأسئلة الغبية ؟! اخرج !

وطرده من الغرفة .

وجد الطبيب على الباب مندوب الشركة المنتجه فروى له القصة .

قال الرجل للطبيب :

ـ انتظر . . سأحاول .

وبالفعل نجح فى إقناع الفنان الذى استقبل الطبيب قائلا :

ـ أنا مدين لك باعتذار .

قال الطبيب :

ـ كلنا لدينا أيامنا العصيبة .

وأعاد سؤاله عن الفيلم الثالث فلما ذكره قال الطبيب :

ـ إنه فيلم لا يليق بك ولهذا امتنعت عن الاجابة .

قال أورسون ويلز :

ـ الإنسان يجب أن يأكل . . وقد اضطررت لتمثيله !

ووجد الطبيب ثورن الممثل أنتونى كوين ومعه مصمم الأزياء يجرى بروفة لبدلته الجديدة .

قال مصمم الأزياء للفنان ردًّا على ملاحظته :

ـ أكتافك ليست عريضة .

ثار أنتونى كوين وأخذ يصرخ :

ـ أنا أكتافى ليست عريضة ؟!

وخلع ملابسه ليفحص الطبيب أكتافه قائلاً :

ـ ما رأيك يادكتور ؟!

اضطر الطبيب للمجاملة بينما صرخ كوين فى مصمم الأزياء :

ـ خذها . . واصنع بدلة أخرى فهذه لا تصلح لى .

وقال للطبيب :

ـ ذلك الرجل لا يحسن عمله .

وجاءه فنان أخذ يقول :

ـ اشتريت أول سيارة رولزرويس .

وفى كل لحظة كان يترك الفحص ليشاهدا معا السيارة من النافذة .

وفى مرة تالية أراد الطبيب مجاملته فسأله عن السيارة . قال الفنان :

ـ بعتها لأنها لا تناسب كلبى .

والطبيب يرى جوانب غريبة من حياة الفنانين .

عندما عادت « ريتا هايوارث » إلى التمثيل بعد سنوات من الغياب سمعت مساعد المخرج الشاب يقول متسائلا :

ـ من هى « ريتا هايوراث » ؟

لم تستطع التمثيل ولزمت غرفتها وادعت أنها مريضة فلما فحصها الطبيب وجدها تبكى لأن الناس تنكروا لها والشركة المنتجة لا تعاملها كبطلة بل تعاملها كممثلة ثانوية .

قال الطبيب برقة إنها لاتعانى مرضا ويجب أن تمثل . . فوافقت ووعدت بالتمثيل فى اليوم التالى .

ولكنها كانت قد فقدت الثقة فى نفسها فتركت الاستوديو والمدينة كلها وسافرت بعيدا فأقامت الشركة دعوى ضدها لأنها فسخت العقد .

حدث يوما أن كان الطبيب يفحص الفنان « فيكتور ما تيور » عندما وصل المخرج ليقول للفنان :

ـ لابد من لقطة تحارب فيها أسدا .

صرخ الفنان واعتذر .

قال المخرج :

ـ سنخدر الأسد .

قال الفنان :

ـ أبداً .

قال المخرج :

ـ إنه أسد عجوز نزعت أسنانه .

قال الفنان :

ـ سيعضنى باللثة وحدها .

وظل الفنان يرتجف والطبيب يفحصه دون أن يشكو مرضا حتى تعهد المخرج أن يقف بجواره ليلتهمه الأسد أيضا !

●●●

فحص الطبيب « نورث » ألوف الفنانين ولم يرفض خلال أربعين سنة التأمين إلا على ثلاثة من الفنانين .

حدث أن كان يفحص الفنانة « كاترين هيبورن » فوجدته فى حالة إعياء . قالت :

ـ أنت مريض .

قال :

ـ زوجتى تركتنى بعد ٢٥ عاما من الزواج السعيد .

وأخذ يبكى . . فلما سألته :

ـ من المخطىء ؟!

قال :

ـ أهل الفن جميعا .

و « ثورن » فى صباه كان يملأ جدران حجرته بصور أجمل الفنانات فلما أصبح طبيبا قال فى ختام مذكراته :

« من يصدق ذلك . . أراهن عراة وأتقاضى عن ذلك مالا ضخما . . من شركات التأمين » !

المرأة وأدب الجريمة

كان العالم على وشك الانفجار.

وضع السوفييت صواريخهم فى كوبا ، وهدد الرئيس الأمريكى جون كيندى بإعلان الحرب . وحاصرت السفن الامريكية شواطىء كوبا . وأخذ خرشوف يهدد ويتوعد قبل أن يتراجع .

فى عنفوان هذه الازمة الدولية قصد محرر أدبى إلى جون كيندى يسأله :

ـ ماذا تقرأ هذه الايام ؟

توقع الصحفى أن يقدم الرئيس الامريكى كتبا سياسية ، وعسكرية ، وامتنع إلا عن قراءة التقارير الرسمية . ولكن كيندى قدم مفاجأة . قال :

ـ أفضل فى هذه الأيام ، وفى كل وقت الكاتب إيان فلمنج على كل كاتب آخر .

نظرا إليه الصحفى فى دهشة وقال :

ـ فلمنج مؤلف روايات جيمس بوند ؟ لابد أنك تضحك منى ياسيدى الرئيس .

قال كيندى :

ـ إنى جاد كل الجد . هذا هو كاتبى المفضل .

وقبل ذلك قال إبراهام لنكولن الرئيس الذى اشتهر بأنه محرر العبيد الأمريكيين :

ـ أقرأ إدجار ألان بو . . الكاتب الأمريكى البوليسى .

وودرو ولسون الرئيس الذى أعلن مبادىء حق تقرير المصير للشعوب فى الحرب العالمية الأولى كان يقرأ لروائى بوليسى اسمه فليتشر .

وفى المرات القليلة التى تحدث فيها جوزيف ستالين الديكتاتور السوفييتى الدموى قال إنه ، مثل لنكولن ، يقرأ روايات إدجار ألان بو .

ولايظن القارىء أن الروايات البوليسية هى الهواية المفضلة للرؤساء فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فحسب . . بل إن الروايات البوليسية تمثل ربع الروايات المباعة فى العالم ، يقرؤها أطفال المدارس ويخفونها داخل الكراسات والكتب المدرسية ، وتطالعها الأمهات العاملات ، لأنها تعطى الجميع حالة من الاسترخاء . . وأطلق عليها البعض تعريفا بأنها « أدب الهروب » .

وقال آخرون :

- الرواية البوليسية ليست أدبا على الاطلاق .

ولكن كتاب هذه الروايات دافعوا عن أنفسهم قائلين :

- كل الآداب العالمية تقريبا تعتبر أدبا بوليسيا وإن لم يقبض رجال الشرطة على أحد أو يحاكم القضاء متهما .

وأضافوا :

- المتهم يعترف أمام رجال الشرطة فى الروايات البوليسية . . وفى الروايات الأدبية الأخرى يعترف البطل بذنبه لنفسه أو لآخرين ليست لهم صفة الضبطية القضائية !

ولا يحاكم المتهم أمام القضاء ، ولكن ضميره هنا هو القاضى .

وقال الذين يعارضون هذه النظرية :

- لايوجد أدب فى الروايات البوليسية . والشخصيات ليست أدبية . والعمل غير فنى .

واختلاف الآراء لايلغى حقيقة رواج الرواية البوليسية فى كل الدنيا .

●●●

فى المؤتمر السنوى الاخير لكتاب الروايات البوليسية فى نيويورك قال الكابتن بيتر مارتن أن كل إنسان يمكن أن يكون كاتبا للروايات البوليسية ، وأن الصدفة وحدها دفعته لأن يكون أحد هؤلاء الكتاب .

●●●

لم يجد رجال الشرطة أحدا فى دار السفارة البريطانية فى طوكيو سوى المستشار الثقافى فاتصلوا به قائلين :

ـ يوجد قتيل من بلادك فنرجو الحضور للتعرف عليه .

قال المستشار الذى يرأس فى نفس الوقت المركز الثقافى البريطانى :

ـ وما شأنى أنا بالقتيل ؟

قال مفتش الشرطة :

ـ لايوجد فى دار السفارة سواك فى الوقت الحاضر ، فنرجو حضورك . مجرد إجراءات شكلية .

ومرة أخرى رفض رجل الثقافة الحضور، فقد وصل حديثا ولا يعرف أحدا من الإنجليز يعيش فى اليابان .

ولكن إزاء إصرار الشرطة توجه إلى مكان الحادث . شاهد الجثة وأداة الجريمة وفزع من هذا كله واضطرب وكاد يغمى عليه .

اضطر رجل الشرطة الى إرساله لمستشفى فبقى فيها يومين عرف خلالها أن القتيل لم يكن بريطانيا بل أمريكيا كما اتضح من الأوراق التى وجدت فى جيبه ، فتوجه لمفتش الشرطة يعاتبه لأنه أرهقه ، وأرقه ، بلا مبرر .

أخذ الضابط يعتذر والمستشار الثقافى يلومه حتى هدأ ثم توجه بيتر مارتن عائدا الى بيته .

استعان بحبوب منومة دون جدوى . واخيرا أشرقت فى رأسه كلمة قالها مفتش الشرطة وهو يودعه :

ـ انها تجربة لن تتكرر فى حياتك .

قال رجل الثقافة لنفسه :

ـ مادامت لن تتكرر فسأكتبها على الورق .

وكتبها صفحة من مذكراته ، ثم رأى أنها تصلح قصة قصيرة حولها إلى رواية وبعث بها إلى إحدى دور النشر فى لندن التى رفضتها على الفور قائلة :

ـ لا تصلح .

لم يهدأ بيتر مارتن ، ولم يتوقف . كتب رواية أخرى تدور حول مفتش شرطة يابانى

اختار له اسم « أوتانى » ـ وهو اسم أحد فنادق طوكيو ـ يفتش عن المجرمين الأجانب فى بلاد اليابان ، يتعقبهم ، وقبض عليهم فى نهاية الرواية .

وكانت فكرته بسيطة .

إن « آرثر كونان دويل » ابتكر شخصية شرلوك هولمز رجل الشرطة البريطانى الذى يعمل لحسابه ، أى لايعمل فى شرطة لندن أو سكوتلاند يارد أو الشرطة البريطانية كلها ، بل هو مخبر خاص يستعين به الجميع .

و « جورج سيمينون » الكاتب الفرنسى صنع شخصية ضابط الشرطة الحكومى « ميجريه » .

والكاتبة « أجاثا كريستى » اعتمدت كل رواياتها البوليسية على الضابط « بوارو » البلجيكى العجوز المغرور الذى لايفلت مجرما واحدا من العقاب .

ورأى بيتر مارتين أن يقدم الضابط اليابانى بطريقة أخرى . إنه موظف حكومى يابانى ، من الجيل القديم ، الذى يحب زوجته ويصحبها معه فى العطلة الصيفية إلى الفنادق التى يقضى فيها العاشقون الاجازات الغرامية فينتقده الناس ثم يفاجأون فى النهاية بأنها زوجته !

وهو يصف الاتجاهات الجديدة فى الجريمة فى اليابان من خلال جريمة غريبة يقدم خلالها أحوال المرأة ، وحفلات الشاى ومسارح العرائس والكوارث الطبيعية من فيضانات وزلازل .

إن كل ما عاشه من تجارب ثقافية وفكرية ، وكل ماتعلمه بحكم منصبه كمستشار ثقافى يقدمه فى روايات عن الجريمة ، وبذلك اختلفت كتبه عن كل مؤلفى الروايات البوليسية الذين تدور صفحات كتبهم حول تقديم المتهمين والبحث فى أعماقهم المريضة ، أما هو فإنه يقدم صورة كاملة للمجتمع ، وبالذات من خلال اللوحة الثقافية التى يعرفها تماما .

إنه رجل فكر يريد أن يرفه عن القارىء الذى لايعرف اليابان . وفى الوقت ذاته يريد أن يعرف هذا القارىء شيئا أساسيا عن ملامح الحياة الثقافية والاجتماعية فى اليابان .

وانتظر مارتين حتى سافر عائدا إلى بلاده فى أجازة فتوجه إلى أحد الناشرين الكبار .

قال له :

ـ لقد نشرتم لى مع زوجتى كتابا مشتركا اسمه « الطهى فى اليابان » فهل تنشرون روايتى البوليسية .

قرأها الناشر ثم رفضها .

وفى الإجازة التالية توجه إلى ناشر آخر فرفض روايته الثالثة .

وأراد الناشر أن يعتذر قائلا :

ـ معلهش ربما نقبل رواية أخرى لك . حاول .

قال الكاتب :

ـ معك الحق . لقد حاولت .

وأخرج من حقيبته رواية رابعة كان قد كتبها وأخفاها .

ولم يستطع الناشر الا أن يطالعها بعناية ثم قبلها ونشرها .

وخلال السنوات الثمان الماضية نشر بيتر مارتين ثمانى روايات بوليسية باسم مستعار هو جيمس ملفيل ، لان عمله الدبلوماسى فى اليابان أرغمه على ألا يكتب عن بلد يعمل فيه باسمه الحقيقى !

ولما اعتزل العمل الدبلوماسى كان اسم الشهرة المستعار قد عرف فلم يستطع أن يتخلى عنه .

وعندما استقال من الوظيفة أخذ يزور اليابان مرة فى كل عام يجوب خلال الشوارع الخلفية ، ويدخل الأزقة ، ويلتقى بالمساجين ، ويشهد ، مع مترجم جلسات محاكم الجنايات ويختزن هذا كله ثم يعود إلى وطنه يكتب روايات بالإنجليزية تترجم الى اللغتين الألمانية واليابانية ، فقد وجد الناس أن خيط الجريمة الذى يلم شمل الرواية ويربط احداثها لايمنع أبدا من الإحاطة ببعض الفكر وتقديم أشهر الكتاب والافلام والمسرحيات والحياة العائلية فى اليابان .

والعجيب فى الأمر أن اليابانيين أنفسهم لم ينجحوا فى أدبهم فى تقديم ضابط شرطة له شهرة عالمية . أما مارتين ، أو جيمس ملفيل ، فإن بطله يجمع بين مزايا كل الشخصيات البوليسية التى عرضها العالم ، ولكنه يختلف عنهم فى عدة أمور .

إنـه يعرف التطورات الجديدة التى وقعت فى اليابان ، وأدت الى تغيير السلوك الاجتماعى . ولذلك فإن رواياته تقدم الرجل اليابانى الذى يحب عمله أو يدمن عمله . يغادر بيته مبكرا ويعمل حتى ساعة متأخرة ولا يتحدث عن هذا العمل أمام زوجته وينتظر منهاوجبة جاهزة وحماما ساخنا ينتظره عند عودته إلى البيت ، وفى الوقت ذاته ، تقدم الرواية نفسها المرأة اليابانية التى لم تعد تمشى خلف الرجل كالجارية بل تعمل مثله وتنافسه !

وبيتر مارتين درس الفلسفة فى جامعة لندن وظل ٢٣ سنة يعمل مدرسا ومستشارا ثقافيا فى أندونسيا والمجر واليابان .

وفى بداية حياته كان يأمل أن يؤلف كتبا فى التعليم أو الفلسفة . ولم يخطر بباله يوما أن يدخل قسما من أقسام الشرطة أو يقرأ رواية عن الجريمة . وبالتالى لم يفكر أبدا فى تأليف قصة بوليسية .

وعندما سئل عما إذا كانت فكرة الروايات البوليسية قد اختمرت يوما فى عقله وهو لايدرى .

قال :

- ابدا .

فى مؤتمر نيويورك قال الكتاب أعضاء المؤتمر :

- تجارتنا ، أى السلعة التى نبيعها ، هى الطمع والحقد والانتقام والغيرة والخيانة .

سئل أحدهم :

- هل تحس بهذه العواطف ، أو هل تمارس هذه الرذائل أو الخطايا ؟

قال :

- أنا مثلكم جميعا . لا أقوم بهذه الأعمال المخيفة والجرائم الرهيبة، إنى أحس بها على الورق فحسب .

وقال آخر :

- أسرق الصابون من الفنادق وأقود سيارتى بسرعة ، وهذه ، فيما أعلم ، جرائمى !

وتحدثوا فى المؤتمر عن أسلوبهم فى الكتابة .

بعضهم يبدأ الكتابة وفى رأسه عقدة الرواية .

والبعض يحدد الأشخاص أو الفصول .

والبعض يحدد مكان الأحداث .

وهناك من تكتمل فى عقله الرواية كاملة بحيث يستطيع أن يكتب الفصل السادس مثلا قبل أن يكتب الأول، وهكذا ثم يعيد ترتيب الرواية .

والبعض يمسك القلم وعنده مجرد فكرة غامضة مبهمة ولكنه يكتب متمهلا ثم تتابع الاحداث ، أو تأتى اليه مع كل فصل .

وقالوا :

ـ الأدب البوليسى ، إن صحت هذه التسمية ، تغير أو يجب أن يتغير . إنه الآن يدور حول الجرائم الاقتصادية فقد أصبح الناس جميعا ينجهون إلى المال يفهمون أموره ويعرفونها، ولذلك ظهرت الروايات البوليسية المالية . وجاء العقل الاليكترونى بجرائم جديدة ، ثم الارهاب والخطف والجرائم السياسية، ولكن لابد أن تدور موضوعات الجريمة الجديدة حول العصر النووى والمجرمين فى زمن حرب النجوم .

وقالوا :

ـ الجريمة أسبابها محدودة ولكن وسيلتها لم تعد محدودة، ومن هنا فإن كاتب الرواية البوليسية أصبح مثل كاتب الرواية العملية، أو يجب ان يجمع العلم بالجريمة ويكتب الجريمة بأسلوب علمى مثير .

وتحدثوا عن فكرة الرواية، ومن أين تجىء وهل ترتبط بحياتهم الشخصية أم لا .

قالت إحدى السيدات :

ـ دخل يوما لص وسرق بعض مال فى بيتى . وقد تخيلت الجريمة . وبنيت عليها رواية .

وقال كاتب :

ـ نأخذ من حياتنا الشخصية فكرة المكان .

وقال ثالث :

ـ انظر إلى الاشخاص الذين أكرههم وأحملهم على الورق كل جرائم البشرية !

واتفقت الغالبية على أن الرواية البوليسية هى حقيقة خيالية ، أى فيها جانب من الحقيقة وجانب من الخيال .

ولكن أغـرب ما قيل فى المؤتمـر عن مشاعر هؤلاء الكتّاب وهـم يصفون الجرائم الوحشية ، وهل يتألمون أو ينفعلون .

قال الجميع :

ـ أبدا . نحن نكتب بلا انفعال .

ولكن الكاتبة روث ريندال قالت :

ـ وصفت يوما خطف طفل وتعذيبه دون أن أتألم لذلك ، وإنى عادة ، لا أطالع ما يكتبه زملائى . وقد حدث أن قرأت وصفا لجريمة فاقشعر بدنى وتساءلت . . كيف يفعلون ذلك مع أنى أمارس هذه الوحشية فى صفحات كتبى بلا ألم .

وقالوا جميعا أن الفرق بينهم وبين كتّاب الروايات الاخرى أنهم يتكلمون عن البشر والانفعـالات الانسـانية بصفـة عامة ، فهم كتّاب عالميون ، بينما أغلب كتاب الادب الروسى كتبوا عن روسيا ، وكتّاب الادب الامريكى كتبوا عن أمريكا ، ولكن الكاتب البوليسى يصف الانسان فى كل مكان !

وفى المؤتمر ظهرت حقيقة جديدة ،وهى أن العالم أصبح يقدر كاتب الرواية البوليسية فهنـاك أكثـر من كاتب يروى تاريخ حياتهم وعلاقة حياتهم الشخصية بالجرائم التى يتكلمون عنها فلابد من وجود جانب من حياتهم عبر سطور كتبهم !

وتمنـح الجـامعـات الكـبرى درجة الدكتوراه الفخرية لعدد من كتاب الروايات البوليسية وتتنافس الجامعات أيضا فى شراء مسودات كتبهم كما تفعل مع غيرهم من كبار الكتّاب وهناك أندية بأسمائهم فى دول كثيرة ، إذ لهم معجبون ومحبون مثل الفنانين .

●●●

وقد راجت ترجمات الروايات البوليسية إلى اللغة العربية ، وتابعناها فى الاذاعة قبل ظهور التليفزيون وفى السينما وأخيرا على شاشات التليفزيون .

ولكن العالم العربى عرف كتابا كبارا فى كل فنون الأدب إلا فى الروايات البوليسية .

ولم تشتهر شخصية روائية بوليسية فى الادب العربى كما اشتهرت شخصيات أخرى .

ومادام المؤلف البوليسى العربى لم يظهر بعد فإن الشخصية الروائية لاتزال فى ضمير الغيب ، رغم حاجة القارىء الى هذا اللون من الأدب . ولكن الحاجة إلى لون أدبى لاتفرض ظهور هذا الفن .

والغريب فى الأمر أن القصص البوليسية للأطفال وجدت فى العالم العربى وإن كانت العقدة والحبكة فى أغلب الاحوال ، أو بعضها ، أجنبية وإن وضعت أسماء عربية للشخصيات ونقلت الاحداث من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة إلى عواصم عربية والى الريف والحياة العربية .

ويبقى سؤال :

- متى تظهر الرواية البوليسية العربية للكبار ؟

والجواب كما يقولون :

- عندما تظهر الكاتبة العربية للرواية البوليسية .

وهنا يثور سؤال أخر :

- ولم المرأة بالذات ؟

والجواب مرة أخرى :

- فى كل بلاد الدنيا وجد الروائى البوليسى وتبعته الروائية ولكن العصر الذهبى لهذه الرواية لم يبدأ بالدكتور أرثر كونان دويل الذى قدم شخصية شيرلوك هولمز بل بدا هذا العصر منذ نحو نصف قرن بظهور الكاتبة الروائية البوليسية ، وأشهرهن بالنسبة لنا فى العالم العربى أجاثا كريستى .

●●●

وأجاثا كريستى ربتها أمها الأرملة . ولم تتلق تعليما منتظما فى المدارس أو الجامعات .

فى البداية كتبت شعرا . وفكرت أن تكون مغنية أو عازفة بيانو ولكنها لم تستطع ممارسة هوايتها . كانت تخجل من الوقوف أمام الناس لتمثل . ووجد المختصون أنها لا تصلح كعازفة ، وصوتها لا يؤهلها لتكون مغنية .

اتجهت إلى الكتابة فألفت ٣ روايات رفضها الناشرون جميعا .

وقامت الحرب العالمية الأولى لتعمل ممرضة فى أحد المستشفيات فعرفت شيئا عن السموم ورأت أن تكتب الرواية البوليسية .

وخلال ١٨ شهرا ألفت روايتها الأولى ولكن ثلاثة من الناشرين أبوا قبولها .

قالوا إنها تقليد لروايات،هولمز إذ يوجدالصديق الغبى والمخبر الذكى .

ومعروف أن لشرلوك هولمز صديق طبيب اسمه الدكتور واطسون يعجز عن حل الألغاز فيقدم له هولمز مفاتيح الحل . ولكن واطسون لايمسك بها ولا يهتدى الى الابواب التى يمكن فتحها بسهولة .

ونجحت أجاثا كريستى فى الوصول الى ناشر ظل تسعة شهور مترددا فى نشر روايتها الأولى .

طبع منها ألفى نسخة وانتظرت عشر سنوات كاملة حتى صدرت الرواية فى الولايات المتحدة . ولم يتجاوز ما حصلت عليه من ثمن ٢٥ جنيها . وأخيرا اهتدت إلى طريقة الانتشار .

قدمت شخصية رجل الشرطة البلجيكى هيركيل بوارو الذى يكتشف سر الجريمة .

وساعد على النجاح أن الحوار خفيف لا يرهق ذهن القارىء .

ومن ناحية أخرى فإن القارىء لا يرتبط عاطفيا مع شخصيات الرواية . لا يعنيه مصيرهما على الإطلاق ، لا القاتل أو القتيل . ففى كل رواية يوجد الاثنان معا لأن كل رواية تعتمد على جريمة . ولكن القتيل لم يكن حيًّا كما نفهم نحن الحياة . ولا يوجد ما يدعو القارىء للأسى على حياته أو الرغبة فى الانتقام من المجرم أو الاشفاق عليه . ولايعنى القارىء كثيرا مشهد الاحداث ، أى مكان الجريمة ، فإنه لا يتميز بشىء خاص .

القارىء يلتهم الرواية للتسلية ولا يريد منها شيئا آخر .

ولكن رواية أجاثا كريستى الثانية طبعت مرة ثانية بعد أسابيع من ظهور الطبعة الأولى .

وساعد اختفاء الكاتبة سبعة أشهر على إثارة اهتمام الناس بكتبها وألغازها . فقد أصيبت بحالة مرضية وفقدت ذاكرتها فلم تعرف أين هى أو من هى ؟

فلما عادت إليها ذاكرتها عادت اليها أضعاف شهرتها .

ومن ناحية أخرى فإن روايات أجاثا كريستى لا تشهد عنفا كما نرى فى روايات الجريمة على شاشة التليفزيون . لا يوجد رجل عصابات يمسك مدفعا يقتل به دون تمييز، أو شقراء تفتح الباب وفى يدها مسدس تقتل الجميع .

أحداث الرواية تجرى فى بيئة عائلية تقريبا . داخل مدينة صغيرة أو قرية منعزلة والمكان يغلق على عدد قليل من المشتبه فيهم ويترك للقارىء محاولة الوصول أو الاهتداء الى القاتل .

الرواية تدور حول طريقة غريبة للقتل والمخبر ، البوليسى ، السرى ، الرقيق يصل الى القاتل .

وأجاثا كريستى مثل كل النساء تعرف ، وتفهم العواطف الانسانية .

الرواية تدور حول حب أو غيرة ، زواج أو طلاق ، جشع ورغبة فى الحصول على المال ، ويرفض البطل أو البطلة الطريق القانونى الذى يوصله إلى هدفه . أولا يوجد طريق قانونى يبلغه هذا الهدف .

وتكون النتيجة أن تتفاعل المشاعر والعواطف الانسانية وتغلى لتصل الى النهاية المحتومة للرواية وعقدتها ، أى الجريمة ثم يبدأ البحث عن القاتل .

وأجاثا كريستى ، مثل النساء تهتم بالتفاصيل .وتستطيع اكتشاف الصادق والكاذب من المشتبه فيهم . هى وكيلة نيابة من طراز نادر ولذلك تنجح فى هذا اللون من الكتابة .

وهناك عشرات من الكاتبات البوليسيات الأخريات اللائى لم يشتهرن فى العالم العربى ولكن ، لشهرتهن دوى فى الخارج مثل الكاتبة المعاصرة مارش زميلة أجاثا كريستى وهى أيضا من أسرة متواضعة .

وهناك مارى ألينجهام التى قدمت المخبر البوليسى بأسلوب آخر وطريقة مغايرة تماما فى رواياتها عقدة جريمة ، وعقدة اجتماعية ايضا ، وفى عدد من رواياتها تسخر من أهل الفن والنقاد معا .

ورجل الشرطة ينتمى الى الطبقة الارستقراطية ويتصل بأصحاب النفوذ .

وفى بعض الروايات نجده ينتمى الى الاسرة المالكة ايضا . فالكاتبة تريد أن تختلف عن كل زملائها وزميلاتها ومن هنا تميز المخبر السرى ، ولم تختر له تابعا مثل شرلوك هولمز بل قدمت له خادما ، وهو شخصية فكاهية ليضحك القارىء ولا يمل .

والكاتبة البوليسية مارى روبرتس رينهارت ابتعدت تماما عن الأسلوب التقليدى .

المخبر فى رواياتها أرملة شابة أو فتاة فى سن الزواج تسمع اصواتا غريبة وتتعثر فى مفتاح اللغز . ومعظم اكتشافاتها للحل تأتى مصادفة .

وفى كل رواية نجدها تكرر هذه الكلمات :

ـ لو كنت أعرف ما عرفت الآن . لو أن الناس ذكروا الحقيقة للمفتش .

أو :

ـ لو أنها ـ أى المخبرة السرية ـ ذكرت ما سمعته لمفتش الشرطة الحكومى الرسمى لاستطاع الاهتداء الى القاتل . ولكنى لم أتكلم لأنى خشيت أن يضحك منى . . وماذا لو ضحك واهتدى ـ بعد ذلك ـ الى القاتل . ولكن الشهود لم يتكلموا . ولم تكن عندى الجرأة لأتكلم أيضا .

وعدد الشخصيات فى أغلب رواياتها محدود ، أحيانا خمسة كلهم مثار شبهة . والقاتل يظهر فى النهاية بعد ان يرتكب أربع جرائم !

وقد يقال :

ـ من الطبيعى الاهتداء الى القاتل .

لكن الحقيقة هى أن أحد القتلى يبدو وكأنه قاتل انتحر ومن هنا يظل القارىء مثارا حتى النهاية .

وتظل مارى رينهارث تكتب الى ما قبل وفاتها بعامين !

●●●

ودوروتى سايزر كاتبة بوليسية أخرى ولكن أغلب رواياتها من القصص البوليسية القصيرة . وقد امتازت هذه الكاتبة برغبتها فى البحث والقراءة للاهتداء الى الجريمة

الحقيقية من الناحية العلمية فهى لا تريد أن يجىء قارىء متخصص ليقول عن احدى رواياتها .

ـ هذه هى الجريمة المستحيلة ولا يمكن أن يموت أحد بهذه الطريقة .

وكانت دوروتى سايزر أول من قدمت طريقة حقنة الهواء أى الحقنة التى بلا دواء وتعطى للإنسان فى شريانه فيحدث الموت لأن الهواء ـ بداخل الحقنة ـ يوقف سريان الدم فى الشريان .

وقد ظلت دوروتى سايزر سعيدة باكتشافها ، أو بما قدمته من حقيقة علمية عرفتها قبل غيرها من كتاب الروايات البوليسية . ولكن العلم أثبت أخيرا أن هذه الحقنة لا تحتوى الا على سنتيمترين أو ثلاثة من الهواء ولايمكن أن توقف هذه الكمية مجرى الدم .

ولكن دوروتى ماتت قبل أن تعرف هذه الحقيقة ، أو قبل أن تكتشف أنها فشلت فى تقديم جريمة علمية سليمة مائة فى المائة كما كانت تقول !

● ● ●

وليسلى كارتريس التى قدمت لنا روايات « القديس » التى نراها على شاشة التليفزيون .

رأت أن تقدم بطلا جديدا ومختلفا تماما .

البطل ليس مخبرا عنيفا أو رقيقا . انه رجل عاطفى يلبس أحسن الثياب ويعرف أين توجد أشهى الاطباق . نصب من نفسه خصما للمجرمين يبحث عن الأدلة ويتعقبها ليصل الى القاتل .

وفى كل مغامراته يوجد عنصر فكاهى .

ولم تقدم ليسلى كارتريس القديس فحسب ، بل ظلت أكثر من أربعين عاما تقدم بطلا آخر هو « روبين هود الجريمة الحديثة » تشبها بروبين هود الذى كان ينقذ الفلاحين الأوربيين من قديم .

وأنيتا هيلين بروكس ، لها رأى . . ولها مشكلة !

ترى أن الرواية البوليسية لها جمهور عريض من القراء الذين يريدون الهرب من الواقع .

والكاتب البوليسى الذى تباع رواياته على نطاق واسع يربح من الرواية الواحدة ٣ ملايين دولار فضلا عن تحويلها إلى فيلم سينمائى وحلقات تليفزيونية مسلسلة تذاع خلال ثلاثة أيام أو أسبوع على الأكثر .

ولكن قلة فقط ينجحون ويبيعون والباقون يفشلون .

مشكلة انيتا أنها تزوجت من ناشر للروايات البوليسية أرغمها على أن تضع صورتها على غلاف كتابها الأول فظهرت وفى يدها سكين وعلى وجهها كل ملامح الشر .

أما زوجها الثانى فهو نفسه سر بوليسى غامض .

لقد اختفى تماما .

وأرسلت وراءه مخبرين سريين حقيقيين يبحثون عنه ولكنهم فشلوا فى العثور عليه أو معرفة مصيره .

وظلت تنتظره خمس سنوات دون جدوى . وأخيرا أقامت دعوى تثبت فيها أنه مات من الناحية القانونية .

وقالت انيتا للمؤتمر وهى تضحك :

- ربما لا يعرف ، حتى الآن ، أنه ميت !

●●●

وأدب الجريمة ليس عملية سهلة .

يعقد سنويا مؤتمر لكتاب الجريمة ، أى الروايات البوليسية بحضور الأطباء الشرعيين والصيادلة وخبراء الاسلحة ورجال الشرطة ليبينوا للكتاب كيف يموت الانسان . والرصاصات ومتى تكون قاتلة . وهل تؤدى بعض السموم إلى الوفاة السريعة وهل يمكن أن تظهر آثار هذه السموم ؟

والهدف من هذا المؤتمر ألا يصور الكاتب أو الكاتبة فى الروايات جريمة لا يمكن أن تتم حتى تكون الروايات البوليسية معبرة عن الواقع العلمى والطبى .

وليس هذا بالأمر الجديد .

ستندال الروائى الفرنسى الذى عاش فى عصر نابليون كان يقرأ صفحتين من القانون المدنى حتى لاتتعارض رواياته مع القانون .

وفى امريكا تعقد حلقات دراسية لشباب الكتاب يشهدها خبراء فى علم النفس والاجتماع ليقدموا خبراتهم عن العواطف البشرية وحالات الاكتئاب ومتى يكون

الانسان فى أسعد حالاته أو أتعسها ، وأكثرها مرارة ، فمن الضرورى أن تكون الرواية مبنية على أساس حقائق العلوم .

ولقد تغيرت كتابة الروايات البوليسية فى السنوات الأخيرة ، وخرجت عن مقاييسها القديمة .

لم يعد الشرير واضحا والطيب واضحا .

ولم تعد الشرطة . بعد أن رأينا فسادها فى الغرب ، تسرع وراء القاتل واللصوص بل صارت تشاركهم الجريمة أحيانا .

واختفت التفرقة الكاملة التى كانت تفصل بين الأبيض والأسود ، وظهر فى هذه الروايات اللون الرمادى !

ولم تعد الروايات تنتهى بالقبض على القاتل وعقابه .

أحيانا تترك العقدة النهائية ليصل اليها القارىء وحده ليتخيل ما اذا كان المتهم يدان أو ينجو . ان المتهم يحاصرها بالادلة ولكنه لا يحاصر بالإدانة ليتمتع القارىء بمزيد من الاثارة !

ويقال فى دوائر الادب البوليسى ، ان صح هذا التعبير ، ان المرأة هى التى غيرت هذا اللون من الرواية عن طريقها التقليدى وحدودها الجامدة .

للرواية . . بقيــة !

قصيرة وشعرها قصير . . جميلة وجذابة ولكن لسانها حاد .

التحقت بكلية البنات لتصبح طبيبة ولكنها لم تتمكن من اكمال دراستها فاشتغلت بالصحافة تكتب بعض التحقيقات لصحيفة يومية فى إحدى الولايات .

تزوجت من زميلهـا فى الـدراسة لكن الزواج لم يدم طويلا . . فالزوج لايعرف المسئولية ، ضربها يوما ضربا مبرحا حتى أنها خافت من تقلباته الفجائية على حياتها .

وبعد الطلاق تزوجت من صديق للأول . . فضمن لها الزوج الثانى الاستقرار .

كان يدفعهـا الى الكتـابـة . . وعندما تفقد الثقة فى نفسها يعطيها جرعات من الشجاعة وهو بالنسبة لها رئيس التحرير الودود . . كل ما تكتبه . . يعجبه ويرى فيه موهبة وعبقرية .

ولكن صحته مرهفة رقيقة فمرض ، ومرضت معه . وأصبحت لها جاذبية خاصة للحوادث . . فهى عرضة لها باستمرار . . ولكن الزوج المريض ظل يدير اعمالها .

ورغم أن كلا منهما كان يعتمد على الاخر إلا أن اعتمادها عليه كان أقوى . .

كلفها أحد الناشرين بالبحث عن اصحاب المواهب لينشر مؤلفاتهم فساعدته بكل قواها دون أن تتكلم عن نفسها . .

حدث يوما ان قال لها :

ـ سمعت أنك تؤلفين رواية .

نفت ذلك بشدة ولكن الناشر أصر فاحضرت له مخطوطا ضخما ، مشتتا مبعثرا غير منظم يحتاج اعادة ترتيب فصوله الى جهد ضخم . . ولكن الناشر لم ييأس وقرر أن ينشر الرواية ودفع لها . وكان عمرها ٣٥ سنة ـ مبلغا يعتبر ضخما ـ فى ذلك الحين وهو ٥٠٠ دولار .

أما ثمن بيع الرواية للقراء فكان ثلاثة دولارات وهو مبلغ كبير بالقياس الى اسعار الكتب . فى ذلك الزمان . . . عام ١٩٣٦ .

طبع الناشر من الرواية ـ ١٠٣٧ صفحة ـ عشرة آلاف نسخة فى أول الأمر نفدت فورا .

وفى ثلاثة أسابيع باعت الرواية ١٧٨ الف نسخة وقبل أن ينقضى العام كان وزع ١,٤٠٠,٠٠٠ نسخة .

وفى ٢١ شهرا باعت مليونى نسخة.

أما اسباب الرواج فكثيرة أولا ، بطبيعة الحال ، الرواية نفسها ، مستواها العالى . الدقة التاريخية . التفاصيل الدقيقة .

كان الشعب الامريكى فى الثلاثينات جائعا للترفيه والتسلية بعد الازمة الاقتصادية التى حدثت فى اواخر العشرينات واستمرت زمنا ضاعت خلاله ممتلكات الناس وانهارت شركاتهم وبيوتهم وثرواتهم ومراكزهم الاجتماعية كما انهار الجنوب اثناء الحرب الأهلية .

أما الآن فإن الطبعة غير الشعبية من الرواية تباع بعشرة دولارات .

وأصدرت دار النشر طبعة مشابهة تماما للطبعة الاولى ثمنها ١٦,٩٥ دولارا !

وقد شهدت فى مدينة أتلانتا الامريكية الاحتفالات التى جرت بمناسبة مرور نصف قرن على صدور رواية « ذهب مع الريح » .

عرضت سينما « فوكس » المحلية الفيلم كما اعتادت أن تفعل سنويا .

وأقيمت معارض وعقدت ندوات وأجريت مسابقات لمن يقلد البطل والبطلة . ومنحت جوائز لمن يشبهها .

وانتج طلاء أظافر باسم سكارليت ـ البطلة ـ وعرائس باسمها أيضا ثمن الواحدة ١٩٥ دولارا .

وعرضت فنادق المدينة أسعارا تشجيعية لمن يزور المدينة ويقيم فى فنادقها ويأكل فى نفس المطاعم التى أكلت فيها كاتبة الرواية .

ولم يكن اسم الرواية كما اختارته المؤلفة « ذهب مع الريح » بل كان « الطريق الى تارا » ثم تغير الى « غدا يوم آخر » وكان اسم البطلة بانسى فأصبحت سكارليت أوهارا .

أما الاحداث فلم تتغير أو تتبدل .

أنها قصة حب وقعت أثناء الحرب الأهلية الامريكية .

وكان اسم الرواية ـ غدا يوم آخر ـ تعبيرا عن خاتمتها .

البطل ريت باتلر أنيق كقرصان . خطر كتمساح . جرىء كشيطان . ولكنه رقيق ، محب ، شديد الحساسية . يخفى مشاعره بذكاء ودعابة .

أما هى فجميلة . أنانية مغرورة . تخدع نفسها . انتهازية ، غيرمخلصة، قوية الارادة .

انهار الجميع إلا هى . وعندها آمال لا تقبل الهزيمة .

تزوجت مرتين . ولها ابن من الزوج الأول ، وابنة من الزوج الثانى .

وقد اكتشفت ، بعد ألف صفحة من الرواية ، أنها تحب البطل « ريت باتلر » . ولكن هذا الاكتشاف جاء متأخرا ، والبطل لايملك الا الاشفاق عليها ولديه نوع غريب من العطف عليها .

إنها تعلن حبها له ولكنه يقرر الرحيل الى أوربا فتقول :

ـ وأنا ماذا سيحدث لى .

فرد قائلا :

ـ ياعزيزتى . انا لا اهتم أبدا .

وتبقى تفكر فى استرداده . وتقول لنفسها :

ـ غدا سأفكر فى طريقة أستعيده بها . « غدا يوم أخر » .

وتنتهى الرواية بفراق الحبيبين إلى غير لقاء .

ولعل أغرب مافى الرواية أن المؤلفة كتبت الفصل الاخير ، والخاتمة قبل أن تخط سطرا واحدا فى الفصل الاول . بل قدمت الرواية للناشر بدون الفصل الاول ، ثم كتبته بعد ذلك .

وكانت خاتمة حياة الكاتبة غريبة أيضا . .

فى هذه المدينة « اتلانتا » عام ١٩٤٩ ماتت مرجريت ميتشيل وهى فى الثامنة والأربعين عندما كانت تعبر الطريق فصدمتها سيارة تاكسى قضت عليها .

أما الرواية فقد حصلت على جائزة بوليتزر أعلى الجوائز الادبية والصحفية فى الولايات المتحدة بعد عام من صدورها وبيعت لشركة مترو جولدين ماير بعد شهر من صدورها قام المنتج دافيد سلزنيك بحملة دعاية للفيلم استمرت عامين قال خلالهما أنه يبحث عن فنانة تقوم بدور البطلة .

وأخيرا اختار للدور الممثلة البريطانية فيفيان لى واختار الممثل الامريكى كلارك جيبل ليقوم بدور البطل .

انتج الفيلم عام ١٩٣٩ .

ودفعت شركة مترو جولدين ماير للمؤلفة حينئذ ـ ٥٠ ألف دولار ، وهو مبلغ ضخم بحساب عام ١٩٣٩ ، ومبلغ متواضع جدا بحساب هذه الايام !

نال الفيلم ٨ جوائز أوسكار .

وربحت الشركة السينمائية المنتجة ـ مترو جولدين ماير ـ ٤٠٠ مليون دولار .

وعندما عرض لأول مرة على شاشة التليفزيون الامريكى أقبلت ٧٨ شركة على الاعلان عن منتجاتها أثناء الفيلم فقطع ٧٨ مرة لأذاعة اعلانات ثمنها ٤,٤ مليون دولار . . وكان ثمن الدقيقة الواحدة ١٤٦ الف دولار .

وبيعت خلال نصف قرن ٢٥ مليون نسخة من الرواية فى ٣٧ دولة بـ ٢٧ لغة ويباع منها سنويا حوالى نصف مليون نسخة . وقدمت فرقة موسيقية استعراضية الرواية باللغة اليابانية بأبطال كلهن نساء !

وقد يكون نجاح الرواية والفيلم مثيرا ، ولكن الأكثر إثارة ماحدث بعد صدور الرواية عندما ضغط الناشرون والمخرجون وشركات السينما على مرجريت ميتشيل لتؤلف بقية أو تتمة للرواية .

قالوا لها :

ـ ليس من المعقول أن تتوقف الرواية عند فراق الحبيبين ، لابد أن يعود أحدهما للآخر . . أكتبى الجزء الثانى وفيه يلتقيان .

قالت :

ـ هذه هى النهاية الطبيعية .

قالوا لها :

ـ لندع كاتبا أو كاتبة أخرى تقوم بهذه المهمة .

رفضت .

ولكن منتج الفيلم ـ دافيد أوسلزنيك ـ لم ييأس .

أغرى الكاتبة بالمال فأبت .

قال لها :

ـ ارفضى المال لنفسك ولكن وجهيه لأعمال الخير .

اعتذرت وقالت :

ـ لا يغرينى النجاح الضخم الذى حققته الرواية لأقوم بتأليف رخيص متعجل . إنى لم أكن احلم بنشر كتابى وأنتشاره . وأرفض الإفادة من شهرة الرواية . لقد كرهت الدعاية الضخمة التى منعتنى من أن تكون لى حياتى الخاصة .

قال لها :

ـ يمكننا انتاج فيلم « ابنة سكارليت اوهارا » . . لتكن البقية قصة الأبنة لا قصة البطلة الام وبذلك لاتغير خاتمة روايتها .

ولكنها اصرت على الرفض .

●●●

اشترت شركة مترو جولدين ماير حقوق الرواية من سلزنيك عام ٤٤ فضغطت على مرجريت ميتشيل . قالت لها :

ـ نريد دورا لكلارك جيبل يتألق فيه مرة اخرى من خلال الجزء الثانى من الرواية .

ولكن الكاتبة لم تعدل عن موقفها . قالت :

ـ ماذا اكتب ؟ هل أقول « العودة مع الريح » .

وبعد وفاتها قيل لزوجها ومنفذ وصيتها :

ـ يمكننا الاتفاق معك .

قال :

ـ لم تفكر زوجتى فى يوم من الايام فى أن سكارليت أوهارا ستلتقى بحبيبها .

وقال :

ـ موقفى هو نفس موقف زوجتى التى رفضت أن يمس كاتب أو مخرج شخصيات روايتها .

وبعد رحيل الزوج عام ١٩٥٢ تولى الدفاع عن الرواية شقيق الكاتبة المحامى ستيفنز ميتشيل الذى أمضى معظم سنوات حياته الاخيرة فى المحاكم يدافع عن حقوق التأليف ويمنع نشر تتمة ، أو بقية ، أو الجزء الثانى من الرواية فى الوقت الذى وجدت فيه دور النشر وشركات السينما أن نجاح « ذهب مع الريح » يمكن أن يستمر .

أراد أن يحسم الامر فقال للسينمائيين :

ـ مات الابطال فمن يقوم بأدوارهم ؟

قالوا :

ـ الماكياج يحل المشكلة .

قال :

ـ هذا صعب أو مستحيل .

قالوا :

ـ سيلعب آخرون أدوار أبناء وأحفاد الابطال . فنحن نريد ان يستنتج القراء أن النهاية السعيدة قد تحققت والابطال التقوا مرة اخرى .

ولكنه ظل يرفض حتى عام ١٩٧٥ .

اصبح عجوزا فى التاسعة والسبعين ووجد أن حقوق التأليف ستنتهى عام ٢٠١١ وسيصبح من حق أى كاتب أن يؤلف أجزاء اخرى للرواية أو بقية لها وربما يشوه الأحداث والأبطال مما يفقد الرواية الأولى الأصلية روعتها .

قال :

ـ لا أستطيع أن احارب الى الابد .

ومنح شركة يونيفرسال السينمائية والمنتجين ريتشارد زانوك ودافيد براون حق تأليف بقية للرواية خلال خمس سنوات .

وعلى ذلك تم تأليف رواية اخرى تجرى احداثها بعد ٨ سنوات من « ذهب مع الريح » .

ولكن وقع خلاف بين ريتشارد زانوك وشركة مترو فتوقف المشروع .

وسقط الحق الذى منحته ستيفنز لشركة يونيفرسال عام ١٩٨٠ فألفت الكاتبة آن ادواروز رواية ثانية تقرر أن تصدر ككتاب وفيلم ولكن شركة مترو جولدين ماير رفضتها فحفظت .

وأصرت شركة مترو على أن من حقها استكمال الرواية فأقام دعوى ضدها ومات منذ ٣ سنوات أثناء نظرها فأصدر القضاء حكمه بأنه ليس للشركة هذا الحق وأنه يقتصر على ولدى ستيفنز اللذين تجاوزا الخمسين من العمر .

وبقيت الرواية كما ألفتها مرجريت ميتشيل عام ١٩٣٦ .

وشكلت لجنة من ثلاثة من رجال القانون احدهم النائب العام لمدينة اتلانتا وهم اصدقاء ستيفنز .

عهد اليهم بحماية حقوق المؤلفة فرفضوا مسرحية ساخرة عن أبطال الرواية . وأنتجت شركة نوعا من الطماطم أسمته « طماطم سكارليت أوهارا » فقاضتها اللجنة ومنعت المحكمة أن تكون البطلة نوعا من الخضر !

●●●

وعندما انتج المخرج الفرنسى كلود ليلوش فيلما عنوانه « رجل وامرأة بعد عشرين عاما » تتمة لفيلمه « رجل وأمرأة » بنفس الابطال زاد الحماس فى الولايات المتحدة وفرنسا لأنتاج الجزء الثانى من « ذهب مع الريح » أو « ذهب مع الريح بعد ربع أو نصف قرن » .

تقدمت شركة فرنسية للجنة المحامين الثلاثة تطلب السماح بانتاج فيلم فرنسى تجرى احداثه فى فرنسا اثناء الحرب العالمية الثانية على أن يكون اطار الفيلم نفس المناخ الذى شهد أحداث « ذهب مع الريح » .

وقالت الشركة إن قصة الحب ستكون مشابهة تماما لقصة حب سكارليت أوهارا ولكن مع المقاومة الفرنسية ضد الالمان !

وتقدم أمريكيون كثيرون لأنتاج الجزء الثانى من الرواية وطلبوا موافقة الاوصياء .

قالو :

ـ لابـد من عنف وجنس لجذب شبـاب المشاهدين الذين تأثروا بموجة الافلام الحالية فرفض الاوصياء .

وقال آخرون :

ـ الرواية الاصلية وقعت اثناء الحرب الاهلية . . أصحاب المزارع سعداء ، أما الرقيق فلا يجد الا الخبز والعرق . فى الرواية طرفان البيض والعبيد ، فكيف يمكن الحرص على جو محافظ فى وقت يتكلم فيه الناس جميعا عن مجتمع متحرر .

وفى احتفالات العيد الخمسين لصدور الرواية سيطرت فكرةالبقية والتتمة والجزء الثانى على كل الندوات والمحاضرات .

واشترك الاوصياء فى الحوار .

وجهة نظرهم تتلخص فى ضرورة المحافظة على رواية كلاسيكية فإن ما أحبه الناس « ذهب مع الريح » قد يتحطم الى الابد . ولابد من الإبقاء على الصورة الحلوة التى أعجبت بها الاجيال .

قال الجيل الجديد من شباب المؤلفين :

ـ هذا هو التحدى العظيم الذى ينبغى علينا مواجهته . أن نستكمل أعمال الاولين ونتفوق عليهم .

ولكن الاوصياء أصروا على أنه اذا كانت البقية سوقية فسيمنعونها بقضايا لا تنتهى .

وتفرع الحوار الى أجزاء جانبية وهى كيف تكون الخاتمة : كتاب جديد ، أو فيلم ، أو حلقات تليفزيونية محدودة ، أو حلقات لاتنتهى أبدا .

وتدخل الجمهور فى الحوار من خلال مسابقات وأحاديث وبرامج إذاعية وتليفزيونية فطالبوا بتكامل الرواية الاصلية مع بقيتها .

أما المسئولون فى شركات السينما فانهم يقيسون الامور بمقاييس مالية .

ان رواية « رجل وأمرأة » تكلفت عند انتاجها لأول مرة ١٠٠ ألف دولار ارتفعت بعد عشرين سنة الى ٥ ملايين دولار . . فماذا سيتكلف الجزء الثانى من « ذهب مع

الريح » التى انتجت لأول مرة عام ١٩٣٩ . . . فالهدف فى كل الاحوال ليس الادب ولكن الحصول على مزيد من الارباح وهو مايقاومه الاوصياء حفاظا على رواية خالدة جذبت الناس جيلا بعد جيل .

وأخيرا رأى الأوصياء أن حقوق التأليف ستنتهى عام ٢٠١١ وبذلك يصبح من حق أى كاتب أن يضع نهاية أخرى للرواية . ولذلك أختار الأوصياء كاتبة من جنوب الولايات المتحدة اسمها الكسندرا ربيلى ـ ٥٤ سنة ـ لتضع خاتمة للرواية .

كتبت الكسندرا فصلين فى ٣٩ صفحة فوافقت عليهما شركة مترو جولدوين ماير ولكن تقرر طرح الرواية الجديدة فى مزاد بين الناشرين ينتظر أن يصل الى ستة ملايين دولار تدفع للكاتبة بالإضافة الى حقوقها الأخرى عندما تتحول الزواية الى فيلم .

سئلت الكسنـدرا عن خطتها بعد أن مات كلارك جيل ونيفيان لى فرفضت أن تتكلم وقالت :

ـ سيكون الجنس أكثر فى الرواية الجديدة . . فقد تغيرت الدنيا وقيمها عما كانت عليه !

لقد ماتت الكاتبة ولكن روايتها ، أو اسطورتها عاشت فوق رفوف المكتبات ودور السينما وعلى الشاشة الصغيرة !

والسؤال الآن :

ـ هل ستنجح بقية الرواية وبالذات مع الجيل القديم ؟

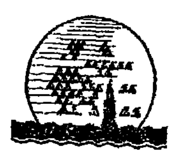
وسواء تحقق النجاح أم لم يتحقق فإن كل رواية ناجحة ستكون لها . . بقية !

فهـــرس

كتب للمؤلف

١ ـ حكايات صحفية	الناشر أخبار اليوم
٢ ـ الزواج سنة ٢٠٠٠	الناشر أخبار اليوم
٣ ـ تاريخ للبيـــع	الناشر أخبار اليوم
٤ ـ ولا عجيب الا الصين	الناشر أخبار اليوم
٥ ـ دفاع عن الزوجات	الناشر أخبار اليوم
٦ ـ سرقة واحة مصرية	الناشر أخبار اليوم
٧ ـ الصحافة قصص ومغامرات	الناشر أخبار اليوم
٨ ـ الشعب والحرب	الناشر المكتب المصرى الحديث
٩ ـ التليفــزيون	الناشر المكتب المصرى الحديث
١٠ ـ التاريخ السرى	الناشر المكتب المصرى الحديث
١١ ـ حرب البترول (المحاضر السرية لاجتماعات وزراء البترول العرب)	الناشر مجلة الاذاعة
١٢ ـ عندما يموت الملك	الناشر دار التعاون
١٣ ـ سنة من عمر مصر	الناشر دار المعارف
١٤ ـ التاريخ السرى لمصر (طبعة أكبر بوثائق بريطانية وأمريكية)	الناشر دار المعارف
١٥ ـ أصول الحكم	الناشر دار المعارف
١٦ ـ الشيطـــان	الناشر دار المعارف
١٧ ـ دنيا الصحافة	الناشر دار الهلال
١٨ ـ أفندينا يبيع مصر	الناشر مؤسسة الأهرام
١٩ ـ ٥ أيام هزت مصر	الناشر مؤسسة الأهرام
٢٠ ـ الانسان حيوان تليفزيونى	الناشر مؤسسة الأهرام
٢١ ـ سرقة ملك مصر	الناشر مؤسسة الأهرام
٢٢ ـ من قتل حسن البنا ؟	الناشر دار الشروق

رقم الايداع ٤٨٥٢
الترقيم الدولى ٥ ـ ٢١١ ـ ١٧٢ ـ ٩٧٧



دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هـذا الكتاب

تغير سوق الأدب والنشر فى السنوات الأخيرة ، ونشأت قضايا أدبية جديدة عجيبة .

كتّاب هذه الأيام يطلبون عدم الزام الطلبة بحفظ نصوص أدبية ومقطوعات من مؤلفاتهم ، حتى لا يكره الطلبة الأدباء والشعراء ، لأنهم فُرضوا عليهم بقرارات من سلطات التعليم .

وتفنن أصحاب دور النشر فى منح الجوائز لتشجيع شباب الأدباء ، ونظموا مسابقات لمن يؤلف رواية كبيرة فى ثلاثة أيام . وقد نجح الألوف .

وجعلوا الأدباء يؤلفون أمام الناس فى المعارض الدولية !

ونجحوا فى أن يجعلوا الكتاب الكبار يؤلفون كتبا مشتركة مع المؤلفين الجدد .

وفى هذا الكتاب يقدم الكاتب « محسن محمد » التجارب الأدبية الجديدة ، والأصول الحقيقية لكل الروايات العالمية الكبرى ، والمفتاح الذى يفتح لكل كاتب الباب الأدبى الضخم ، وأغرب الكتب فى العالم ، وتجارة الكتب القديمة وأشهر مكاتبها ، والمكتبات العامة التى تدفع للمؤلفين ثمنا لكل كتاب يطالعه قارىء ، والروايات التى تحولت إلى أفلام ، والمناهج الدراسية التى تتغير نتيجة للاحتلال أو الظروف السياسية والكتب المسموعة ، وكيف يحتفل العالم بالكتاب ، والمؤلفين المتخصصين من الأطباء وغيرهم ، والمرأة والأدب بصفة عامة ، وأدب الجريمة بصفة خاصة .

وفى الكتاب يقدم الكاتب قصة الروايات الشهيرة التى ألفها كبار الكتاب ، وكيف تكتب لها تكملة .. أو بقية !

عبد الحميد أحمد غريب

دار غـريب للطبـاعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة

ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩